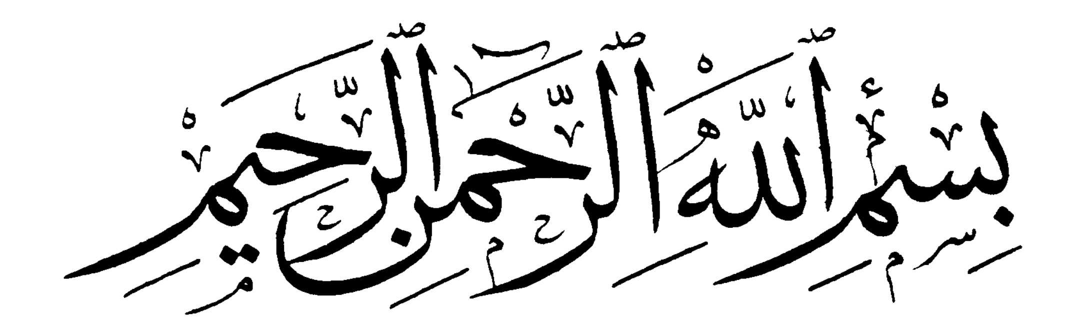

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

ترجمة المؤلف

اسمه:

هو الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي التميمي الحنبلي النجدي.

مولده:

ولد الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ- سنة ١١١٥ للهجرة النبوية في بلدة العيينة من بلاد نجد.

نشأته:

نشأ الشيخ في بيت علمٍ وشرف ودين؛ فقد كان أبوه عبد الوهاب قاضي العيينة ومفتيها، وجده سليمان كان مفتي الدِّيار النَّجدية.

نشأ الشيخ في هذه البيئة العلمية وتأثَّر بها، فقرأ القرآن وحفِظه وأتقنه قبل بلوغ عشر سنوات، ثم اشتغل بطلب العلم، قال عنه أخوه سليمان بن عبد الوهاب: كان أبوه يتعجب من فهمه، ويعترف بالاستفادة منه مع صغر سنه.

رحلاته في طلب العلم:

حين بلغ الشيخ سنَّ الرشد، قدَّمه أبوه لإمامة الصلاة، ثم طلب من والده الحجَّ فأذِنَ له، ثم قصد المدينة، ثم رجع إلى بلدة العيينة.

- سافر إلى الحجاز في طلب العلم، وأقام بها مدة يتردَّد بين مكة والمدينة، ثم رحل إلى البصرة في العراق لطلب العلم، وأقام بها مدة يأخذ عن العلماء، ويدعو إلى التوحيد، وضرورةِ الأخذ بالكتاب والسنة.

- ثم ذهب إلى الإحساء وأخذ عن علمائها، ثم توجَّه إلى حريملاء سنة (١١٤٠) للهجرة النبوية، وبعد ذلك ارتحل إلى العيينة عام (١١٥٣) للهجرة النبوية، ثم استقرَّ بالدرعية عام (١١٥٨) للهجرة النبوية.

مؤلفاته:

ألف الشيخ -رحمه الله- مؤلفات كثيرة، أغلبها في التوحيد، ومنها:

١ - "كتاب التوحيد".

٢ - "كشف الشبهات".

٣ - "الأصول الثلاثة".

٤ - "نواقض الإسلام".

٥ - "مسائل الجاهلية".

٦ - "مختصر زاد المعاد" وغيرها.

وفاته:

توفي الشيخ -رَحِمَهُ اللَّهُ- في عام (١٢٠٦) للهجرة النبوية، بعد عمر يقارب (٩١) سنة، عَمَرَه بالدعوة إلى التوحيد والجهاد، والعلم والتعليم - فرحمه الله رحمة واسعة.

مقدمة الشارح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أما بعد.

فهذا إملاء بشرح رسالة ثلاثة الأصول للإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله) وأجزل له المثوبة.

وقد راعيت فيه سهولة العبارة، ووجازة الإشارة، ليكون نهجاً للمسلم وطلاب العلم في تعلم التَّوحيد والإيمان.

وقد بناه المؤلف (رحمه الله) على أسئلة القبر الثلاثة وهي: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟ وقد أفاد وأجاد (رحمه الله) في تقرير الأجوبة بأدلتها بأسلوب ميسّر.

وقد أملينا عليها هذا الشَّرح بما يكمل مقاصدها ويوضح فوائدها، وبما لا غنى للمسلم عن تعلمه واعتقاده والعمل به...

وقد سميته (**نيل المأمول بشرح ثلاثة الأصول**). أسأل الله تعالى أنْ يجعله خالصاً لوجهه الكريم نافعاً لعباده.

وأنْ يجزي خيراً أخانا أبا تميم عيد الرفاعي لقيامه على العناية بإخراج الكتاب وتوثيق نصوصه وتخريج أحاديثه.

والحمد لله رب العالمين.

كتبه الفقير إلى الله

عصام بن عبد المنعم المري.

٢٤صفر١٤٤٢للهجرة.

القاهرة. مدينة نصر.

بين يــدي الرســـــــالــة

أولاً: تحقيق اسم الرّسالة:

قال الشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ: لماذا لم يقل المصنف: الأصول الثلاثة وأدلتها وما هي العبارة الأصح؟ الشيخ (رَحِمَهُ اللَّهُ) تعالى له رسالة أخرى بعنوان الأصول الثلاثة رسالة صغيرة أقل من هذه علمًا؛ ليعلمها الصبيان والصغار تلك يقال لها الأصول الثلاثة، وأما ثلاثة الأصول فهي هذه التي نقرأها، ويكثر الخلط بين التسميتين، ربما قيل لهذه ثلاثة الأصول، أو الأصول الثلاثة، لكن تسميتها المعروفة أنها ثلاثة الأصول وأدلتها[(١)]

ثانياً: أهمية رسالة الثلاثة الأصول؟

تأتي أهمية رسالة ثلاثة الأصول من جهة أنها أصول تمثل زبدة ما جاء به النبي (ﷺ) من ربه (عَزَّ وَجَلَّ) وهي:

١) أن يعرف العبد ربه ومعبوده وخالقه بأسمائه وصفاته وأفعاله، وأن يوحده بربوبيته وألوهيته.

٢) أن يعرف العبد دينه الذي أتمه الله تعالى وأكمله، وارتضاه له.

٣) أن يعرف نبيه (ﷺ) الذي أرسله الله تعالى رحمة للعالمين.

(١) انظر: شرح ثلاثة الأصول: صـ٦.

ثالثاً: النسخة المعتمدة في الشرح:

لقد اعتمدنا في الشرح على نسخة دار الثريا، مع شرحها لفضيلة الشيخ محمد بن صالح بن محمد العثيمين (المتوفى: ١٤٢١ هـ) (رَحِمَهُ ٱللَّهُ).

رابعاً: طبعاته:

وقد طبع متن ثلاثة الأصول عدة مرات منها:.

١ . طبعة إدارة الطباعة المنيرية بمصر دون تاريخ بتعليق الشيخ محمد منير الدمشقي، ويليها شروط الصلاة وواجباتها وأركانها، والقواعد الأربع للمؤلف.

٢ . طبعة دار المعارف المصرية بتعليق أحد أفاضل العلماء راجعها وصححها الشيخ أحمد محمد شاكر.

٣ . طبعة المكتب الإسلامي سنة (١٣٨٩ هـ) بعنوان عقيدة الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة.

٤ . في مطبعة التمدن باعتناء الشيخ أحمد حسون بعنوان متن الدين الإسلامي، ويليها كشف الشبهات للمؤلف.

٥ . طبعة مكتبة الإمام البخاري الدار السلفية للنشر والتوزيع والبحث العلمي بالإسماعيلية بمصر دون تاريخ في (٤٠) صفحة بتعليق أشرف بن عبد المقصود بن عبد الرحيم.

٦ . ضمن مجموع متون طبع في مطبعة المنار بمصر سنة (١٣٤٠ هـ).

٧ . ضمن المجموعة العلمية السعودية من نفائس الكتب الدينية والعلمية راجعها وصحح أصولها سماحة الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ (رَحِمَهُ ٱللَّهُ) تعالى.

٨ .ضمن مجموع الرسائل المفيدة المهمة في أصول الدين وفروعه طبع في مطبعة المدني بمصر سنة (١٣٨٠ هـ) من ص (٥) إلى ص (١٧).

٩ .ضمن المجموعة العلمية السعودية " من درر علماء السلف الصالح " حققها وراجع أصولها سماحة الشيخ عبد الله بن محمد بن حميد (رَحِمَهُ ٱللَّهُ) تعالى، طبعت في مطبعة النهضة الحديثة في مكة سنة (١٣٩١ هـ) من ص (٢٢١) إلى ص (٢٣٤).

١٠ . ضمن مجموعة الرسائل السلفية للشيخ علي بن عبد الله الصقعبي (رَحِمَهُ ٱللَّهُ) تعالى الطبعة الأولى سنة (١٤٠٢ هـ) من ص إلى ص (٥١).

١١ .مع كتاب كشف الشبهات للمؤلف (رَحِمَهُ ٱللَّهُ)، طبع في مطبعة سفير بالرياض، نشر دار ابن خزيمة بالرياض سنة (١٤١٤ هـ) وهي طبعة مشكولة بالشكل الكامل.

١٢ . ضمن مؤلفات الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب نشر جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية (١٨٣/١ . ١٩٧) دون تاريخ.

١٣ .ضمن الجامع الفريد المطبوع في مؤسسة مكة للطباعة والإعلان دون تاريخ على نفقة الشيخين عبد العزيز ومحمد العبد الله الجميح من ص (٢٣٧) إلى ص (٢٧٧).

١٤ .ضمن مجموع فيه إحدى عشرة رسالة، تصحيح ومراجعة الشيخين أحمد محمد شاكر وعلي محمد شاكر، نشر دار المعارف بمصر من ص (٩٥) إلى ص (١١١).

[ما يجب على كل مسلم أن يتعلمه]

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله): -

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

اعْلَمْ -رَحِمَكَ اللهُ- أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل:

(الأُولَى): الْعِلْمُ وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيّهِ، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة.

(الثانية): العمل به.

(الثالثة): الدعوة إليه.

(الرَّابِعَةُ): الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: بسم الله الرحمن الرحيم ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر: ١-٣].

قال الشافعي (رحمه الله) تَعَالَى: "لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ"

وَقَالَ البُخَارِيُّ (رحمه الله) تعالى: بَابٌ " العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [سورة محمد:١٩].

الشَّــــــرح

قال الإمام المجدد رحمه الله:

(بسم الله الرحمن الرحيم)، هنا يرد سؤالٌ: لماذا ابتدأ المؤلف كتابه بالبسملة؟ لعدة أمور:

الأمر الأول: اقتداء بكتاب الله (عز وجل) فإنه مبدوء بالبسملة.

الأمر الثاني: تأسياً بفعل النبي (صلى الله عليه وسلم) فقد كان يكتب الرسائل إلى الملوك يبتدئها بالبسملة؛ ومن ذلك:

رسالته (صلى الله عليه وسلم) إلى هرقل عظيم الروم ففيها: " بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم: سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين و﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران:٦٤].

فالسنة لمن أراد أن يكتب كتابا أن يبتدئ بالبسملة، والسُّنَّة لمن أراد أن يخطب أو يلقي محاضرة أن يبتدئ بخطبة الحاجة وأولها " إنَّ الحمد لله..."[١]، كما كان يفعل رسول الله (ﷺ).

قوله (بسم الله): الله أصلها (الإله)، وتطلق في الشَّريعة على المألوه بحق، وفسَّرها ابن عباس بقوله: «الله ذو الألوهية والمعبودية على خلقه أجمعين»[٢].

والتألُّه في اللُّغة: هو التَّعبُّد والتَّنسُّك.

قال الشَّاعر[٣]:

لله دَرالغَانيَات المُدَّه سَبحنَ واستَرجَعنَ من تَألهي

يعني: (من تَعَبدي وطَلَبي اللهَ بعَمَل)، ولا شَك أَنَّ (التأَلُّهَ) التفَعّل، من: (أَلَهَ يَألَهُ) وأَن معنَى (أَلَهَ) إذا نُطقَ به: (عَبَدَ الله) اهـ[٤].

---

(١) أخرجه مسلم (٨٦٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (١/ ١٢١).

(٣) هو: رؤبة بن العجاج التميمي.

(٤) ينظر: جامع البيان (١/١٢٢).

والمعنى: أنَّ هؤلاء الغانيات استغربن وقلن: سبحان الله؛ إنّا لله وإنّا إليه راجعون، متعجبات من نسكه وعبادته.

(المُدَّه) يعني المُدَّح.

(من تألهي) يعني من طلبي الله (ﷻ) بالعبادة.

والمعنى: أنه ترك اللهو والعبث وتفرغ للعبادة.

فقوله: **(سبحن واسترجعن من تألهي)** يعني من تعبدي، فهذا مما يدل على أنَّ معنى التألّه في اللغة التَّعبد والتَّنسك.

(أَلَهَ يأْلَهُ إلاهةً)، يعني عبد يعبد عبادةً، وبعض الناس يفهمها ويقرأها: **(أَلِه)** بكسر اللَّام، يعني (تحيَّر) فيكون معناه: الذي تتحير العقول فيه، وهذا معنىً ضعيف ومرجوح والصواب أنها من **(أَلَهَ يأْلَهُ إلهة)** أَي عبد يعبد عبادة؛ فالإله هنا هو: المعبود بحق، والله (ﷻ) ذو الألوهية والعبودية وهو المستحق للعبادة على خلقه أجمعين.

قال ابن عباس (ﷺ): ﴿وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ﴾[١] قرأها وإلاهتك، يعني يذرك وعبادتك[٢]؛ فـ **(الإله)**: اسم من أسماء الله الحسنى، **و(الألوهية)**: صفة من صفات الله العظيمة، فهو سبحانه المألوه المعبود الذي يجب أن تألهه القلوب وتخضع له وتذل وتنقاد.

ولفظ الجلالة **(الله)**: هو أعظم الأسماء الحسنى، قال سيبويه: "هو أعرف المعارف" أي لا يحتاج إلى تعريف، وهو الذي تتبعه جميع الأسماء فيقال: الله الرحمن، الرحيم، الكريم، الغفور، قال تعالى: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة الحشر:٢٢-٢٤].

---

(١) سورة الأعراف: ١٢٧.

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (١/٥٤).

قوله: (الرحمن الرحيم): هما اسمان لله تعالى يتضمنان صفة الرَّحمة وإثباتها لله (ﷻ)، فاسم (الرَّحمن) يتضمن الرحمة الواسعة لجميع الخلق مؤمنهم وكافرهم، إنسهم وجنهم، أما اسمه (ﷻ) **(الرَّحيم)** فمعناه ذو الرحمة الواصلة إلى المؤمنين خاصَّة قال تعالى ﴿وَكَانَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَحِيمٗا ﴿٤٣﴾﴾ [سورة الأحزاب:٤٣].

والأشاعرة يؤوِّلون صفة الرَّحمة لله (ﷻ) يقولون معناها: إرادة الإنعام أو إرادة الإكرام، وهذا موجود في تفاسير الأشاعرة كتفسير الجلالين وغيره، أما أهل السُّنَّة فيثبتون لله (ﷻ) الصِّفتين صفة الرَّحمة، وصفة الإرادة، فيجب التنبه لهذا.

قوله: (اعلم – رحمك الله –):

العلم هو: إدراك الشيء على ما هو عليه إدراكا جازمًا، وضدُّه الجهل.

والجهل على نوعين: –

الأول: الجهل البسيط: وهو عدم الإدراك بالكلية، كمن تقول له: متى توفي رسول الله صلى الله عيه وسلم؟ فيقول: لا أدري ولا أعلم.

الثاني: **الجهل المركب**: وهو إدراك الشيء على وجه يخالف ما هو عليه، كمن تقول له: متى توفي عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)؟ فيقول: سنة إحدى عشرة بعد الألفين من الميلاد فهذا جهل مركب.

وفي قوله: **(اعلم - رحمك الله -)** دعاء من المؤلف للطالب، وهذا يدل على عناية المؤلف (رحمه الله) بالطالب وقصد الخير له ودعائه له بالرحمة، وهكذا ينبغي على الداعي أن يكون رحيما بالمدعوين، وأن يترفق بهم في دعوته، وأن يتلطف معهم، وألا يستعمل معهم الغلظة والشِّدة، ومما يدل على ذلك: ما جاء عن عائشة (رضي الله عنها)، أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم)قال: «**يَا عَائِشَةُ إِنَّ اللهَ رَفِيقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى الْعُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ**»(١)، وفي الحديث الآخر: أنَّ النَّبي (صلى الله عليه وسلم)، قال: «**إِنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ**»(٢)؛ فهذه نصيحة مهمة للعالم، وطالب العلم، وللدّاعي إلى الله، خاصة في هذا العصر.

(١) أخرجه مسلم (٢٥٩٣). وفي رواية عند البخاري (٦٩٢٧): «يا عائشة، إن الله رفيق يحب الرفق في الأمر كله».

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٩٤).

قوله: (أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل): ينبه المؤلف (رحمه الله) إلى ضرورة تعلم أربع مسائل وهي:

الأولى: العلم: أي: العلم بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وبالقدر خيره وشره، ودين الإسلام عموماً.

الثانية: العمل به؛ لأنَّه ثمرة العلم، فهو كالثمرة للشجرة، فالعلم بلا عمل كالشجرة بلا ثمر، قال تعالى: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة النحل:٣٢]، وقال تعالى: ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِىٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة الزخرف:٧٢].

وقال عليٌّ -رضي الله عنه-: «هَتَفَ الْعِلْمُ بِالْعَمَلِ، فَإِنْ أَجَابَهُ، وَإِلَّا ارْتَحَلَ»[1]، فإنَّ تَرْك العمل بالعلم ينسي العلم، قال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾

(١) أخرجه الخطيب البغدادي في اقتضاء العلم العمل (ص٣٥).

[سورة المائدة:١٣]، قال العلماء: نسيان العلم هنا بسبب نقض الميثاق الذي أخذه الله عليهم وعدم العمل به.

قال ابن رجب (رَحِمَهُ اللهُ): «والمراد تركهم وإهمالهم نصيباً مما ذكّروا به من الحكمة، والموعظة الحسنة؛ فنسوا ذلك وتركوا العمل به وأهملوه» [١].

وفي حديث الثلاثة الذين تسعَّر بهم النار يوم القيامة «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى**

(١) انظر: بيان فضل علم السلف على علم الخلف صـ١٠.

وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ» [(١)]، فأول من تسعر بهم النَّار من تعلم العلم ليقال عنه هو عالم، ولم يرد بعلمه وجه الله والعمل به.

وأيضاً: فالعمل بالعلم يزيده ويبارك فيه، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ﴾ [سورة محمد:١٧]، وقد قيل: من عَمِلَ بما عَلِمَ أورثه الله عِلْمَ ما لم يعلم.

الثالثة: الدعوة إليه؛ لقوله تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [سورة النحل:١٢٥]، **فذكر في هذه الآية مراتب الدعوة بحسب المدعوين وهي:**

المرتبة الأولى: الدعوة إلى الله بالحكمة، وتكون للمسلم الموافق الذي صدر منه الشيء اليسير فهذا يستعمل معه العلم والرِّفق بدون تغليظ.

المرتبة الثانية: الموعظة الحسنة، وهذه تكون لمن يحتاج إلى زجر بالتَّرغيب والتَّرهيب، كالعاصي المسرف على نفسه ونحوه.

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠٥).

المرتبة الثالثة: **الجدال والمناظرة بأحسن الطرق وأقواها**، وهذه تكون لمن لديه شبهة أو الداعي إلى بدعة، قال تعالى: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ﴾ [سورة العنكبوت:٤٦]، ثم قال ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ فالذين ظلموا منهم لا يجادَلُون؛ بل يجالَدون بالسَّيف.

شروط الدَّعوة إلى الله:

الشَّرط الأول: أن يكون الدَّاعي إلى الله عالمًا بأحكام الله، لقوله: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [سورة يوسف:١٠٨]؛ فلا تصح الدعوة بالجهل والظن والتّقوّل على الدِّين.

الشَّرط الثاني: معرفة كيفية الدَّعوة؛ أي معرفة كيف يدعو إلى الله، وأساليب الدَّعوة، ومراتبها، ومتى يستعمل الرِّفق ومتى يستعمل الشِّدة.

الشَّرط الثالث: معرفة حال المدعو؛ هل هو من أصحاب الشُّبهات أم الشَّهوات ونحو ذلك؛ ودليله: ما جاء في الصحيحين أنَّ النَّبي (ﷺ) لمَّا بعث معاذ بن جبل إلى نحو أهل اليمن قال له: «**إنكَ تَقدَمُ عَلَى قَوم من أَهل الكتَاب، فَليَكُن أَولَ مَا تَدعُوهم إِلَى أَن يُوَحدُوا اللهَ تَعَالَى، فَإِذَا عَرَفُوا ذَلكَ، فَأَخبرهُم أَن اللهَ قَد فَرَضَ عَلَيهم خَمسَ صَلَوَات في يَومهم وَلَيلَتهم، فَإِذَا**

صَلوا، فَأَخبرهُم أَن اللهَ افتَرَضَ عَلَيهم زَكَاةً فِي أَموَالهم، تُؤخَذُ من غَنيهم فَتُرَد عَلَى فَقيرهم، فَإِذَا أَقَروا بذَلكَ فَخُذ منهُم، وَتَوَق كَرَائمَ أَموَال الناس»[1]، فلمَّا بعث النبي (ﷺ) معاذا أعلمه بحال من يأتيهم، وكيف يدعوهم، وكيف يتدرج معهم، وبأيّ شيء يبدأ، فقال له: (**إنكَ تَقدَمُ عَلَى قَوم من أَهل الكتَاب**)، أي اليهود والنصارى وهم أهل شُبَهٍ فلا بد أن يستعدَّ للرَّد على شبهاتهم، ثم بين له طريق دعوتهم فقال – مرتبا له –: (**فَليَكُن أَولَ مَا تَدعُوهُم إِلَى أَن يُوَحدُوا الله**) فأرشده إلى البدء بالتَّوحيد، وهو الأمر الذي بدأ به كلُّ الرُّسل دعوتهم بقولهم لأقوامهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [سورة الأعراف:٥٩]، ثم قال له: (**فَإِذَا عَرَفُوا ذَلكَ، فَأَخبرهُم أَن اللهَ قَد فَرَضَ عَلَيهم خَمسَ صَلَوَات في يَومهم وَلَيلَتهم**)، ثم قال له: (**فَإِذَا صَلوا، فَأَخبرهُم أَن اللهَ افتَرَضَ عَلَيهم زَكَاةً في أَموَالهم، تُؤخَذُ من غَنيهم فَتُرَد عَلَى فَقيرهم**).

الشَّرط الرابع: أن تكون الدّعوة خالصة لله، لقوله: ﴿قُلۡ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدۡعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِيۖ وَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [سورة يوسف:١٠٨]، وقوله: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٢)، ومسلم (١٩) واللفظ للبخاري.

﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾ [سورة النحل:١٢٥]، فلا تجوز الدَّعوة إلى شخص معين أو شيخ معين أو حزب معين أو قبيلة أو نحو ذلك، فمن فعل ذلك فإنه لم يدع إلى الله وكان عمله هباء منثوراً.

مجالات الدَّعوة إلى الله:

١- قد تكون الدعوة إلى الله بالكلمة الطَّيبة.

٢- وقد تكون بالخطابة.

٣- وقد تكون بإلقاء المحاضرات.

٤- بكتب المقالات في الصحف أو المجلات.

٥- بإرسال الرسائل عبر وسائل التواصل الحديثة.

٦- بتأليف الكتب النَّافعة.

٧- بالقدوة وتطبيق الشَّريعة، فكم من شخص دخل في الإسلام بسماعه الأذان -مثلا-، أو لرؤيته المسلمين يتوضؤون، أو لرؤيته المسلمين وهم يصلون، أو لرؤيته لقاضٍ حكم بالعدل، ونحو ذلك.

أساليب الدعوة إلى الله:

-الإلقاء.

-المناقشة مع السؤال والجواب.

- المناظرة مع الآخرين.

فضل الدّعوة إلى الله:

يكفي في فضل الدَّعوة إلى الله قول النبي (ﷺ): **(فَوَاللهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ)**[١] أي: الإبل الحمراء الغالية الثمن.

وكذلك قول النبي (ﷺ): **(مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ**

---

(١) أخرجه البخاري (٣٧٠١)، ومسلم (٢٤٠٦).

مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا).[1] وقوله (ﷺ): «**مَنْ دَلَّ عَلَى خَيْرٍ فَلَهُ مِثْلُ أَجْرِ فَاعِلِهِ**»[2].

قال المؤلف (رحمه الله): **(الرابعة: الصَّبر على الأذى فيه)**، أي: الأذى في تعلم العلم وفي العمل به، وفي الدَّعوة إليه، فمن يتعلم العلم ويعمل به ويدعو إليه فلابدَّ له من الصبر؛ لأنَّه لن يجد الطَّريق مفروشاً بالورود والرَّياحين، وإنَّما سيجد الصِّعاب من أعداء الدَّعوة سواءً من الكفار أو من المنافقين أو الجهال أو السُّفهاء، ومن أعجب ما يستدل به على ذلك قوله تعالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا**﴾ [سورة الإنسان:٢٣]، فبدلاً من أن يأمره الله (جل وعلا) بشكر هذه النِّعمة قال له: ﴿**فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا**﴾ [سورة الإنسان:٢٤]، فمع نزول القرآن العظيم أمره بالصبر، وذلك لما ذكرناه من وجود أعداء الدَّعوة في كل زمان ومكان، كما قال تعالى: ﴿**وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا**﴾ [سورة الفرقان:٣١].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٧٤).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٩٣).

فهذا إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عاداه النّمرود، وموسى (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عاداه أعتى الطُّغاة فرعون، ونبينا محمد –صلى الله عليه وسلم- عاداه زعماء قريش كأبي لهب، وأبي جهل وغيرهما.

ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) قال: قال أبو جهل: هل يعفر محمد وجهه بين أظهركم؟ قال فقيل: نعم، فقال: واللات والعزى لئن رأيته يفعل ذلك لأطأنَّ على رقبته، أو لأعفرنَّ وجهه في التراب، قال: فأتى رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) وهو يصلي، زعم ليطأ على رقبته، قال: فما فجئهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه ويتقي بيديه، قال: فقيل له: ما لك؟ فقال: إن بيني وبينه لخندقاً من نارٍ وهولاً وأجنحةً، فقال رسول الله (صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ): **«لَوْ دَنَا مِنِّي لَاخْتَطَفَتْهُ الْمَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا»** قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ (عَزَّ وَجَلَّ): ﴿**كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ ٧ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجۡعَىٰٓ ٨ أَرَءَيۡتَ ٱلَّذِي يَنۡهَىٰ ٩ عَبۡدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ١٠ أَرَءَيۡتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلۡهُدَىٰٓ ١١ أَوۡ أَمَرَ بِٱلتَّقۡوَىٰٓ ١٢ أَرَءَيۡتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ**﴾ [سورة العلق:٦-١٣]، - يَعْنِي أَبَا جَهْلٍ - ﴿**أَلَمۡ يَعۡلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ١٤ كَلَّا لَئِن لَّمۡ يَنتَهِ لَنَسۡفَعَۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ١٥ نَاصِيَةٖ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٖ ١٦ فَلۡيَدۡعُ نَادِيَهُۥ ١٧ سَنَدۡعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ١٨ كَلَّا لَا تُطِعۡهُ**﴾ [سورة العلق:١٤-١٩]، زَادَ عُبَيْدُ اللهِ فِي حَدِيثِهِ قَالَ: وَأَمَرَهُ بِمَا أَمَرَهُ بِهِ. وَزَادَ ابْنُ عَبْدِ

الْأَعْلَى ﴿فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ﴾، يَعْنِي قَوْمَهُ"[١]، فمن حكمة الله (ﷻ) أن جعل النَّصر مع الصَّبر، واليسر مع العسر، والفرج مع الكرب، وقد قيل: إنما الشَّجاعة صبر ساعة[٢].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [سورة الأنعام:٣٤].

وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا۟ ۖ وَكَانُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [سورة السجدة:٢٤]، وقد يُنْصَر الإنسان بعد موته وذلك بانتشار دعوته، وأن يجعل الله في قلوب الخلق محبةً له، وثناء عليه وقبولاً لما دعا إليه.

والصبر لغة: حَبس النفس عن الجزع، وقد صَبَرَ فلانٌ عند المصيبة يَصْبِرُ صَبْراً. وصَبَرْتُهُ أنا: حبسْته.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٩٧).

(٢) ذكره ابن القيم في كتابه عدة الصابرين (صـ١٨).

قال الله تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾ [سورة الكهف:٢٨](١).

وشرعا: حبس النفس عن الجزع، واللسان عن التَّشكي، والجوارح عمَّا يغضب الله.

قال الإمام أحمد –رحمه الله–: "ورد الصَّبر في القرآن في تسعين موضعاً"(٢).

أقسام الصَّبر:

الأول: **صبر على طاعة الله**؛ كالصَّلاة والصيام، وذلك بأن يؤدي الإنسان ما أمره الله تعالى به؛ وإن كان فيه مشقّة عليه، وإن كان فيه منازعة نفسه التي بين جنبيه، فيقوم للصلوات الخمس، ويقوم لصلاة الفجر ويترك النوم، ويقوم لصلاة الليل ويترك النوم، ويصوم ويترك الطعام والشراب وسائر المفطرات؛ طاعة لله (سبحانه وتعالى)، ويجاهد في سبيل الله ويصبر على الجراح وعلى الآلام وعلى ملاقاة الأعداء، ويصبر على طاعة الله (سبحانه وتعالى)، لأن الطاعة لابد فيها من تعب.

---

(١) انظر: الصحاح تاج اللغة ٢/٧٠٦، مادة: [صبر].

(٢) انظر: عدة الصابرين لابن القيم صـ ١١٣.

الثاني: **صبر عن معصية الله**؛ فيتجنّب ما نهى الله تعالى عنه، والنَّفس تنازعه، وتحسِّن له القبيح، لكن العبد يمسك نفسه ويحبسها عن محارم الله.

الثالث: **صبر على أقدار الله المؤلمة التي يجريها الله على عباده امتحاناً وابتلاءً.**

هذه هي الأربع مسائل التي ذكرها المؤلف في مقدمة رسالته، وسيتكلم بالتَّفصيل عن المسألة الأولى وهي مسائل القبر الثَّلاثة، وهي: من ربك؟ وما دينك؟ ومن نبيُّك؟ وهي التي أرادها المؤلف بقوله: "معرفة الله، ومعرفة نبيه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة".

وقد ذكر المؤلف (رحمه الله) دليلاً إجماليًا على هذه المسائل الأربع وهو قوله:

والدَّلِيلُ قولهُ تعالى: بِسْمِ اللهِ الرحمنِ الرحيم ﴿وَٱلْعَصْرِ ① إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ② إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾ [سورة العصر: ١-٣].

قوله: (والعصر): الواو: واو القسم، وفائدته: التَّنبيه على أهمية المقسم به والمقسم عليه، وقد يراد بالعصر الصَّلاة، وهذا قول مقاتل، أو وقت العشيِّ، وهذا قول الحسن، أو الدهر والزَّمن، وهذا قول ابن عباس.

وقد أقسم الله (ﷻ) بالعصر لعدة أمور:

الأول: لأن الدهر والزمن هو محل أعمال العباد، وهو رأس مال الإنسان في هذه الحياة، فأقسم به لأهميته.

الثاني: لأن فيه تقع العظات والعبر، فهذه أمم تباد وتخلفها أخرى، وأشخاص يصابون بالمرض ويمتحنون بالأوبئة والطواعين للعظة والعبرة ونحو ذلك مما هو مشاهد.

الثالث: لأن مرور الأيام والليالي فيه عبرة وتذكيرٌ للإنسان بانقضاء أجله، كما قيل: اعبروها ولا تعمروها.

مسألة: قد يقول قائل: في قول الله (ﷻ) ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ فقد أقسم (ﷻ) بالمخلوق، فهل يجوز للعبد أن يقسم بالمخلوق؟

الجواب: الله (ﷻ) يقسم بما شاء من مخلوقاته، كما أقسم تعالى بالليل في قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [سورة الليل:١]، وأقسم بالفجر والضّحى والشّمس وغير ذلك من الآيات، فالله يقسم بما شاء من خلقه لعظمة المقسم به والمقسم عليه، أما العبد فلا يجوز له أن يقسم إلا بالله.

والدليل على ذلك قول النبي (ﷺ): «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ أَشْرَكَ**»[١]، وقوله (ﷺ): «**أَلاَ إِنَّ اللهَ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ، وَإِلَّا فَلْيَصْمُتْ**»[٢].

قوله: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾: هذا جواب القسم، (إنَّ): تأكيد، (الإنسان): اللام للاستغراق، فهذه المؤكدات (القسم، إن، اللام) معناها أن المؤكد عليه شيء عظيم[٣].

قوله: (لَفِي): في للظرفية، فكأنَّه منغمسٌ في الخسارة، كقولنا: فلان في البئر، أي: منغمسٌ فيه، وهذا حكم عام.

(١) أخرجه أبو داود (٣٢٥١)، والترمذي (١٥٣٥) وقال الترمذي: هذا حديث حسن، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٦١٠٨)، ومسلم (١٦٤٦).

(٣) قال الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله: " هم ينكرون أنهم سيكونون في خسارة، و ينكرون –طائفة أخرى منهم– أن يكون الإنسان سيرجع إلى خسارة، وأنه لن ينجو إلا أهل الإيمان، فأكد الله (ﷻ) ذلك لأجل إنكارهم بالمقال والفعل وبالحال، بقوله ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ [سورة العصر:٢]، يعني إن جنس الإنسان في خسر، يعني في خسارة عظيمة، إلا ما استثني، وهذا نوع آخر من شد الذهن لقبول الكلام" انظر: شرح الثلاثة الأصول صـ١١.

قال ابن القيم (رَحِمَهُ اللَّهُ): "أقسم سبحانه أن كل أحد خاسر إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان، وقوته العملية بالعمل الصَّالح، وكَمَّل غيره بالتَّوصية بالحقِّ والصَّبر عليه، فالحقُّ هو الإيمان والعمل ولا يتمان إلا بالصَّبر عليهما والتَّواصي بهما؛ كان حقيقا بالإنسان أن ينفق ساعات عمره بل أنفاسه فيما ينال به المطالب العالية، ويخلص به من الخسران المبين، وليس ذلك إلا بالإقبال على القرآن وتفهمه وتدبره واستخراج كنوزه وإثارة دفائنه، وصرف العناية إليه، والعكوف بالهمة عليه، فإنَّه الكفيل بمصالح العباد في المعاش والمعاد، والموصل لهم إلى سبيل الرَّشاد "[١].

ما سبب هذه الخسارة الواردة في قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾؟

الجواب: لتضييعه رأس ماله، كما أن تجَّار الدُّنيا قد يخسرون رؤوس أموالهم في التجارة فكذلك الذي يضيع عمره ونفسه في غير الإيمان بالله والعمل والصالح فهو شبيه بالتَّجار الذين يضيعون رؤوس أموالهم.

قال الشيخ السعدي (رَحِمَهُ اللَّهُ): "والخسار مراتب متعددة متفاوتة: قد يكون خسارًا مطلقًا، كحال من خسر الدنيا والآخرة، وفاته النعيم، واستحق

(١) انظر: مدارج السالكين ١/ ٣٠.

الجحيم، وقد يكون خاسرًا من بعض الوجوه دون بعض، ولهذا عمم الله الخسار لكل إنسان، إلا من اتصف بأربع صفات: الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتم إلا به، والعمل الصالح، وهذا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله وحق عباده، الواجبة والمستحبة، والتواصي بالحق، الذي هو الإيمان والعمل الصالح، أي: يوصي بعضهم بعضًا بذلك، ويحثه عليه، ويرغبه فيه، والتواصي بالصبر على طاعة الله، وعن معصية الله، وعلى أقدار الله المؤلمة. فبالأمرين الأولين، يُكَمِّل الإنسان نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة، يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح العظيم"[١].

وقد استثني من الخسارة بقوله: ﴿إِلَّا﴾: يعني الذين جمعوا هذه الخصال الأربع وهي: ـ

١- ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾: أي آمنوا بالله، ووجوده، وربوبيته، وألوهيته، وأسمائه وصفاته، وهذا دليل لقول المؤلف في المسألة الأولى: (العلم)؛ لأنَّ الإيمان لا يكون إلاَّ عن اعتقاد، والاعتقاد لا يكون إلاَّ بالعلم.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان صـ٩٣٤.

٢- ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: وهذا دليل على المسألة الثانية: (العمل به)، وحتى يكون العمل صحيحًا لا بدَّ له من شرطين: الإخلاص لله، والمتابعة للنبي (ﷺ).

٣- ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ﴾: وهذا دليل على المسألة الثالثة: (الدَّعوة إليه)، فيوصي نفسه، ويوصي أهله، ويوصي جيرانه، ويوصي إخوانه بلزوم الحقِّ والثَّبات عليه، وهذا يدل على أهمية الدَّعوة إذ لا نجاة للعبد إلاَّ بالدَّعوة؛ وأعظم ما دُعيَ إليه هو التَّوحيد وتصحيح العبادة؛ لأنَّ العبادة لا تكون عبادة إلاَّ بالتَّوحيد.

والتواصي بالحق يكون في أربع مسائل وهي:

الأولى: التَّوحيد والعقيدة.

الثانية: العبادة.

الثالثة: المعاملات.

الرابعة: الأخلاق.

٤- ﴿وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾: وهذا دليل على المسألة الرابعة: (الصبر على الأذى فيه)، أي، الصبر على أمور وهي:

- الصَّبر على فعل أوامر الله.

- الصَّبر عن معصية الله، واجتناب ما نهى عنه.

- الصَّبر على أقدار الله المؤلمة.

ومن أهمية التَّواصي: أنَّ فيه النَّفع المتعدّي، وكذلك فيه تثبيت لقلب الدَّاعي وسط فتن الشَّهوات والشُّبهات.

قوله: قَالَ الشَّافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إِلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ"

ثمَّ استشهد المؤلف (رَحِمَهُ اللهُ) بكلمة عظيمة في فضل هذه السورة العظيمة للإمام الشافعي (رَحِمَهُ اللهُ) وهو الإمام الكبير محمد بن إدريس أحد الأئمة الأربعة، ولد في السَّنة التي توفي فيها أبو حنيفة (رَحِمَهُ اللهُ) (١٥٠ هـ)، ولذا قيل: مات إمام وولد إمام، وتوفي في سنة (٢٠٤ هـ) وهي السنة التي ولد فيها الإمام مسلم بن الحجاج، فمات إمام وولد إمام.

وقد توفي الإمام الشَّافعي(رَحِمَهُ اللهُ) وله من العمر (٥٤ عاماً) وشيخه مالك، وتلميذه أحمد، فهو إمام، وشيخه إمام، وتلميذه إمام - (رَحِمَهُمُ اللهُ) جميعاً- وذلك

فضل الله يؤتيه من يشاء، وهذه تسمى سلسلة الذهب في الرواية: أحمد عن الشافعي عن مالك[١].

قوله: (لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ) [٢]، هكذا ذكرها المؤلف هنا، وقد ذكرها ابن القيم في (التّبيان) بلفظ: "لو فكر الناس في هذه السورة لكفتهم"[٣]، **وسبب ذلك**: أنها بينت طريقين لا ثالث لهما وهما:

الأول: طريق الهداية.

والثاني: طريق الغواية.

وهذه السورة: قد جمعت أصولَ دعوةِ الرُّسل وهي:

١-الإيمان بالله تعالى.

(١) انظر: طبقات الفقهاء للشيرازي ١/ ٦٠وما بعدها، والانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء ١/ ٦٦، وما بعدها، سير أعلام النبلاء ١٠/ ٥.

(٢) هذه العبارة نقلت عن الإمام الشافعي (رحمه الله) بعدة صيغ لكن مؤداها واحد فمن هذه الروايات: "لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم" وفي رواية عنه "لو لم ينزل إلى الناس إلا هي لكفتهم" نقلها عنه غير واحد من أهل العلم. انظر: "تفسير الإمام الشافعي" (٣/ ١٤٦١)، "مجموع الفتاوى" (٢٨/ ١٥٢)، "تفسير ابن كثير" (١/ ٢٠٣)، "التحرير والتنوير" (٣٠/ ٥٢٨).

(٣) انظر: التبيان في أقسام القران صـ٨.

٢- والعمل الصالح.

٣- والدَّعوة إلى الله.

٤-والصَّبر.

ثم استشهد المؤلف (رحمه الله) بقول الإمام البخاري (رحمه الله): **بَابٌ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [سورة محمد:١٩]، فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ.**

و**(البخاري)**: هو الإمام الكبير أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزبة، ولد سنه (١٩٤ هـ) وتوفي في سنة (٢٥٦ هـ).

وهو أمير المؤمنين في الحديث، قال عن نفسه: ما كتبت حديثًا في الصَّحيح إلاَّ اغتسلت وصليت ركعتين، وقد كتب (رحمه الله) كتابه الصَّحيح مختصرًا من مائة ألف حديث، وهو أصحّ الكتب بعد كتاب الله (جل وعلا).

قال الحافظ العراقي (رحمه الله) في التَّبصرة والتَّذكرة:

أَوَّلُ مَنْ صَنَّفَ فِي الصَّحِيْحِ ... مُحَمَّدٌ وَخُصَّ بِالتَّرْجِيْحِ

وَمُسْلِمٌ بَعْدُ، وَبَعْضُ الغَرْبِ ... أَبِي عَلِيٍّ فَضَّلُوا ذَا لَوْ نَفَعْ

قوله: (فبدأ بالعلم)؛ لأنَّ العلم هو الذي يصح به القول والعمل والاعتقاد؛ ولأنَّ العلماء هم ورثة الأنبياء وهم قد ورَّثوا العلم فقد جاء في الحديث «**مَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيقًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا رِضًا لِطَالِبِ الْعِلْمِ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ، وَمَنْ فِي الْأَرْضِ، وَالْحِيتَانُ فِي جَوْفِ الْمَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ الْعَالِمِ عَلَى الْعَابِدِ، كَفَضْلِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا، وَلَا دِرْهَمًا وَإِنَّمَا وَرَّثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ**»[1].

قال الخطابي (رحمه الله): **قوله "وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا" فيه ثلاثة أوجه:**

أحدها: أن يكون معنى وضع الجناح من الملائكة بسط أجنحتها وفرشها لطالب العلم لتكون وطاءً له ومعونة إذا مشى في طلب العلم.

والوجه الثاني: أن يكون ذلك بمعنى التواضع من الملائكة تعظيما لحقه وتوقيرا لعلمه فتضم أجنحتها له وتخفضها عن الطيران كقوله تعالى: ﴿وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ﴾ [سورة الإسراء:٢٤].

---

(١) أخرجه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وابن ماجة (٢٢٣) وصححه الألباني.

والوجه الثالث: أن يكون وضع الجناح يراد به النزول عند مجالس العلم والذكر وترك الطيران كما روي أنه (ﷺ) قال: "ما من قوم يذكرون الله (عز وجل) إلاّ حفت بهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ونزلت عليهم السكينة وذكرهم الله فيمن عنده"(١)(٢).

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٠).

(٢) انظر: معالم السنن ١/٦٠-٦١.

[ما يجب على كل مسلم أن يتعلمه]

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله):

(اعْلَمْ) -رَحِمَكَ اللهُ- أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ تَعَلُّمُ هَذِهِ الثَّلاثِ مَسَائِلِ والْعَمَلُ بِهِنَّ.

(الأُولَى): أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلا بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ۝١٥ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [سورة المزمل:١٥-١٦].

(الثَّانِيَةُ): أَنَّ الله لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ معه في عبادته أحد لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن:١٨].

(الثَّالِثَةُ): أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللهَ لا يجوز له موالاة من حاد الله وَرَسُولَهُ وَلَوْكَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة المجادلة:٢٢].

الشَّـــــــــرح

قوله: (اعلم -رحمك الله-): هذا يدل على عناية المؤلف (رحمه الله) بالمدعوين ورفقه بهم، وهو أيضاً أدعى إلى قبول ما سيلقى، ويدل له قوله (ﷺ) لمعاذ: «يَا مُعَاذُ، وَاللهَّ إِنِّي لَأُحِبُّكَ، وَاللهَّ إِنِّي لَأُحِبُّكَ»، فَقَالَ: أوصِيكَ يَا مُعَاذُ لَا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ، وَأَوْصَى بِذَلِكَ مُعَاذٌ الصُّنَابِحِيَّ، وَأَوْصَى بِهِ الصُّنَابِحِيُّ أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ"(١)، فينبغي التَّأسّي بهذا الأسلوب الجميل في النَّصيحة في الكتابة والخطابة وغيرهما.

---

(١) أخرجه أبو داود (١٥٢٢)، وصححه الألباني.

قوله: (أنَّه يجب): (أنَّ) للتأكيد. **والواجب لغة**: السَّاقط، قال تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتۡ جُنُوبُهَا فَكُلُواْ مِنۡهَا وَأَطۡعِمُواْ ٱلۡقَانِعَ وَٱلۡمُعۡتَرَّ﴾ [سورة الحج:٣٦].

وفي الحديث: «**كَانَ النَّبِيُّ (ﷺ) يُصَلِّي الظُّهْرَ بِالهَاجِرَةِ، وَالعَصْرَ وَالشَّمْسُ نَقِيَّةٌ، وَالمَغْرِبَ إِذَا وَجَبَتْ**»[١] يعني: إذا سقطت.

وفي الاصطلاح: هو ما أمر به الشَّارع على وجه الإلزام والحتم.

وحكمه: أنَّه يثاب فاعله امتثالًا ويستحق العقاب تاركه.

وهو على قسمين واجب عيني، وواجب كفائي:

الأول: **الواجب العيني**، أي: يجب على كل شخص بعينه، كالصلاة والصيام.

الثاني: **واجب كفائي**، إذا قام به البعض سقط الإثم عن الباقين كصلاة الجنازة.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٦٠)، ومسلم (٦٤٦).

قوله: (عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ): (كل) تفيد العموم فهي من صيغ العموم، دليله: ما جاء في الحديث: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»[(١)] أي ومسلمة، والعلم الواجب أوله علم العقيدة والتوحيد وما لابدَّ منه من العبادات والمعاملات.

قوله: (والْعَمَلُ بِهِنَّ): تفيد أنَّ الاعتقاد وحده لا يكفي؛ بل لا بدّ من العمل.

قوله: (الأُولَى): أَنَّ اللهَ خَلَقنَا وَرَزَقَنَا وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلا بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ وَمَنْ عَصَاهُ دَخلَ النَّارَ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾ فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ ٱلرَّسُولَ فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [سورة المزمل:١٥-١٦].

قوله: (الأولى): يعني: المسألة الأولى وهي: (أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا وَرَزَقَنَا):

يشير إلى توحيد الرُّبوبيّة، وهو: توحيد الله بأفعاله، ويطلق عليه أيضاً: توحيد المعرفة والإثبات، وأفعاله تعالى كثيرة لا تحصى، (كالخلق، والرَّزق، والتَّدبير، والإحياء، والإماتة) ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٢٢٤) وصححه الألباني.

وهذا النوع لم يخالف فيه أحد من الأمم الماضية إلاَّ على سبيل المكابرة؛ كحال فرعون، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [سورة النمل:١٤]، وقد قال له نبي الله موسى (عَلَيْهِ السَّلَامُ): ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [سورة الإسراء:١٠٢].

الأدلة على إثبات الربوبية لله تعالى لا تحصى ولكن نذكر هنا شيئاً منها:

أولاً: الدَّليل النقلي:

١) قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَٰكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَٰكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ لَمْ يَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [سورة الأعراف:١١].

٢) وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ [سورة الرعد:١٦].

٣) وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ﴾ [سورة الزمر:٦٢].

٤) وقوله تعالى ﴿ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا ٱلْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا ٱلْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَٰهُ خَلْقًا ءَاخَرَ ۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [سورة المؤمنون:١٤].

ثانياً: الدليل العقلي:

ما جاء في قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ﴿٣٧﴾ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الطور:٣٥-٣٨].

وعن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه (رضي الله عنه)، قال: «سَمِعْتُ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) يَقْرَأُ فِي المَغْرِبِ بِالطُّورِ، فَلَمَّا بَلَغَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ﴾ قَالَ: كَادَ قَلْبِي أَنْ يَطِيرَ» [(١)].

وفي مناظرة المشركين لا بدَّ لهم من أحد احتمالات ثلاثة وهي:

(١) أخرجه البخاري (٤٨٥٤).

الأول: أَنَّهم خُلِقوا بدون شيء، وهذا مقطوع بعدم صحته.

الثاني: أَنَّهم خَلقوا أنفسهم، وهذا لا يقوله أحد منهم؛ لأنهم لا يستطيعون إنبات شعرة مكان أخرى، فكيف بهذا الخلق العظيم، فهذان الاحتمالان مرفوضان.

الثالث: أنه لابد لهذا العالم من خالق قدير حي قيوم سميع بصير، وهذا هو المطلوب إثباته.

ثالثاً: دليل الفطرة:

سئل بعض الأعراب ما الدليل على وجود الرب (جل وعلا) فقال: يا سبحان الله إن البعر ليدل على البعير، وإن أثر الأقدام ليدل على المسير؛ فسماء ذات أبراج وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج؛ ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير؟!

ومن خطب قُسْ بن ساعدة الإِيادي وكان على ملة إبراهيم (عليه السلام) قال: أيها الناس اجتمعوا فاسمعوا، وإذا سمعتم فعوا وإذا وعيتم فانتفعوا، وقولوا وإذا قلتم فاصدقوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، مطر ونبات، وأحياء وأموات، ليل داج، وسماء ذات أبراج، ونجومٌ تزهر، وبحار تزخر، وضوء وظلام وليل وأيام...إلخ.

ومرت امرأة على أحد المتكلمين وحوله مجموعة من الناس فقالت: من هذا؟ فقالوا: هذا الرازي عنده ألف دليل على وجود الخالق، فقالت المرأة بفطرتها: ومتى غاب حتى يحتاج إلى دليل على وجوده؟

وعن أبي حنيفة (رحمه الله) تعالى أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود الباري تعالى؛ فقال لهم دعوني فإني مفكر في أمر قد أُخبرتُ عنه، ذكروا لي أنَّ سفينةً في البحر مُوقرة، فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها، وهي مع ذلك تذهب وتجيء وتسير بنفسها، وتخترق الأمواج العظام حتى تخلص منها، وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد، فقالوا: هذا شيء لا يقوله عاقل، فقال: ويحكم هذه الموجودات بما فيها من العالم العلوي والسفلي وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع؟ فبهت القوم.

وسئل الإمام مالك (رحمه الله): بأي شيء تستدلّ على وجود الخالق (جل وعلا)؟ فقال: بتنوع الأصوات واختلاف اللّغات.

وعن الشافعي (رحمه الله) أنه سئل عن وجود الخالق (عز وجل) فقال: هذا ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الإبْريسَم -أي الحرير- وتأكله النحل فيخرج منه العسل، وتأكله الشاء والبقر والأنعام فتلقيه بعرا وروثا وتأكله الظباء فيخرج منه المسك وهو شيء واحد.

وعن الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله) أنه سئل عن ذلك فقال: ههنا حصن حصين أملس ليس له باب ولا منفذ ظاهره كالفضة البيضاء وباطنه كالذهب الإبريز فبينا هو كذلك إذ انصدع جداره فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح اهـ. يعني بذلك البيضة إذا خرج منها الفروج الصغير (الكتكوت).

وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد:

تأمل في رياض الأرض وانظر ... إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات ... بأحداق هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات ... بأن الله ليس له شريك

وقال أبو العتاهية:

فيا عجبا كيف يعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة ... وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

وهذا فيه رد على جميع الملاحدة الذين يقولون إن الكون خلق صدفة فيقال لهم: اجعلوا الصدفة مرة واحده تخلق لنا بيتا أو سيارة أو دجاجة أو عصفورا أو ذبابة أو نملة أو ما هو أقل من ذلك، فتوحيد الرُّبوبية دلَّ عليه الشرع، والعقل، والفطرة، والحس.

رابعاً: دليل الحس وهو ينقسم إلى قسمين:

القسم الأول: **إجابة الدعوات**، أي: إجابة دعاء الداعين، وتفريج كرب المكروبين من الأولين والآخرين حتى من الكافرين؛ ومما يدل على ذلك ما يلي:

أولاً: **من القرآن**:

قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ [سورة العنكبوت:٦٥].

ثانياً: **من السُّنة**:

ما أخرجه النسائي في السنن من حديث سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) قال: **"لَمَّا كَانَ يَوْمُ فَتْحِ مَكَّةَ أَمَّنَ رَسُولُ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) النَّاسَ، إِلَّا أَرْبَعَةَ نَفَرٍ وَامْرَأَتَيْنِ وَقَالَ: «اقْتُلُوهُمْ، وَإِنْ وَجَدْتُمُوهُمْ مُتَعَلِّقِينَ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ، عِكْرِمَةُ بْنُ أَبِي جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ خَطَلٍ وَمَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ سَعْدِ بْنِ أَبِي السَّرْحِ»، فَأَمَّا عَبْدُ اللهِ بْنُ خَطَلٍ فَأُدْرِكَ وَهُوَ مُتَعَلِّقٌ بِأَسْتَارِ الْكَعْبَةِ فَاسْتَبَقَ إِلَيْهِ سَعِيدُ بْنُ حُرَيْثٍ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ فَسَبَقَ سَعِيدٌ عَمَّارًا، وَكَانَ أَشَبَّ الرَّجُلَيْنِ فَقَتَلَهُ، وَأَمَّا مَقِيسُ بْنُ صُبَابَةَ**

فَأَدْرَكَهُ النَّاسُ فِي السُّوقِ فَقَتَلُوهُ، وَأَمَّا عِكْرِمَةُ فَرَكِبَ الْبَحْرَ، فَأَصَابَتْهُمْ عَاصِفٌ، فَقَالَ أَصْحَابُ السَّفِينَةِ: أَخْلِصُوا، فَإِنَّ آلِهَتَكُمْ لَا تُغْنِي عَنْكُمْ شَيْئًا هَاهُنَا. فَقَالَ عِكْرِمَةُ: وَاللهِ لَئِنْ لَمْ يُنَجِّنِي مِنَ الْبَحْرِ إِلَّا الْإِخْلَاصُ، لَا يُنَجِّينِي فِي الْبَرِّ غَيْرُهُ، اللَّهُمَّ إِنَّ لَكَ عَلَيَّ عَهْدًا، إِنْ أَنْتَ عَافَيْتَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ أَنْ آتِيَ مُحَمَّدًا (ﷺ) حَتَّى أَضَعَ يَدِي فِي يَدِهِ، فَلَأَجِدَنَّهُ عَفُوًّا كَرِيمًا، فَجَاءَ فَأَسْلَمَ...الحديث»[1].

القسم الثاني: المعجزات التي جاء بها الأنبياء والمرسلون، كعصا موسى، وإبراء عيسى الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، وطوفان نوح، وناقة صالح، وخروج إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلَامُ) من النار الموقدة وغير ذلك، وكل نبي لا ينسبها لنفسه بل ينسبها إلى الله الذي أرسله، فهذا يدل على وجود الخالق القدير العظيم الذي أرسل هؤلاء الرسل وأيَّدهم بتلك البراهين والمعجزات على مدار القرون.

خامسا: دليل الشرع:

مَن تأمَّل ما في الشَّرع أو الشَّرائع التي شرعها الله (جَلَّ وَعَلَا) من الحكمة والإحكام والإتقان في الأحكام بأنواعها: سواء في العبادات أو المعاملات

(١) أخرجه النسائي (٤٠٦٧) وصححه الألباني.

ومراعاتها لمصالح العباد وتكميلها، ودرء المفاسد وتقليلها يعلم أنَّها من لدن حكيم خبير، وأبصر الناس بذلك هم علماء الشريعة. فمثلاً قطع يد السَّارق كم فيه من المصالح وحفظ أموال النَّاس بل وأرواحهم، وكما قيل: لما كانت أمينة كانت ثمينة، ولما خانت هانت، ففي اليد الواحدة إذا قطعت نصف الدية، أي: خمسون من الإبل ومع ذلك فإنها تقطع إذا سرقت ربع دينار، فهذا معنى قولهم: ولما خانت هانت وأصبحت لا قيمة لها.

قوله: (ورزقنا):

الدليل على أن الله رزقنا: يدل على ذلك الخبر والعقل:

أما الخبر: **فقوله تعالى**: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [سورة الذاريات:٥٨]، **وقوله تعالى**: ﴿۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة سبأ:٢٤].

وأما العقل:

فجميع المخلوقات التي خلقها الله لا تستطيع العيش بدون طعام وشراب، والطعام والشراب قد خلقهما الله. قال تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾ ءَأَنتُمْ

تَزۡرَعُونَهُۥٓ أَمۡ نَحۡنُ ٱلزَّٰرِعُونَ ٦٤ لَوۡ نَشَآءُ لَجَعَلۡنَٰهُ حُطَٰمٗا فَظَلۡتُمۡ تَفَكَّهُونَ ٦٥ إِنَّا لَمُغۡرَمُونَ ٦٦ بَلۡ نَحۡنُ مَحۡرُومُونَ ٦٧ أَفَرَءَيۡتُمُ ٱلۡمَآءَ ٱلَّذِي تَشۡرَبُونَ ٦٨ ءَأَنتُمۡ أَنزَلۡتُمُوهُ مِنَ ٱلۡمُزۡنِ أَمۡ نَحۡنُ ٱلۡمُنزِلُونَ ٦٩ لَوۡ نَشَآءُ جَعَلۡنَٰهُ أُجَاجٗا فَلَوۡلَا تَشۡكُرُونَ﴾ [سورة الواقعة:٦٣-٧٠].

وكذلك الكفار لم ينكروا هذه الصِّفة لله تعالى ولم يجحدوها، قال تعالى:

﴿قُلۡ مَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ أَمَّن يَمۡلِكُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَمَن يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلۡأَمۡرَۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُۚ فَقُلۡ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [سورة يونس:٣١].

والرزق قسمان:

١- رزق عام، للمؤمن والكافر، من الحلال والحرام.

٢- رزق خاص، لأهل الطاعة وهو بالعلم النافع والمال الحلال، وهذا هو الرزق الحقيقي.

قوله: (ولم يتركنا هملا): الهمل معناه: بلا فائدة. والدليل على أن الله (ﷻ) لم يتركنا هملا:

أولاً: من القرآن:

قوله تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ [سورة القيامة:٣٦]، وقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [سورة المؤمنون:١١٥]، وقوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا﴾ [سورة المزمل:١٥].

ثانياً: من العقل:

قال الشيخ ابن عثيمين (رحمه الله): «فلأنَّ وجود هذه البشرية لتحيا ثم تتمتع كما تتمتع الأنعام ثم تموت من غير بعث ولا حساب أمر لا يليق بحكمة الله (ﷻ) بل هو عبث محض، ولا يمكن أن يخلق الله هذه الخليقة ويرسل إليها الرسل ويبيح لنا دماء المعارضين المخالفين للرسل (عليهم الصلاة والسلام) ثم تكون النتيجة لا شيء، هذا مستحيل على حكمة الله (ﷻ)» [١].

(١) شرح ثلاثة الأصول: صـ٢٥.

فالإنسان خلق لحكمة عظيمة وهي العبادة، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات:٥٦]، فإنزال الكتب، وإرسال الرسل، وخلق المخلوقات المسَّخرة للإنسان، كل هذا يدل على أنَّ الإنسان لم يخلق عبثا، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [سورة الملك:٢]؛ ولأنَّ الله خلق الخلق لعبادته فكان لابدّ لهم من رسول يبين لهم كيفية هذه العبادة؛ لذا قال المؤلف (رحمه الله): **(بل أرسل إلينا رسولاً)**: أي: من جنسنا نعرف صفته ونعته.

قوله: (بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً، فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ): هذا فيه تفصيل؛ **لأنَّ دخول أهل الطَّاعة الجنَّة له حالتان:**

الحالة الأولى: قد يكون من أول وهلة بلا حساب ولا عذاب، كحال السبعين ألفا الذين أخبر النبي (ﷺ) عنهم أنَّهم: **«الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ»**(١).

الحالة الثانية: فهو دخول ولكن بعد أمد، أي بعد سَبْق عذاب عليهم، ثم يكون مآلهم إلى الجنة، وهؤلاء الصنف هم الموحدون من أصحاب المعاصي.

فأهل التوحيد دخولهم للجنة إما أن يكون من أول وهلة، وإما أن يكون بعد سَبْق عذاب، لكن يكون مآلهم إلى الجنة.

---

(١) أخرجه البخاري (٥٧٠٥)، ومسلم (٢١٨).

وقوله: (وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ): هذا أيضاً فيه تفصيل تبعاً لأصنافهم.

أصناف العصاة:

الصنف الأول: أهل كفر وإلحاد، خرجوا عن ملة الإسلام، فهؤلاء في النار خالدين فيها.

والصنف الثاني: أهل توحيد، أو الذين في قلوبهم مثقال حبة خردل من إيمان، فهؤلاء مآلهم إلى الجنَّة، وإن بقوا في النَّار أمداً.

فيتلخص مما سبق أن أهل الطاعة والتوحيد مآلهم إلى الجنة، وسيدخلون الجنة ولا بدّ، فمِن داخل من أول وهلة، ومِن متأخر عن أولئك، وأن أهل المعصية منهم الكافر، ومنهم المسلم المؤمن، فإذا كان مسلماً فإن شاء الله عذبه وكان مآله إلى الجنة، وإن كان كافراً أدخل النار وكان خالداً فيها.

والمعصية قد تكون شركًا أكبر، وصاحبها من الخالدين في النار كحال من يدعو غير الله، أو يذبح لغير الله.

وقد تكون المعصية شركا أصغر كحال من يحلف بغير الله أو بالأمانة أو بالذمة وغير ذلك، وقد تكون دون ذلك من الكبائر أو الصغائر، وقال (ﷺ): «**كُلُّ**

أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»[1].

وقد استدل المؤلف (رحمه الله) على ما ذكر بآيتين من سورة المزمل، وفيها: ﴿فَأَخَذْنَٰهُ أَخْذًا وَبِيلًا﴾ [سورة المزمل:١٦]، أي: أخذاً شديدًا ثقيلاً متتابعًا.

الأمر الوبيل: هو المتتابع كوابل المطر، أي: المطر المتتابع وهكذا حال كل من كذَّب الرُّسل يأخذه الله أخذاً شديداً مؤلماً والعياذ بالله، وبذلك انتهى الكلام على المسألة الأولى. والله تعالى أعلم.

قال (رحمه الله): (الثَّانِيَةُ): أَنَّ الله لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ معه في عبادته أحد لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨].

هذا فيه تقريرٌ لتوحيد الألوهية وهو أحد أنواع التّوحيد الثّلاثة (الربوبية، والألوهية، والأسماء والصِّفات)، ومعناه توحيد الله بأفعال العباد، وهذا النَّوع من التَّوحيد هو الذي وقعت الخصومة فيه بين الرُّسل وأممهم، فقد خاصمت الرُّسل أقوامهم من أجله فقد كان أكثر الخلق يقرون بتوحيد الرُّبوبية لكنَّهم يشركون في توحيد الألوهية أو العبادة، فتجدهم يدعون مع الله الأوثانَ والملائكة والأشجار والأحجار والجانّ وغيرها، ويصرفون لهم شتى

---

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٠).

أنواع العبادة ويقولون: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [سورة الزمر:٣]، وكان كفار قريش يقولون في تلبيتهم: "لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ، إِلاَّ شَرِيكًا هُوَ لَكَ، تَمْلِكُهُ وَمَا مَلَكَ"[١] فهذه كانت حالهم فلذلك نبَّه المؤلف على هذه المسألة العظيمة لأهميتها، فإنَّها الغاية من الخلق، أي توحيد الألوهية والعبادة.

قوله: (الثَّانِيَةُ: أَنَّ اللهَ لا يَرْضَى): فيه إثبات صفة الرِّضا لله (ﷻ)، فهو (سبحانه وتعالى) يرضى ويسخط، ويحب ويكره، وهذا مما ينكره الأشاعرة وسائر المعطلة كالجهمية والمعتزلة.

والدليل على ذلك: قوله تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ﴾ [سورة الزمر:٧]، وقال تعالى: ﴿فَإِن تَرْضَوْا۟ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [سورة التوبة:٩٦]، والأشاعرة يؤولون صفة الرِّضا بإرادة الإكرام ونحو ذلك.

قوله: (لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ معه في عبادته أحد لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ)

---

(١) أخرجه مسلم (١١٨٥).

العبادة لغة: الطاعة مع الخضوع والتَّذلُّل، ومنه طريق مُعَبَّدٌ أي: مذلل بالأقدام[١].

وشرعاً: قد عرفها العلماء بتعريفات كثيرة منها: -

- العبادة هي: طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة رسله.

- ومنها: ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في رسالة العبودية فقال: «العبادة اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه، من الأقوال والأعمال، الباطنة والظاهرة»[٢].

والعبادة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: عبادة قوليه. كالدعاء، والذكر، والاستغفار، وقراءة القرآن.

القسم الثاني: عبادة فعلية. كالذبح، والنذر، والصلاة، والصوم.

القسم الثالث: عبادة قلبية. كالخشوع، والمحبة، والرغبة، والرهبة.

قال ابن القيم (رحمه الله) في النونية:

وعبادة الرحمن غاية حبه مع ذل عابده هما قطبان

وعليهما فلك العبادة دائر ما دار حتى قامت القطبان

(١) انظر: الصحاح للجوهري (٢/ ٥٠٣).

(٢) انظر: العبودية ص (٣).

ومداره بالأمر أمر رسوله لا بالهوى والنفس والشيطان

فقيام دين الله بالإخلاص وال إحسان إنهما له أصلان

لم ينج من غضب الإله وناره إلا الذي قامت به الأصلان

والناس بعد فمشرك بإلهه أو ذو ابتداع أو له الوصفان

فالعبادة تدور على ركنين عظيمين هما:

الركن الأول: كمال الحب وغايته وتمامه. وهذا لا يكون إلا لله تعالى وحده، فإنه وحده سبحانه المحبوب لذاته، أما ما سواه فإنه يحب لعلل وأغراض، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [سورة البقرة:١٦٥].

وقال النبي (ﷺ): «**ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلَّا للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ**»(١).

الركن الثاني: كمال الذل والخضوع وغايته.

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣).

قوله: (لا مَلَكٌ مُقرَّبٌ ولا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ): يشير إلى الذين عبدوا الملائكة، وعبدوا الأنبياء والرسل مع الله.

فدليل الملائكة قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأۡمُرَكُمۡ أَن تَتَّخِذُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرۡبَابًاۗ أَيَأۡمُرُكُم بِٱلۡكُفۡرِ بَعۡدَ إِذۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران:٨٠].

ودليل الأنبياء قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ [سورة المائدة:١١٦].

قال (رحمه الله): وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلۡمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدۡعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدٗا ١٨﴾ [سورة الجن:١٨].

اختلف المفسرون في المراد بـــ: ﴿الْمَسَاجِدَ﴾ في قوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ﴾ على أقوال:

الأول: أن المراد بالمساجد بيوت الله التي بنيت للصلاة.

الثاني: أنَّ المراد بها الأماكن التي يسجد عليها في الأرض.

الثالث: أن المراد بها أعضاء السجود التي يسجد عليها العبد كاليدين والرجلين.

قوله: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾: يشمل الدُّعاء بنوعيه، لأنَّ الدعاء نوعين: دعاء العبادة، ودعاء المسألة.

قال الشيخ سليمان بن عبد الله (رَحِمَهُ اللَّهُ): «واعلم أن الدعاء نوعان: دعاء عبادة، ودعاء مسألة؛ كما حققه غير واحد منهم: شيخ الإسلام، وابن القيم وغيرهما، ويراد به في القرآن هذا تارة، وهذا تارة، ويراد به مجموعهما، وهما متلازمان. فدعاءُ المسألة هو طلب ما ينفع الداعي من جلب نفع أو كشف ضر، فالمعبود لا بد أن يكون مالكًا للنفع والضر، ولهذا أنكر الله تعالى على من عبد من دونه ما لا يملك ضرًّا ولا نفعًا كقوله: ﴿قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سورة المائدة:٧٦].

وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [سورة يونس:١٨]، وذلك كثير في القرآن يبين أن المعبود لا بد وأن يكون مالكًا للنفع والضر، فهو يدعى للنفع والضر دعاء المسألة، ويدعى خوفًا ورجاء دعاء العبادة، فعلم أن النوعين

متلازمان. فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، وبهذا التحقيق يندفع عنك ما يقوله عباد القبور إذ احتج عليهم بما ذكر الله في القرآن من الأمر بإخلاص الدعاء له. وأما دعاء العبادة، فهو عبادة الله تعالى بأنواع العبادات، من الصلاة، والذبح، والنذر، والصيام، والحج وغيرها، خوفًا وطمعًا، يرجو رحمته، ويخاف عذابه، وإن لم يكن في ذلك صيغة سؤال وطلب، فالعابد الذي يريد الجنة ويهرب من النار، وهو سائل راغب راهب. يرغب في حصول مراده، ويرهب من فواته، وهو سائل لما يطلبه بامتثال الأمر في فعل العبادة، وقد فسر قوله تعالى: ﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾ [سورة غافر:٦٠]، بهذا وهذا، قيل: اعبدوني وامتثلوا أمري أستجب لكم، وقيل: سلوني أعطكم، وعلى هذا القول تدل الأحاديث والآثار. إذا تبين ذلك، فاعلم أن العلماء أجمعوا على أن من صرف شيئًا من نوعي الدعاء لغير الله فهو مشرك، ولو قال لا إله إلا الله محمد رسول الله وصلى وصام، إذ شرط الإسلام مع التلفظ بالشهادتين ألا يعبد إلا الله، فمن أتى بالشهادتين وعبد غير الله فما أتى بهما حقيقة وإن تلفظ بهما» (١).

(١) انظر: تيسير العزيز الحميد ص١٧٦-١٨٦ بتصرف.

قوله: ﴿أَحَدًا﴾: هذه نكرة في سياق النهي فتعم، فلا يجوز أن ندعو مع الله أي أحد ولو كان عظيما كالملائكة والرُّسل، ولو كان قليلا كـمرة واحدة فقط في العمر مثلا، فهي تفيد العموم، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [سورة النساء:٤٨]، وفي البخاري: «مَنْ لَقِيَ اللهَ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّةَ»(١).

قوله: (الثَّالِثَةُ): أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ وَوَحَّدَ اللهَ لا يجوز له موالاة من حاد اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة المجادلة:٢٢]. هذه المسألة تتعلق بالولاء والبراء؛ لأن العبد لا يسلم له توحيده إلا بهذه المسألة، وقد ألفت فيها كتب مستقلة، وذكرها العلماء في مؤلفاتهم. فالولاء والبراء أصل عظيم من أصول الإسلام جاءت فيه النصوص الكثيرة منها:

(١) أخرجه البخاري (١٢٩)، ومسلم (٩٣).

قوله تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا ۗ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة:٢٥٦].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾ [سورة آل عمران:١١٨].

وقوله تعالى: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [سورة المائدة:٥١].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة المائدة:٥٧].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا

وَتِجَٰرَةٌ تَخۡشَوۡنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرۡضَوۡنَهَآ أَحَبَّ إِلَيۡكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٖ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُواْ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ ٱللَّهُ بِأَمۡرِهِۦۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ﴾ [سورة التوبة:٢٣-٢٤].

وقوله تعالى: ﴿قَدۡ كَانَتۡ لَكُمۡ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ فِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذۡ قَالُواْ لِقَوۡمِهِمۡ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُاْ مِنكُمۡ وَمِمَّا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرۡنَا بِكُمۡ وَبَدَا بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةُ وَٱلۡبَغۡضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَحۡدَهُۥٓ﴾ [سورة الممتحنة:٤].

قال الشيخ ابن عثيمين (رحمه الله): "ولأن موالاة من حاد الله ومداراته تدل على أن ما في قلب الإنسان من الإيمان بالله ورسوله ضعيف؛ لأنه ليس من العقل أن يحب الإنسان شيئاً هو عدو لمحبوبه، وموالاة الكفار تكون بمناصرتهم ومعاونتهم على ما هم عليه من الكفر والضلال، وموادتهم تكون بفعل الأسباب التي تكون بها مودتهم فتجده يوادهم أي يطلب ودهم بكل طريق، وهذا لا شك ينافي الإيمان كله أو كماله، فالواجب على المؤمن معاداة من حاد الله ورسوله ولو كان أقرب قريب إليه، وبغضه والبعد عنه ولكن هذا لا يمنع نصيحته ودعوته للحق"(١).

---

(١) انظر: شرح ثلاثة الأصول ص٣٦.

الولاء لغة: قال ابن منظور: "قال ابن الأعرابي: الموالاة أن يتشاجر اثنان فيدخل ثالث بينهما للصلح ويكون له في أحدهما هوىً فيواليه أو يحابيه. ووالى فلان فلاناً إذا أحبه... وقد تكرر ذكر (المولى) في الحديث، قال: وهو اسم يقع على جماعة كثيرة فهو: الرب والمالك والسيد والمنعِم والمعتِق والناصر والمحب والتابع والجار وابن العم والحليف والعقيد والصهر والعبد والمعتَق والمنعَم عليه، وقد تختلف مصادر هذه الأسماء، فالوَلاية بالفتح في النسب والنصرة والعتق، والوِلاية بالكسر في الإمارة، والولاء في العتق، والموالاة من والى القوم، وقال: والولي: الصديق والنصير، ابن الأعرابي: الولي: المحب... والموالاة: ضدّ المعاداة، والولي: ضدّ العدو. وتولاه: اتخذه ولياً، وإنه لبيِّن الوِلاة والولية والتولي والولاء والوِلاية، والوَلاية. والولي: القرب والدنو"(١).

البراء لغة: قال الزبيدي: "وقال البيضاوي: أصل تركيب البرْء لخلوص الشيء من غيره، إما على سبيل التقصي، كـبَرَأ المريض من مرضه، والمديون من دينه، أو الإنشاء، كـبَرَأ الله آدم من الطين"(٢).

---

(١) انظر: لسان العرب (١/٤٠٠-٤٠٧).

(٢) انظر: تاج العروس (١/١٤٥).

فـالولاء لغة: يطلق على عدّة معان منها: (المحبة، والنصرة، والاتباع، والقرب من الشيء، والدّنو منه).

والبراء لغة: يطلق على عدة معان منها: (البعد، والتَّنزه، والتَّخلص، والعداوة).

الــولاء والبراء شــرعًا:

تدور تعاريف العلماء حول الولاية أنَّها بمعنى: النصرة، والمحبة، والإكرام، والاحترام، والكون مع المحبوبين ظاهراً وباطناً.

والبراء هو: البعد، والخلاص، والعداوة بعد الإعذار والإنذار.

قال شيخ الإسلام (رحمه الله): «وأصلُ الولاية والعداوة الحب والبغض، فأولياء الله هم الذين يحبون ما أحب ويبغضون ما أبغض، وأعداؤه الذين يبغضون ما يحب ويحبون ما يبغض» [١].

(١) انظر: الرد على المنطقيين صـ٥١٩.

وقال أيضاً: "والوليّ: القريب.... فإذا كان وليّ الله هو الموافق، المتابع له فيما يُحبّه ويرضاه، ويُبغضه ويُسخطه، ويأمر به وينهى عنه، كان المعادي لوليه معادياً له...".(١).

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن (رحمه الله): "أصل الموالاة الحب، وأصل المعاداة: البغض، وينشأ عنهما من أعمال القلوب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة، كالنصرة، والأنس، والمعاونة، وكالجهاد، والهجرة، ونحو ذلك من الأعمال. والوليّ ضدّ العدو"(٢).

والموالاة على قسمين:

القسم الأول: موالاة مكفرة، وهي: موالاة الكفار محبة لدينهم ورغبة في علوهم ونصرهم على المسلمين، فهذه موالاة مكفرة، يَخْرُج بها العبد من الإسلام، ودليله قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [سورة المائدة:٥١].

---

(١) انظر: الفرقانً ٩.

(٢) انظر: الدرر السنية ٢/٣٢٥.

القسم الثاني: موالاة غير مكفرة، ولكنها كبيرة من الكبائر، وهي: مودتهم من أجل الدنيا، أو الحصول على مال، أو منصب، ونحو ذلك، وليست من أجل الدين، والدليل على أنها غير مكفرة ولا تخرج من الإسلام مع أنها كبيرة قصة حاطب بن أبي بلتعة (رضي الله عنه) ففي الصحيحين من حديث عبيد الله بن أبي رافع، قال: سمعت عليا (رضي الله عنه)، يقول: بعثني رسولُ الله (صلى الله عليه وسلم) أنا والزبير، والمقداد بن الأسود، قال: «**انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ، فَإِنَّ بِهَا ظَعِينَةً، وَمَعَهَا كِتَابٌ فَخُذُوهُ مِنْهَا**»، **فَانْطَلَقْنَا تَعَادَى بِنَا خَيْلُنَا حَتَّى انْتَهَيْنَا إِلَى الرَّوْضَةِ، فَإِذَا نَحْنُ بِالظَّعِينَةِ، فَقُلْنَا أَخْرِجِي الكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ، فَقُلْنَا: لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أَوْ لَنُلْقِيَنَّ الثِّيَابَ، فَأَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللهِ** (صلى الله عليه وسلم)، **فَإِذَا فِيهِ: مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنَ المُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ يُخْبِرُهُمْ بِبَعْضِ أَمْرِ رَسُولِ اللهِ** (صلى الله عليه وسلم)، **فَقَالَ رَسُولُ اللهِ** (صلى الله عليه وسلم): «**يَا حَاطِبُ مَا هَذَا؟**»، **قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، لاَ تَعْجَلْ عَلَيَّ إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَقًا فِي قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنَ المُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ مِنَ النَّسَبِ فِيهِمْ، أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ كُفْرًا وَلاَ ارْتِدَادًا، وَلاَ رِضًا بِالكُفْرِ بَعْدَ الإِسْلاَمِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ** (صلى الله عليه وسلم): «**لَقَدْ صَدَقَكُمْ**»، **قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ دَعْنِي أَضْرِبْ**

عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ، قَالَ: " إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ"[(١)].

وحاطب (رضي الله عنه) كان بدريًا، فلو كان فعله مكفِّرًا ما نفعه ذلك، فدل هذا على أن مودتهم من أجل الدنيا محرمة وكبيرة؛ لكنها غير مكفرة.

قال المؤلف (رحمه الله): (أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ). وطاعة الرسول (ﷺ) تكون بأربعة أمور:

الأول: طاعته فيما أمر.

الثاني: تصديقه فيما أخبر.

الثالث: الانتهاء عما نهى عنه وزجر.

الرابع: ألاَّ يُعْبَد الله إلا بما شرع.

قوله: (وَوَحَّدَ اللهَ): التوحيد: من وحّد يوحّد توحيدا أي جعل الشيء واحدا، والمقصود به هنا: إفراد الله تعالى بما يختص به من الربوبية، والألوهية، والأسماء والصفات، وسيأتي تفصيله.

(١) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤).

قوله: (لا يجوز له موالاة مَنْ حادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ)، المحادة: هي المجانبة والمعاداة، مأخوذة من الحَد، وهو: أن يكون هؤلاء في حد أي: في جانب، وهؤلاء في حد آخر، **(ولو كان أقرب قريب)**، القرب الحقيقي هو قرب الدِّين، لا قرب النَّسب، والدليل قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ﴾ [سورة هود:٤٥]، فرد الله (جَلَّ وَعَلَا) عليه قائلاً: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [سورة هود:٤٦]، مع أنَّه ابنه من الصّلب، ولم يمنع ذلك من نصيحته ودعوته، بل والحرص على دعوته، كما فعل النّبي (ﷺ) مع عمه أبي طالب بقوله: «أَيْ عَمِّ، قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللهِ»[1].

وكما فعل إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلَامُ) مع أبيه، وغير ذلك. فالواجب البراءة من الكفر وأهله، كما قال تعالى عن إبراهيم: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِيٓ إِبْرَٰهِيمَ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ إِذْ قَالُوا۟ لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَءَٰٓؤُا۟ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَآ أَمْلِكُ لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن شَيْءٍ﴾ [سورة الممتحنة:٤]، الآية؛ لكن إظهار هذه البراءة يختلف من بلد إلى بلد، ومن

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٨٤)، ومسلم (٢٤)، واللفظ للبخاري.

زمان إلى زمان، بحسب ظهور الدين وقوته وضعفه وتمكنه، فقد لا يستطيع بعض الناس إظهار البراءة للمشركين لغلبتهم ولقهرهم له؛ لأنه يعيش في بلادهم، ويُحكَم بقوانينهم، ونحو ذلك، فكلٌ بحسبه.

قال (رَحِمَهُ اللَّهُ): (والدليل قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة المجادلة: ٢٢].

قوله ﴿لَّا﴾: نافية، و﴿تَجِدُ﴾: فعل مضارع، و﴿قَوْمًا﴾: نكرة، والنكرة إذا جاءت في سياق النفي أو النهي فإنَّها تفيد العموم، فهذا النفي الذي هو بمعنى الخبر يدل على أن هذه المُوَادّة لا يصح أن تقع من أهل الإيمان، فلا يجتمع الإيمان ومحبة أعداء الله، فمن والاهم فقد ترك واجبًا من واجبات الإيمان، ﴿يُوَآدُّونَ﴾ أي: يطلبون وُدهم والقرب منهم، ﴿مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ أي: كانوا في جانب وأهل الإيمان في جانب آخر، ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ﴾ أي: ثبَّت الإيمان في قلوبهم، وارأساه، وقوَّاه، وزيَّنه، ﴿وَأَيَّدَهُم

﴿بِرُوحٍ مِّنْهُۖ﴾ أي: بنصر منه. ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾، لما أسخطوا الأقارب والأباعد في ذات الله؛ رضي عنهم، والجزاء من جنس العمل، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ﴾ أي: الموالون لأولياء الله، المعادون لأعدائه، وهذا فيه رد على الأحزاب

التي تدعي أنها إسلامية، وتُدخل معهم النصارى، مثل ما حصل في مصر من (حزب النور)، وحزب (الإخوان المسلمون)، المسمى بـــ: (الحرية والعدالة)، فحزب الله لا يوالي النصارى، أو اليهود من أجل الحصول على المناصب الدنيوية ونحوها.

قوله: ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ أي: المفلحون في الدنيا الفائزون فيها، وفي الآخرة هم النَّاجون، قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [سورة المائدة:٥٦].

وبهذا انتهى الكلام على هذه المسائل الثلاث، التي هي: الربوبية، والألوهية، والولاء والبراء.

والله تعالى أعلى وأعلم.

[الحنيفيّة ملة إبراهيم (عليه السلام)]

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله):

(اعلَمْ) أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ وَبِذَلِكَ أَمَرَاللهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَهَا كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات:٥٦]. وَمَعْنَى يَعْبُدُونِ: يُوَحِّدُونِ.

وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَاللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ، وَأَعْظَمَ مَا نَهَى عَنْه الشِّرك وَهُوَ دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[١].

الشَّــــــــرح

قوله: **(اعلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ):** فيه دعاء من المؤلف (رحمه الله) لقارئ هذه الرسالة بالرشاد والسَّداد لطاعة الله، وهذا من خير ما يُدعى به، وطاعته سبحانه تكون بامتثال الأوامر واجتناب النَّواهي، وهذا يدل على عناية (رحمه الله) ورحمته بالمتعلم.

(١) سورة النساء: ٣٦.

قوله: (أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إبْرَاهِيمَ أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ وَخَلَقَهُمْ لَهَا)، والدليل على أن ملة إبراهيم هي الحنيفية قوله تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ فَٱتَّبِعُواْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة آل عمران:٩٥].

وقوله تعالى ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة النحل:١٢٠]، فملة إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلَامُ) هي الحنيفية التي جاء بها النبي –ﷺ– مجدِّداً لها وداعياً إليها.

والحَنَفُ في اللغة: الميل. قال الجوهري: "الحَنَفُ الاعوجاجُ في الرِجل، وهو أن تُقْبِلَ إحدى إبهاميْ رجليه على الأخرى. والرجل أَحْنَفُ، ومنه سمى الأَحْنف بن قيس، واسمه صخر.

وقال ابن الأعرابي: هو الذي يمشي على ظهر قَدَمه من شِقِّهَا الذي يلي خِنْصرَها. يقال: ضربتُ فلاناً على رِجله فَحَنَفْتُها. والحنيفُ: المسلمُ، وقد سمِّي المستقيمُ بذلك كما سمِّي الغرابُ أعورَ.

وتَحَنَّفَ الرجلُ، أي عَمِلَ عَمَلَ الحَنِيفِيّةِ، ويقال: اختتن، ويقال: اعتزلَ الأصنامَ وتعبّدَ"(١).

قال ابن كثير (رحمه الله): "الحنيف: هو المائل عن الشرك قصدا، أي تاركا له عن بصيرة، ومقبل على الحق بكليته، لا يصده عنه صاد، ولا يرده عنه راد"(٢)، فالملة الحنيفية هي ملة إبراهيم القائمة على التَّوحيد الخالص.

قوله: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ): قال شيخ الإسلام: العبادة هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة.

الأقوال الظاهرة: كقراءة القرآن.

الأقوال الباطنة: مثل الاعتقادات القلبية في الله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر.

والأعمال الظاهرة: كالصَّلاة، والصيام.

الأعمال الباطنة: كالخوف، والخشية.

---

(١) انظر: الصحاح تاج اللغة ١٣٤٧/٤، مادة: [حنف].

(٢) انظر: تفسير القران العظيم ٤٢٢/٢.

قوله: (مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ): الإخلاص هو: ترك الرياء في الطاعات، يقال أخلص الشيء أصفاه، أخلص لله دينه ترك الرياء فيه، وألا يفعل فعلاً إلا لله تعالى، وألا يطلب صاحب العمل مقابلاً له في الدنيا.

قال ابن القيم (رحمه الله) في معنى الإخلاص: "لا يمازج عمله ما يشوبه من شوائب إرادات النفس إما طلب التزين في قلوب الخلق، وإما طلب مدحهم، والهرب من ذمهم، أو طلب تعظيمهم، أو طلب أموالهم أو خدمتهم ومحبتهم وقضائهم حوائجه، أو غير ذلك من العلل والشوائب، التي عِقدُ متفرقاتها هو إرادة ما سوى الله بعمله، كائنا ما كان"[1].

وقال في النونية[2] :

وحقيقة الإخلاص توحيد المرا ... د فلا يزاحمه مراد ثان

لكن مراد العبد يبقى واحداً ... ما فيه تفريق لدى الإنسان

إن كان ربك واحداً سبحانه ... فاخصصه بالتوحيد مع إحسان

أو كان ربك واحداً أنشاك لم ... يشركه إذ أنشاك رب ثان

فكذاك أيضا وحده فاعبده لا ... تعبد سواه يا أخا العرفان

---

(١) انظر: مدارج السالكين ٢/٩٢.

(٢) انظر: النونية صـ٢١٩.

والصدق توحيد الإرادة وهو بذ   ل الجهد لا كسلا ولا متوان

قوله: (مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ): الدين المقصود به هنا: دين الله الذي أمر به، وأنزله، وهو الإسلام كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ﴾ [سورة آل عمران:١٩]، ويطلق الدين على الجزاء، ومنه قوله تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [سورة الفاتحة:٤]، أي: يوم الجزاء والمجازاة، ويقال: كما تدين تدان، أي: كما تجازي الناس تجازَى.

قوله: (وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ): أي: بعبادة الله وحده مخلصًا له الدين، والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء:٢٥].

قوله: (وَخَلَقَهُمْ لَهَا): والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات:٥٦].

قوله: (وَمَعْنَى يَعْبُدُونِ: يُوَحِّدُونِ)، فيه الحكمة من خلق الجنِّ والإنس وهي: توحيد الله تعالى، والإخلاص له في العبادة، وهذا هو الأصل الذي بدأ به النبي (ﷺ) دعوته، وأمر الله به جميع رسله، فالتوحيد من معاني العبادة، وهو أصلها، وركنها الأعظم، والعبادة أعم من التوحيد، كالدعوة إلى الله، والجهاد، والأمر والنهي، وبر الوالدين، وطلب العلم، وتلاوة القرآن، كلها

عبادات لا تقبل إلا بشرطها وهو التَّوحيد، فلو جاء مشرك يقرأ القرآن أو يحج أو يتصدق بصدقة فكل هذا ليس له فيه أجر؛ لأنه فقد الشرط الأول لقبول العمل وهو التوحيد.

أنواع العبادة

والعبادة على نوعين:

النوع الأول: عبادة كونية قدرية، وهي شاملة لجميع المخلوقات المؤمن والكافر، البرّ والفاجر، ومعناها: الخضوع لأمر الله تعالى الكوني القدري، قال تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾ [سورة مريم:٩٣].

النوع الثاني: العبادة الشرعية، وهي الخضوع لأمره تعالى الشرعي باتباع ما جاءت به الرُّسل بفعل الأوامر وترك النواهي، وهذه هي العبادة المطلوبة التي يثاب عليها العبد ويحمد عليها، وأثنى الله على أهلها وأضافهم إليه قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾ [سورة الحجر:٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا﴾ [سورة الفرقان:٦٣].

وهذه العبادة هي التي خلق الجن والإنس لها.

قوله: (وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ): أي: توحيد العبادة، وهو توحيد الألوهية، ومعناه كما قال المؤلف هنا: **(وَهُوَ إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ)**، أو إفراد الله بأفعال العباد، وسبق بيان معنى توحيد الربوبية، وهو: إفراد الله بأفعاله كـ: الخلق، والرَّزق، والتَّدبير.

والتَّوحيدُ في اللغة:

مصدر (وَحَّدَ يُوَحدُ تَوحيدًا)، أي: جعل الشيء واحدًا، وهذا لا يتحقق إلا بأمرين:

الأول: نفي استحقاق العبادة عمَّا سوى الله.

والثاني: إثبات هذه العبادة لله وحده، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [سورة النحل:٣٦].

فقوله: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾، هذا إثبات. وقوله: ﴿وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ هذا نفي، وهذا معنى قول (لا إله إلا الله)، فـ: (لا إله): نفي، و: (إلاَّ الله): إثبات، ومعناها: لا معبود بحق إلا الله.

والتوحيد بوجه عام هو:

إفراد الله بما يختص به من الرُّبوبية، والألوهية، والأسماء والصِّفات.

قوله: (وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ): جعل هذا أعظم الأوامر؛ لأن هذا حق الله (ﷻ)، فالذي خلق ورزق وأمد هو الذي يجب أن يفرد بالعبادة.

وفي الحديث: أنَّ النَّبي (ﷺ) قال لمعاذ: «**يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهَّ عَلَى العِبَادِ؟**»، **قَالَ: اللهُّ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ؟»، قَالَ: اللهُّ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ»**[1].

وقال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ۝٢١ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فِرَٰشٗا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءٗ وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزۡقٗا لَّكُمۡۖ فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢١-٢٢].

قال الشيخ ابن عثيمين (رحمه الله): "وإنما كان التوحيد أعظم ما أمر الله؛ لأنه الأصل الذي ينبني عليه الدين كله، ولهذا بدأ به النبي (ﷺ) في الدعوة إلى الله، وأمر من أرسله للدعوة أن يبدأ به" [1].

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (٣٠) واللفظ للبخاري.

قال (رَحِمَهُ اللهُ): (وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْهُ الشِّرْكُ).

الشِّرك هو: التَّنديد، وعرفه المؤلف هنا بقوله: (وَهُوَ دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ): وهذا أحد أنواع الشِّرك كما سيأتي.

والشرك على أنواع وهي:

النوع الأول: شرك أكبر يخرج من الملة. والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [سورة النساء:١١٦].

وهو على أربعة أنواع:

الأول: شرك المحبَّة، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ [سورة البقرة:١٦٥].

الثاني: شرك الطَّاعة، قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟

=

(١) انظر: شرح ثلاثة الأصول صـ٤١.

﴿إِلَٰهًا وَاحِدًا ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [سورة التوبة:٣١]، ويفسرها حديث عدي بن حاتم (رضي الله عنه) قَالَ: " أَتَيْتُ النَّبِيَّ - (صلى الله عليه وسلم) - وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ. قَالَ: " أَجَلْ، وَلَكِنْ يُحِلُّونَ لَهُمْ مَا حَرَّمَ اللهُ فَيَسْتَحِلُّونَهُ، وَيُحَرِّمُونَ عَلَيْهِمْ مَا أَحَلَّ اللهُ فَيُحَرِّمُونَهُ، فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ لَهُمْ "(١).

الثالث: شرك الدَّعوة والدُّعاء، قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [سورة غافر:٦٠]، أي: عن دعائي. وقال تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن:١٨].

الرابع: شرك النِّية والإرادة، وهو أن يعمل لغير الله، وهو مضاد للإخلاص، وتتنوع صوره، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ ۞ أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [سورة الزمر:٢-٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، والطبراني في "الكبير" (٢١٨)، (٢١٩)، والبيهقي في "السنن الكبير" (٢٠٤٠٩) واللفظ له.

وقوله تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾ [سورة هود:١٥].

قال الإمام ابن القيم (رحمه الله): "أما الشرك في الإرادات والنّيات، فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقل من ينجو منه، من أراد بعمله غير وجه الله، ونوى شيئا غير التقرب إليه، وطلب الجزاء منه، فقد أشرك في نيته وإرادته"(١) وذلك لكثرة الصور التي يأتي فيها، والأنحاء الذي يتشكل فيها والله المستعان.

النوع الثاني: شرك أصغر لا يخرج من الملة، ومنه:

١) **يسير الرياء**، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [سورة الكهف:١١٠]، وقد روى الإمام أحمد وغيره عن النبي (ﷺ) أنه قال: **«إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ " قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: " الرِّيَاءُ»**(٢).

---

(١) انظر: الداء والدواء ١٣٥.

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٦٣٠)، وقال المنذري إسناده جيد، الترغيب والترهيب (١/ ٤٨)، وقال الهيثمي رجاله رجال الصحيح، مجمع الزوائد (١/ ١٠٢).

ب) **ومنه الحلف بغير الله**؛ لقوله (ﷺ): «**مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ**»[١].

جـ) **قول: "ما شاء الله وشئت"**، روى أبو داود في سننه عن النبي (ﷺ) قال: «**لَا تَقُولُوا مَا شَاءَ اللهُ وَشَاءَ فُلَانٌ، وَلَكِنْ قُولُوا مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شَاءَ فُلَانٌ**»[٢].

د) **ومنه قول: " لولا الله وفلان "**، أو قول: "**لولا البط لأتانا اللّصوص**"، ونحو ذلك، روى ابن أبي حاتم في تفسيره عن ابن عباس (رضي الله عنهما) في معنى قوله تعالى: ﴿**فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [سورة البقرة:٢٢]، قال: " الأنداد هو الشِّرك أخفى من دبيب النَّمل على صفاة سوداء في ظلمة اللَّيل، وهو أن تقول: والله وحياتك يا فلان، وحياتي، وتقول: لولا كُلَيْبة هذا لأتانا اللّصوص، ولولا البط في الدَّار لأتى اللّصوص، وقول الرَّجل لأصحابه: ما شاء الله وشئت، وقول الرَّجل: لولا الله وفلان، لا تجعل فيها فلاناً، هذا كله به شرك"[٣].

---

(١) أخرجه الترمذي (١٥٣٥) وحسنه، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه أبو داود (٤٩٨٠)، وقال الذهبي في مختصر البيهقي (١/ ١٤٠) إسناده صالح.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (١/ ٦٢).

قوله: (وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه الشِّرْكُ): والدليل على ذلك من الكتاب والسنة:

أولاً: من الكتاب:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾ [سورة النساء:١١٦].

وقوله: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفْتَرَىٰٓ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء:٤٨].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [سورة المائدة:٧٢].

وفي موعظة لقمان لابنه قال: ﴿يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة لقمان:١٣]، وإنَّما كان الشِّرك أظلم الظّلم وأعظمه؛ لأن الظلم هو وضع الشيء في غير موضعه، فمن عبد غير الله فقد وضع العبادة في غير موضعها، وهذا أعظم الظلم؛ لأن الخالق المالك المتصرف السيد لا ينبغي أن تصرف العبادة إلا له وحده سبحانه.

ثانياً: من السنة:

ما رواه البخاري ومسلم عن عبد الله بن مسعود (رضي الله عنه) قال: سألت، أو سئل رسول الله (صلى الله عليه وسلم): أي الذنب عند الله أكبر؟ قال: **"أَنْ تَجْعَلَ للهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ"**[١].

وقوله (عليه الصلاة والسلام): **«مَنْ لَقِيَ اللهَ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا دَخَلَ الجُنَّةَ، وَمَنْ لَقِيَهُ يُشْرِكُ بِهِ دَخَلَ النَّارَ»**[٢].

وعن جابر (رضي الله عنه) قال: أتى النبي (صلى الله عليه وسلم) رجل فقال: يا رسول الله، ما الموجبتان؟ فقال: **«مَنْ مَاتَ لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ الجُنَّةَ، وَمَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا دَخَلَ النَّارَ»**[٣].

قال المؤلف رحمه الله: والدليل قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾[٤]، قال ابن كثير (رحمه الله)[٥]: "يأمر (تبارك وتعالى) بعبادته وحده لا شريك له؛ فإنه هو

(١) أخرجه البخاري (٤٤٧٧)، ومسلم (٨٦).

(٢) أخرجه مسلم (٩٣).

(٣) أخرجه مسلم (٩٣).

(٤) سورة النساء: ٣٦.

(٥) انظر: تفسير ابن كثير ٢/٢٩٨.

الخالق الرازق المنعم المتفضل على خلقه في جميع الآنات والحالات، فهو المستحق منهم أن يوحدوه، ولا يشركوا به شيئا من مخلوقاته، كما قال رسول الله (ﷺ) لمعاذ: "**أتدري ما حق الله على العباد؟" قال: الله ورسوله أعلم. قال: "أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا"، ثم قال: "أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ ألا يعذبهم**"(١).

وهذه الآية قد اشتملت على النَّفي والإثبات فقوله: **(اعْبُدُوا اللَّهَ)**: فيه إثبات العبادة لله، **(وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا)**: هذا النفي، وكلمة **(شَيْئًا)**: نكرة في سياق النَّهي فتعم الشِّرك الأكبر والأصغر، والقليل والكثير، فلا يجوز الشرك به ولو كان بأصغر شيء يتصور، كذبح بعوضة، أو تقريب ذبابة، ونحو ذلك.

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٣).

[الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا]

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب (رَحِمَهُ اللَّهُ):

(فَإِذَا قِيلَ لَكَ): مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟ فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا (ﷺ).

الشَّـــــــــرح

قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟).

لماذا صدَّر المؤلف (رَحِمَهُ اللَّهُ) هذه المسألة بصيغة السؤال؟ الجواب: لعدة فوائد:

الأولى: تشويق المخاطب.

الثانية: تنبيه المخاطب لأهمية ما سيأتي.

الثالثة: الاستعداد الذهني لاستيعاب ما سيأتي.

وهذه طريقة نبوية جاءت في السنة في مواضع كثيرة منها:

قوله (ﷺ) لمعاذ بن جبل (رضي الله عنه): **«يَا مُعَاذُ أَتَدْرِي مَا حَقُّ اللهِ عَلَى العِبَادِ؟»، قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلاَ يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، أَتَدْرِي مَا حَقُّهُمْ عَلَيْهِ؟»، قَالَ: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «أَنْ لاَ يُعَذِّبَهُمْ»**[1] متفق عليه.

٢- وقوله (ﷺ): **«إِنَّ مِنَ الشَّجَرِ شَجَرَةً لاَ يَسْقُطُ وَرَقُهَا، وَإِنَّهَا مَثَلُ الْمُسْلِمِ، فَحَدِّثُونِي مَا هِيَ؟ فَوَقَعَ النَّاسُ فِي شَجَرِ البَوَادِي قَالَ عَبْدُ اللهِ: وَوَقَعَ فِي نَفْسِي أَنَّهَا النَّخْلَةُ، فَاسْتَحْيَيْتُ، ثُمَّ قَالُوا: حَدِّثْنَا مَا هِيَ يَا رَسُولَ اللهِ قَالَ: «هِيَ النَّخْلَةُ»**[2]، فاستعمل الإمام المجدد رحمه الله هذه الطريقة تأسّياً بالنَّبي (ﷺ).

قوله: (مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ). الأصول لغة: جمع أصل، وهو ما يبنى عليه غيره.

ومن أهم معانيه اللغوية ما يأتي:

١ – أصل الشيء: أساسه وقاعدته، فأصل الشجرة أساسها، وأصل الحائط

---

(١) أخرجه البخاري (٧٣٧٣)، ومسلم (٣٠).

(٢) أخرجه البخاري (٦١)، ومسلم (٢٨١١).

أساسه الذي يقوم عليه قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤].

٢ – أصل الشيء: أسفله الذي لا قيام له ولا ثبات له إلا به، ومنه أصل الجدار، أي أساسه الذي في الأرض(١).

والأصل ينقسم إلى: حسي، ومعنوي.

فالحسي: كأصل الجدار الذي يبنى عليه البيت، وأصل الشجرة، وهي جذورها التي تخرج منها.

والمعنوي: ككلمة التوحيد الواردة في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [سورة إبراهيم: ٢٤]، ومنه: أصول الفقه، أي: قواعده الإجمالية، وكذا: أصول التفسير، وأصول الحديث ونحو ذلك.

والأصل في الاصطلاح يطلق على معان، من أهمها:

---

(١) ينظر: المصباح المنير في غريب الشرح الكبير ١/ ١٦، مادة " أصل ".

١- الدليل. كقولنا: " الأصل في التيمم: الكتاب، والأصل في المسح على الخفين: السنة " أي: دليل ثبوت التيمم من الكتاب، ودليل ثبوت المسح من السنة.

٢- يطلق الأصل ويراد به القاعدة المستمرة كقولهم: "تحمُّل العاقلة للدية خلاف الأصل ".

٣- يطلق الأصل ويراد به الرجحان كقولهم: " الأصل في الكلام الحقيقة " أي: الراجح عند السامع هو المعنى الحقيقي، دون المعنى المجازي.

٤-يطلق الأصل ويراد به المستصحب كقولهم: " الأصل في الأشياء الإباحة"، أي: نستصحب الإباحة الثابتة في الأشياء حتى يأتي ما يحرم، وقولهم: " الأصل في الإنسان البراءة " أي: أن الإنسان بريء حتى تثبت إدانته بدليل(١).

قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ): مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟
أي: اعتقادها والعمل بها.

---

(١) انظر: شرح مختصر الروضة ١/ ١٢٦- ١٢٧، والمنهاج في ترتيب الحجاج صـ ١٣، ونفائس الاصول للقرافي ١/ ١٥٦- ١٥٧، ونهاية السول شرح منهاج الوصول ١/ ٩، والبحر المحيط للزركشي ١/ ١٦- ١٧.

قال الشيخ ابن عثيمين (رحمه الله): "وإنما قال: إن هذه هي الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا لأنها هي الأصول التي يُسأل عنها المرء في قبره إذا دفن وتولى عنه أصحابه أتاه ملكان فأقعداه فسألاه من ربّك؟ وما دينك؟ ومن نبيّك؟ فأما المؤمن فيقول: ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمّد (صلى الله عليه وسلم)، وأما المرتاب أو المنافق فيقول هاه هاه لا أدري، سمعت الناس يقولون شيئاً فقلته"(١).

والدليل على ذلك ما أخرجه الشَّيخان من حديث أنسٍ (رضي الله عنه)، عن النَّبي (صلى الله عليه وسلم) أنَّه قال: " العَبْدُ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ، وَتَوَلَّى وَذَهَبَ أَصْحَابُهُ حَتَّى إِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ، أَتَاهُ مَلَكَانِ، فَأَقْعَدَاهُ، فَيَقُولاَنِ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ مُحَمَّدٍ (صلى الله عليه وسلم)؟ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعَدِكَ مِنَ النَّارِ أَبْدَلَكَ اللهُ بِهِ مَقْعَدًا مِنَ الجَنَّةِ، قَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): " فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا، وَأَمَّا الكَافِرُ - أَوِ المُنَافِقُ - فَيَقُولُ: لاَ أَدْرِي، كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ، فَيُقَالُ: لاَ دَرَيْتَ وَلاَ تَلَيْتَ، ثُمَّ يُضْرَبُ بِمِطْرَقَةٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً بَيْنَ أُذُنَيْهِ، فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ إِلَّا الثَّقَلَيْنِ"(٢).

---

(١) انظر: شرح ثلاثة الاصول صـ٤٣.

(٢) أخرجه البخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠).

وفي حديث الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ، قَالَ: خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ (ﷺ)، فِي جِنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَانْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ، وَلَمَّا يُلْحَدْ، فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ)، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، كَأَنَّ عَلَى رُءُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُتُ فِي الْأَرْضِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ: «اسْتَعِيذُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا» ...

وقال في العبد المؤمن: " فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّيَ اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِيَ الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ)، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ، فَآمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ: أَنْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ "...وقال في الكافر أو الفاجر: " فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ، فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا، وَسَمُومِهَا، وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ"(١).

---

(١) أخرجه أحمد (١٨٥٣٤)، وأبو داود (٤٧٥٣) وهو صحيح بمجموع طرقه.

قوله: (مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ)، أي معرفة الله (ﷻ) بالقلب معرفة تستلزم قبول ما شرعه والإذعان والانقياد له، وتحكيم شريعته التي جاء بها رسوله محمد (ﷺ)"[١]، ومعرفة الرب (ﷻ) تكون بما عَرَّفَنا به نفسه في كتابه، وعلى لسان رسوله (ﷺ) من أسمائه الحسنى وصفاته العليا، وما يجب له. وذلك يكون بأسباب منها:

الأول: التفكر في خلق الله (ﷻ)، أو النظر في آيات الله الكونية، والدليل على ذلك:

قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [سورة الغاشية:١٧].

وقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ ٱقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ ۖ فَبِأَىِّ حَدِيثٍۭ بَعْدَهُۥ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة الأعراف:١٨٥].

وقوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝٢٠ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [سورة الذاريات:٢٠-٢١].

(١) انظر شرح ثلاثة الأصول صـ١٩.

فالأمر كما قال الشاعر:

فيا عجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية تدل على أنَّه واحد

الثاني: النظر في الآيات الشرعية، في كتاب الله (ﷻ) وسنة رسوله (ﷺ)، وتدبر كلامه (ﷻ)، فإن الذي يتدبر القرآن حق التدبر، ويريد الهدى فإنه سيعرف ربه حق المعرفة قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء:٨٢].

وكما قال ابن القيم (رحمه الله) في النونية:

فتدبر القرآن إن رمت الهدى فالعلم تحت تدبر القرآن

لماذا عبر المؤلف (رحمه الله) عن هذا الأصل بلفظ المعرفة دون العلم؟ الجواب:

١- لأنَّ العلم قد لا يسبق بجهل، بينما المعرفة يسبقها جهل؛ عرف الشيء بعد أن كان جاهلا به، لكن العلم قد لا يسبقه جهل به، ولهذا يوصف الله (ﷻ) بالعلم، ولا يوصف بالمعرفة.

٢- أيضا يقال إن التعبير بالعلم أوجه في المواضع التي يُحتاج فيها إلى التعبير بالمعرفة وذلك لأن المعرفة أكثر ما جاءت في القرآن مذمومة؛ لأنه يتبع المعرفة الإنكار، أما العلم فأُتي به في القرآن ممدوحًا، قال (ﷻ) ﴿ٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَعۡرِفُونَهُۥ كَمَا يَعۡرِفُونَ أَبۡنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ فَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ [سورة الأنعام:٢٠]، فهنا وصفهم بالمعرفة ثمَّ بيَّن أنَّ معرفتهم تلك لم تنفعهم، وقال (ﷻ) ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [سورة النحل:٨٣]؛ لكن العلم أُثني عليه في القرآن، وأما المعرفة فربما بل أكثر المواضع فيها نوع ذم لها، لكن هذا ليس على إطلاقه، لأنه قد جاء في صحيح مسلم بن الحجاج (رحمه الله) تعالى في بعض طرق حديث ابن عباس (رضي الله عنه) الذي فيه إرسال معاذ إلى اليمن، أن النبي (ﷺ) قال له: **«فليكن أول ما تدعوهم إليه إلى أن يعرفوا الله فإن هم عرفوا الله فأخبرهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات»**(١) إلى آخره، فصارت المعرفة هنا بمعنى العلم بالتوحيد كما في الروايات الأخر، لكن التعبير بالمعرفة كما استعمله الشيخ (رحمه الله) تعالى هنا صحيح، وذلك لأنه قد ورد الاستعمال به، وإن كان أكثر ما جاء استعمال لفظ

---

(١) سبق تخريجه.

المعرفة في كونه مذموما"[١].

قوله: (وَدِينَهُ): وهذا الأصل الثاني، والمقصود بالدين هنا: دين الإسلام الخاص، لأن الإسلام عام وخاص.

الإسلام العام: هو الاستسلام لله (جل وعلا)، والانقياد لشرعه وهو دين جميع الأنبياء، وهو مبني على التَّوحيد والإخلاص، وإن اختلفت الشرائع.

أما الإسلام الخاص: فهو الذي نزل على نبينا محمد (ﷺ)، ولا يقبل من أحد دين سواه، لقوله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلۡإِسۡلَٰمُ**﴾ [سورة آل عمران:١٩]، وقوله تعالى: ﴿**وَمَن يَبۡتَغِ غَيۡرَ ٱلۡإِسۡلَٰمِ دِينٗا فَلَن يُقۡبَلَ مِنۡهُ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ**﴾ [سورة آل عمران:٨٥].

وقال (ﷺ): "**وَالذي نَفسُ مُحَمد بيَده، لَا يَسمَعُ بِي أَحَدٌ من هَذه الأُمة يَهُودي وَلَا نَصرَاني، ثُم يَمُوتُ، وَلَم يُؤمن بالذي أُرسلتُ به إلا كَانَ من أَصحَاب النار**" رواه مسلم[٢]، وهذا يعني أنَّ أيّ صاحب دين يعيش بعد البعثة النَّبوية إذا لم يؤمن بنبوة محمَّد (ﷺ) فإنَّه كافر، بشرط أن تكون الدَّعوة

(١) انظر: شرح ثلاثة الأصول للشيخ صالح آل الشيخ صـ٣٧.

(٢) أخرجه مسلم (١٥٣).

قد بلغته، ويستثنى من ذلك من عاش في جزيرة بعيدة لم يصل إليه الإسلام، ونحو ذلك.

قوله: (وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا (ﷺ))، هذا هو الأصل الثالث وهو معرفة العبد نبيه محمداً (ﷺ)، وهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، وهو من أشرف العرب نسبا وبيتا.

وإنَّما كان الإيمان به أصلاً من الأصول؛ لأنه الواسطة بين الرَّب (جل وعلا) وبين خلقه، فلا يمكن معرفة كيفية عبادة الله – (جل وعلا)– إلا عن طريق الرسول (ﷺ) وما كان عليه، ومعرفة سنته (ﷺ) قولًا وعملًا وتقريرًا ووصفًا، وهذا فيه رد على الصُّوفية الذين يقولون: معرفة الله بعدد أنفاس الخلائق، فعلى زعمهم كل شخص يستطيع أن يعبد ربه عزوجل بالطريقة التي تناسبه وإن لم يأت بها النبي (ﷺ)، وهذا مروق من الدين، وفيه إبطال للشرائع –والله أعلم–.

[الأصل الأول: معرفة العبد ربه]

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله):

(فَإِذَا قِيلَ لَكَ): مَنْ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الفاتحة:٢]، وكل ما سِوَى اللهِ عَالَمٌ و أَنَا وَاحِدٌ مِن ذَلِكَ الْعَالَمِ.

(فَإِذَا قِيلَ لَكَ): بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ؛ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [سورة فصلت:٣٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٥٤].

وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة البقرة: ٢١-٢٢].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ (رَحِمَهُ اللهُ): الخَالِقُ لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة[١].

الشـــــــرح

قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ): مَنْ رَبُّكَ؟ هذا استعمال من المؤلف رَحِمَهُ اللهُ بصيغة السؤال والجواب، وقد سبق بيان حسن هذه الطريقة، وأنَّها تستدعي من الطَّالب التَّشوف والانتباه والعناية، فبدأ هنا بالأصل الأول فقال: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟)، هذا هو السؤال الأول من مسائل القبر الثلاثة التي يسأل عنها كل إنسان، ومعناه: من خالقك ورازقك ومعبودك الذي ليس لك معبود سواه؟

فأجاب الإمام المجدد رَحِمَهُ اللهُ عن هذا السؤال بقوله: (فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾﴾ [سورة الفاتحة: ٢] وكل ما سِوَى

---

(١) ونص كلامه (رَحِمَهُ اللهُ): " وَمَضْمُونُهُ: أَنَّهُ الْخَالِقُ الرَّازِقُ مَالِكُ الدَّارِ، وَسَاكِنِيهَا، وَرَازِقُهُمْ، فَبِهَذَا يَسْتَحِقُّ أَنْ يُعْبَدَ وَحْدَهُ وَلَا يُشْرَك بِهِ غيره؛ وَلِهَذَا قَالَ: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾. انظر: تفسير ابن كثير ١/ ١٩٤.

اللهِ عَالَمٌ وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ) يعني فقل أيها المسؤول، **(رَبِّيَ اللهُ)**، أي خالقي ورازقي ومالكي وسيدي ومولاي ومعبودي هو الله (جَلَّ وَعَلَا) الذي لا تصرف العبادة لسواه، ومن المعلوم أنَّ السؤال في القبر يكون عن المعبود المألوه وليس عن الخالق، وإن كان السؤال ورد بلفظ الرَّب، فالمقصود به المعبود كما بين أهل العلم، يوضح ذلك أن المشركين كانوا يقرون بالربوبية كما سبق بيانه، لكنهم أشركوا في العبادة فلذلك كانت الخصومة فيه بينهم وبين الرسل.

قوله: (الَّذِي رَبَّانِي وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ)، التربية: من أفراد الربوبية، وفيها معنى رعاية الله (جَلَّ وَعَلَا) لخلقه والتدرج بإعدادهم وإمدادهم بما يحتاجون إليه من الرزق الجسدي؛ كالأكل والشرب، والمعنوي؛ كالإيمان والهداية ونحوهما، وهذا لا يقدر عليه إلا الله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى).

معنى التربية:

"تدرج المربِّى في مصاعد الكمال، وكل كمالٍ بحسبه، وأعظم أنواع التربية التي ربَّى الله (جَلَّ وَعَلَا) بها النَّاس أن بعث لهم الرُّسل يعلمونهم، ويرشدونهم إلى ما يقربهم إلى الله (جَلَّ وَعَلَا)، وهذه هي أعظم نعمة، قال (جَلَّ وَعَلَا) ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾

[سورة يونس:٥٨]؛ فأعظم النِّعم المسداة إرسال الرُّسل"[١].

قوله: (وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ)، العالمون: جمع عالم وهو كل ما سوى الله (سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى)، والعوالم كثيرة؛ كعالم الملائكة، وعالم الجن، والحيوان، والطير، والنبات، وعالم البحار وغير ذلك مما لا يحصيه إلا الذي خلقه سبحانه، (بنعمه): أي النعم الظاهرة والباطنة وهي لا تحصى، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة النحل:١٨].

قال: (وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ)، كما أنَّه (جَلَّ وَعَلَا) هو المتفرد بالخلق والرَّزق والتَّدبير وغيرها؛ فكذلك يجب أن يكون هو المستحقَّ وحده للعبادة والمتفرد بها دون سواه، وسبق بيان معنى العبادة وأنها تدور على المحبة مع التذلل والخضوع للمعبود.

قوله: (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الفاتحة:٢]، وكل ما سِوَى اللهِ عَالَمٌ وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ)، الله (جَلَّ وَعَلَا) قد افتتح خلقه بالحمد والثناء على نفسه (جَلَّ وَعَلَا) فقال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى

---

(١) انظر: شرح ثلاثة الأصول صـ٣٨.

خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [سورة الأنعام:١]، واختتم به فقال: ﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ۖ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الزمر:٧٥].

ومعنى الحمد: الثناء على المحمود بصفات الكمال مع المحبَّة والإجلال والتعظيم.

قوله: (الْحَمْدُ): الألف واللام هنا للاستغراق؛ أي استغراق أنواع الحمد، كل حمدٍ موجود، أو وجد، أو سيوجد.

والحمد معناه: الثناء بصفات الكمال على المحمود مع المحبة والتعظيم، فهذا الحمد وهو الثناء بصفات الكمال **(لله)**: واللام هنا للاستحقاق يعني مستحَقًّا لله (ﷻ).

فقوله: (الحمد لله): أي كل أنواع الحمد، وجميع أنواع المحامد مستحقة لله، لأن اللام هنا لام الاستحقاق، **واللام تأتي على معنيين:**

الأول: للملك، وهذا إذا كان ما قبلها من الأعيان، مثاله: إذا قلت الدار لفلان، الدار عين، فتكون اللام للملك أي الدار ملك لفلان.

الثاني: للاستحقاق، إذا كان ما قبلها من المعاني، مثاله: إذا قلت الفخر لفلان يعني الفخر يستحقه فلان، فقوله: (**الْحَمْدُ لله**)، والحمد معنى، لهذا صارت اللام بعده للاستحقاق، فكل حمد مستحق لله.

والله (جَلَّ وَعَلَا) يحمد على ربوبيته، ويحمد على ألوهيته، ويحمد على ما له من الأسماء الحسنى والصِّفات العلى، ويحمد (جَلَّ وَعَلَا) على أفعاله، ويحمد على شرعه وقدره.

قوله: (الحمد لله رب العالمين)، اشتملت على توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية؛ لأنَّ فيها الثناء على الله بالتعظيم، وفيها توحيد الأسماء والصفات لذكرها بعض الأسماء الحسنى وهي (الله، الرب)، وهذه الآية فيها أركان العبادة الثلاثة وهي: المحبة، والرجاء والخوف؛ فالذي يُثْنى عليه بصفات الكمال هو المحبوب، أمَّا الرَّجاء والخوف ففي الآيتين بعدها وهما: (الرَّحمن الرَّحيم) اشتملت على الرجاء، و(مالك يوم الدين) اشتملت على الخوف.

قال البغوي (رَحِمَهُ اللَّهُ): " (العالمين) جمع عالم، لا واحد له من لفظه، واختلفوا في (العالمين) قال ابن عباس: هم الجن والإنس لأنهم المكلفون بالخطاب قال الله تعالى: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [سورة الفرقان:١].

وقال قتادة ومجاهد والحسن: هم جميع المخلوقات قال الله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٣ قَالَ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ﴾ [سورة الشعراء:٢٣-٢٤]، واشتقاقه من العلم والعلامة؛ سموا به لظهور أثر الصنعة فيهم.

قال أبو عبيدة: هم أربع أمم: الملائكة، والإنس، والجن، والشياطين، مشتق من العلم، ولا يقال للبهائم عالم؛ لأنها لا تعقل"[١] هكذا قال وفيه نظر.

قوله: (وكل ما سِوَى اللهِ عَالَمٌ وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ)، سموا عالماً لأنهم عَلَمٌ على خالقهم ومالكهم ومدبرهم.

قوله: (فإذا قيل لك بما عرفت ربك)، المعرفة تطلق أحيانا ويراد بها العلم، وهي تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: معرفة إقرار. وهذه يشترك فيها البر والفاجر قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة لقمان:٢٥].

---

(١) انظر: تفسير البغوي ٥٢/١.

القسم الثاني: معرفة اعتبار توجب حب من عرفته والخوف منه والحياء منه[١].

قوله: (فَإِذَا قِيلَ لَكَ): بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ الجواب: **(فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ)،** هكذا أجاب المؤلف (رحمه الله)، وقد تقدم قريباً أدلة الربوبية، ومنها الأدلة على وجود الله (جل وعلا) كـدلالة العقل، ودلالة الفطرة، وإجماع الأمم، والمعجزات الباهرات، لكن الإمام هنا اقتصر على الأدلة المشاهدة العيانية.

قوله (فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ)، الآيات جمع آية وهي: العلامة والجمع (آي) و (آياي) و (آيات)[٢]، وهي العلامة على الشيء التي تدل عليه وتبينه.

فقوله: **(بِآيَاتِهِ)**، يعني العلامات والدلائل والبراهين، كما قال القائل:

فيا عجبا كيف يُعصى الإله ... أم كيف يجحده الجاحد
ولله في كل تحريكة ... وفي كل تسكينة شاهد
وفي كل شيء له آية ... تدل على أنه واحد

وقال آخر:

---

(١) انظر: الفوائد لابن القيم صـ١٧٠.

(٢) انظر: مختار الصحاح (صـ٢٧)، مادة: [أ ي ا].

تأمل في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك
عيون من لجين شاخصات بأبصار هي الذهب السبيك
على قضب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

وقال آخر:

تأمل سطور الكائنات فإنها من الملك الأعلى إليك رسائل
وقد خط فيها لو تأملت خطها ألا كل شيء ما خلا الله باطل

الآيات تنقسم إلى قسمين:

القسم الأول: الآيات الكونية، وهي المخلوقات كالشمس والقمر وغيرهما.

القسم الثاني: الآيات الشرعية، القرآن الكريم.

قال ابن القيم (رحمه الله): "وأحسن مَا أُنفقت فِيهِ الأَنفاس التفكر فِي آيَات الله وعجائب صنعه والانتقال مِنْهَا إِلَى تعلق الْقلب والهمة بِهِ دون شَيْء من مخلوقاته"(١).

قوله: (وَمَخْلُوقَاتِهِ)، المخلوقات: جمع مخلوق وهو بمعنى ما سبق من معني الآيات الكونية المخلوقة لكن لعله تفريع في العبارة.

قال المناوي: "الخلق: أصله التقدير المستقيم، ويستعمل في إبداع الشيء من غير أصل ولا اقتداء ومنه خلق السماوات، ويستعمل في إيجاد شيء من شيء نحو ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ [سورة النساء:١]، وليس الخلق الذي هو

(١) انظر: مفتاح دار السعادة (١/٢١٤).

الإبداع إلا لله وأما بالاستحالة فقد جعله الله لغيره أحيانا"(١).

قوله: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)، الليل من مخلوقات الله العظيمة؛ بل هو من أعظم آياته المشاهدة بالأبصار كما قال تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ﴾ [سورة يس:٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ﴾ [سورة الليل:١]؛ فأقسم (ﷻ) بـ: (اللَّيل) لِعِظَم المقْسَم به.

- **ومن فوائده العظيمة:**

١- أن الناس يسكنون فيه ويستريحون من أعمالهم.

٢- وفيه يتعبد المتعبدون بقيام الليل والتسبيح والاستغفار.

٣- وفي الليل تطوى الأرض للمسافر.

قوله: (وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ)، و(النهار) من آيات الله العظيمة قال تعالى: ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا﴾ [سورة الشمس:٣]، وقال تعالى: ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ [سورة الضحى:١]؛ فعندما يأتي النهار يمحو ظلمة الليل وفي

---

(١) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف (صـ٣٢٤).

النهار أعمال الناس وعبادتهم، قال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن جَعَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمُ ٱلنَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة القصص:٧٢-٧٣].

قوله: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾، (الشمس) أيضاً آية عظيمة من آيات الله في حجمها وآثارها، فهي جسم متوقد مشتعل يبث الدفء والحرارة والنور على الأرض، ولا يقدر قدرها إلا الله، وقد أقسم الله بها فقال: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [سورة الشمس:١]، ولو اقتربت الشمس من الأرض درجة لاحترق الناس والنبات، ولو ابتعدت درجة لصار كل من على الأرض متجمدًا.

و**(القمر)** ايضاً من مخلوقات الله العظيمة، وهو جسم معتم لكنه يضيء بانعكاس أشعة الشَّمس عليه، فهو يأتي في اللَّيل لينير للنَّاس؛ خاصَّة اللَّيالي التي يكون فيها مكتملاً.

والشَّمس والقمر يدوران في نظام بديع منذ أن خلقهما الله، لا أحد غير الله يقدر على أن يؤخِّرهما أو يقدمهما عن مكانهما أو وقتهما قال تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ۝٣٦ وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ۝٣٧ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٣٨ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ۝٣٩ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ﴾ [سورة يس:٣٦-٤٠]، وهذه الأمور التي ذكرناها يحتاج إليها طالب العلم في مجادلة المُلْحِدين في كل عصر، لأنَّها أمور مشاهدة لا تخفى.

مسألة: لماذا فرق المؤلف (رَحِمَهُ ٱللَّهُ) بين الآيات والمخلوقات؟

والجواب عنه كما قال الشيخ صالح آل الشيخ حفظه الله: "أنَّ الآيات تدل على معرفة الله والعلم بالله، وكذلك المخلوقات تدل على العلم بالله والمعرفة بالله، لكن ما سمّاه آيات أخص مما سمّاه مخلوقات، وتفريقه رعاية لحال من يُعَلَّم هذه الأصول"(١).

---

(١) انظر: شرح ثلاثة الأصول (صـ٤٢).

قوله: (وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا)، وهي من أعجب المخلوقات فقد رفعها الله (ﷻ) من غير عمد نراها، فضلا عن سعتها وارتفاعها، وقوة إحكامها وما فيها من النجوم المزهرات، والكواكب السَّيارات وهي من الآيات التي يغفل عنها أكثر الخلق لأنها مألوفة لديهم، وقد وجه تعالى الخلق للتأمل فيها فقال تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ﴾ [سورة آل عمران:١٩٠-١٩١].

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [سورة الرعد:٢].

وقال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة لقمان:١٠-١١].

قوله: (وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَمَا بَيْنَهُمَا)، والأرضون السَّبع وهي أيضاً آية عظيمة من آيات الله (جَلَّ وَعَلَا) وكثير من الناس في غفلة عنها؛ مع أنَّهم يسيرون عليها، ويدفنون فيها موتاهم، ويزرعونها ويأكلون ممَّا تخرج لهم بإذن ربِّها.

والدليل على أنَّ الأرضين سبع كالسماء:

أولاً من القرآن: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًۢا﴾ [سورة الطلاق:١٢].

ثانياً من السنة: ما جاء في الصحيحين من حديث أبي سلمة (رَضِيَ اللهُ عَنْهُ) أنه كانت بينه وبين أناس خصومة فذكر لعائشة (رَضِيَ اللهُ عَنْهَا)، فقالت: يا أبا سلمة اجتنب الأرض، فإن النبي (صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) قال: **«مَنْ ظَلَمَ قِيدَ شِبْرٍ مِنَ الأَرْضِ طُوِّقَهُ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»**(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٢٤٥٣)، ومسلم (١٦١٢).

وما أخرجه النسائي وغيره عن كَعْب الْأَحْبَارِ أنه قال: " والذي فلق البحر لموسى أنَّ صهيبًا حدثني أنَّ محمداً رسول الله (ﷺ) لم يكن يرى قرية يريد دخولها، إلا قال حين يراها: **«اللهُمَّ رَبَّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ، وَرَبَّ الْأَرْضِينَ السَّبْعِ وَمَا أَقْلَلْنَ، وَرَبَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ، وَرَبَّ الرِّيَاحِ وَمَا ذَرَيْنَ، فَإِنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هَذِهِ الْقَرْيَةِ وَخَيْرَ أَهْلِهَا، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا وَشَرِّ أَهْلِهَا وَشَرِّ مَا فِيهَا» وَحَلَفَ كَعْبٌ بِالَّذِي فَلَقَ الْبَحْرَ لِمُوسَى لَأَنَّهَا كَانَتْ دَعَوَاتِ دَاوُدَ** (ﷺ) **حِينَ يَرَى الْعَدُوَّ** "[1]، وقد اختلف العلماء قديمًا وحديثًا في تحديد هذه السَّبع وأين هي، والله أعلم بالصواب.

قال القرطبي (رحمه الله): "قوله تعالى: ﴿**ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ**﴾ [سورة الطلاق:١٢]، دلَّ على كمال قدرته، وأنَّه يقدر على البعث والمحاسبة، ولا خلاف في السَّماوات أنَّها سبع بعضها فوق بعض؛ دلَّ على ذلك حديث الإسراء وغيره. ثم قال: ﴿**وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّ**﴾ يعني سبعاً. واختلف فيهنَّ على قولين:

---

(١) أخرجه النسائي في الكبرى (٨٧٧٥)، وابن خزيمة في صحيحه (٢٥٦٥)، وابن حبان (٢٧٠٩)، والحاكم (١٦٣٤) وقال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

أحدهما: وهو قول الجمهور أنَّها سبع أرضين طباقاً بعضها فوق بعض، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السَّماء والسَّماء، وفي كل أرض سكان من خلق الله.

وقال الضحاك: ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ أي سبعاً من الأرضين، ولكنَّها مطبقة بعضها على بعض من غير فتوق بخلاف السَّماوات، والأول أصح"[١].

قوله: (وَمَا بَيْنَهُمَا)، أي من الهواء والسَّحاب والطير وغير ذلك، (وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [سورة فصلت:٣٧].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [سورة الأعراف:٥٤].

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القران (١٨/١٧٥-١٧٦).

قوله تعالى: ﴿لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، (لا) هنا: ناهية؛ فهما مخلوقان مأموران قال تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ [سورة فصلت:١١]؛ بل هما يسجدان لخالقهما كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ﴾ [سورة الرعد:١٥].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [سورة الحج:١٨].

قال الشيخ إسماعيل الدهلوي (رحمه الله): "فقد دلت هذه الآية على أن السجدة من أعظم شعائر العبادة، وهي مختصة بالخالق (جل وعلا)، فلا تجوز لمخلوق، وقد تساوى في هذه الصفة القمر والشمس، والنبي والولي، ومن قال

إنه قد جاز السجود في الأديان القديمة لبعض المخلوقات، ونقل ذلك بالخبر الصحيح، فصح سجود الملائكة لآدم، وسجود يعقوب ليوسف، فلا بأس أن نسجد لشيخ أو ولي، وهذا باطل، فقد جازت أشياء في الأديان السابقة، وحرمت في ديننا، وقد أبيح النكاح بالأخوات الشقيقات في عهد آدم، فهل يبيح هؤلاء المحتجون بهذه الدلائل أن يتزوج الإخوة أخواتهم؟ والأصل أن العبد مكلف بامتثال أمر ربه، فعليه أن يمتثل أمره عن رضا وطواعيةِ نفسٍ، لا يجد في نفسه حرجا مما أمر به، ولا يحاجّ ولا يتشبث بأمور الأولين وأخبارهم، لأن هذا يؤدي إلى الكفر، ومثل ذلك أن ملكا أصدر مرسوما في مملكته، وبقي هذا الأمر مدة، ثم نسخ، وأبدل بمرسوم آخر، فمن قال: إني سأظل متمسكا بالمرسوم الأول، ولا أقبل المرسوم الجديد، اعتبر خارجا على الملك محاربا له"[١].

لماذا خصَّ السُّجود للشَّمس والقمر في قوله تعالى: ﴿لَا تَسۡجُدُواْ لِلشَّمۡسِ وَلَا لِلۡقَمَرِ﴾؟ الجواب: لأنها من أعظم المخلوقات السماوية المشاهدة وكان الكفار يسجدون لها ولازال البعض من الوثنيين يفعل ذلك.

(١) انظر: رسالة التوحيد المسمى بـ تقوية الإيمان (صـ١٣٢، ١٣٣).

قال ابن كثير رحمه الله: قوله: ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ﴾؛ إنما ذكر هذه على التنصيص، لأنها قد عبدت من دون الله فبين أنَّها تسجد لخالقها وأنها مربوبة مسخرة، ﴿وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ﴾ [سورة فصلت:٣٧]، وفي الصحيحين من حديث أبي ذر (رضي الله عنه)، قال: قال النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) لأبي ذرٍ حين غربت الشمس: «أتدري أين تذهب؟»، قلت: الله ورسوله أعلم، قال: " **فَإِنَّهَا تَذْهَبُ حَتَّى تَسْجُدَ تَحْتَ العَرْشِ، فَتَسْتَأْذِنَ فَيُؤْذَنُ لَهَا وَيُوشِكُ أَنْ تَسْجُدَ، فَلاَ يُقْبَلَ مِنْهَا، وَتَسْتَأْذِنَ فَلاَ يُؤْذَنَ لَهَا يُقَالُ لَهَا: ارْجِعِي مِنْ حَيْثُ جِئْتِ، فَتَطْلُعُ مِنْ مَغْرِبِهَا، فَذَلِكَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [سورة يس:٣٨]** ...اهـ[١][٢].

قوله: (وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ)، هذا أمر بعد نهي، وإنما ذكر السجود؛ لأنه أشرف العبادات، ﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾، أي فلا تصرفوا العبادة لغيره.

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٩٩)، ومسلم (١٥٩).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ٥/٤٠٣.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [سورة الأعراف:٥٤].

قال ابن كثير (رحمه الله): "يخبر تعالى أنه خلق العالم سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد والإثنين والثلاثاء والأربعاء والخميس والجمعة وفيه اجتمع الخلق كله وفيه خلق آدم (عليه السلام)، واختلفوا في هذه الأيام هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان، أو كل يوم كألف سنة كما نص على ذلك مجاهد والإمام أحمد بن حنبل ويروى ذلك من رواية الضحاك عن ابن عباس، فأما يوم السبت فلم يقع فيه خلق لأنه اليوم السابع ومنه سمي السبت وهو القطع"(١).

وقد استدل المؤلف (رحمه الله) على أن الله (جل وعلا) خلق هذه المخلوقات العظيمة

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/٣٨٢).

وهي السماوات وما فيها والأرض وما فيها في ستة أيام ولو شاء لقال لها كن فكانت؛ ولكن في هذا من الفوائد تعليم التدرج في إتيان الأشياء وهذا فيه رد على المتسرعين والمطالبين بوجود الأشياء بدون إعداد الأسباب.

ثم قال (جل وعلا): ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾، المراد: علا وارتفع؛ كما جاء في البخاري عن أبي العالية ومجاهد[١].

فعقيدة أهل السنة والجماعة أن الله (جل وعلا) مستوٍ على عرشه بائن من خلقه، وقد ورد التصريح بالاستواء في القرآن في سبعة في مواضع، وكذلك ورد في السنة في مواضع شتى، وقد ذكر ابن أبي العز في شرح الطحاوية أنَّ العلو عليه أكثر من ألف دليل.

الأدلة على إثبات صفة الاستواء: ـ

قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا

(١) صحيح البخاري (٩/١٢٤).

وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأعراف:٥٤].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة يونس:٣].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ [سورة الرعد:٢].

وقوله تعالى: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [سورة طه:٥].

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [سورة الفرقان:٥٩].

وقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة السجدة:٤].

وقوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [سورة الحديد:٤].

قال ابن القيم (رَحِمَهُ اللَّهُ):

فلهم عبارات عليها أربع   قد حصلت للفارس الطعان

وهي استقر وقد علا وكذلك ار   تفع الذي ما فيه من نكران

وكذاك قد صعد الذي هو رابع   وأبو عبيدة صاحب الشيباني

يختار هذا القول في تفسيره   أدرى من الجهمي بالقرآن

وقد خالف في هذا المعطلة، ومنهم الأشاعرة، فيؤولون (الاستواء) بالاستيلاء، فيقولون في تأويل قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ أي: ثم استولى على العرش، وهذا معناه: أنَّ العرش كان مع غيره فغلبه الرَّب (جَلَّ وَعَلَا) واستولى عليه، والعياذ بالله تعالى، وهذا تأويل باطل ظاهر البطلان، ولهم على ذلك شبه مردود عليها في محلها، ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾، أي: يغطي الليل النهار، فإذا جاء الليل فإنَّه يمحو ضوء النهار، كما قال: ﴿وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ﴾ [سورة الليل:١].

وهذا من عظيم قدرته (ﷻ)، كما قيل: إذا جاء الليل فأين ذهب النهار.

﴿يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ أي: بسرعة فائقة، ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ﴾، أي: مذللات بأمره لمصلحة العباد، ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾، تقديم الجار والمجرور في قوله: (لَهُ) يدل على الاختصاص وأن الخلق والأمر جميعاً له وحده، والأمر يدخل فيه الأمر الشرعي والأمر الكوني، فثمَّ فرق بين (الأمر) و(الخلق) وهذه الآية من الأدلة القوية التي استدل بها الإمام أحمد رحمه الله على المعطلة والمعتزلة والجهمية على أن القرآن كلام الله غير مخلوق، ﴿تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، من البركة، ومعناها: بلغ من البركة نهايتها، والبركة: هي الخير الكثير، قال العلماء: هذا الاسم لا يجوز أن يطلق على غير الله (ﷻ)، وهذا التنبيه مهم؛ لأن بعض الناس يسمي نفسه، أو حانوته، أو ابنته: (تبارك)، كما هو الحاصل الآن في عدد من الأماكن، وهذا لا يجوز.

قال (رحمه الله): (والرب هو المعبود)، والدليل قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [سورة البقرة: ٢١-٢٢].

قال ابن كثير (رحمه الله) تعالى: الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة)، بدأ الإمام المجدد (رحمه الله) الكلام على توحيد العبادة أو الألوهية، فقوله: **(والرب هو المعبود)**، أي: أن الخالق الذي خلق ورزق هو الذي يستحق أن يعبد وحده دون ما سواه، فكما أنه المتفرد بالخلق فيجب أيضاً أن يفرد وحده بالعبادة، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل:١٧]، فتوحيد الربوبية يلزم منه توحيد العبودية، وتوحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية، **والدليل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ ﴾**، **هذا** خطاب لجميع الناس بعبادة الله وحده، أما توجهه للمؤمنين فهو أمر لهم بالمداومة عليها ؛لأنهم عبدوا ربهم، وأما توجهه لغيرهم فهي دعوة لهم لعبادته (سبحانه وتعالى).

قوله: ﴿ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، قال ابن عباس (رضي الله عنهما): أي: وحدوه.[1].

وقال ابن جرير (رحمه الله): أي: أفردوا الطاعة والعبادة لربكم دون سائر

---

(١) انظر: جامع البيان (٣٨٥/١).

خلقه.[١]، وهذا أول أمر في القرآن، وهو الأمر بالعبادة، كما أن أول فعل في سورة الفاتحة هو فعل العبادة في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ [سورة الفاتحة:٥].

والرب لغة: صِفةٌ مشبهَةٌ للموصوف بالرُّبُوبِيَّةِ، فعْله ربَّ يربُّ ربوبية، أو ربَّى يربِّي تربية.

والربُّ هو الذي يُربي غيرَه ويُنشئه شيئًا فشيئًا. ويُطْلَقُ على المالِك والسَّيِّد والمدَّبِّرِ والمُرَبِّي والقيِّم والمُنْعِم.

ولا يُطْلَقُ غيرَ مُضافٍ إلا على الله تعالى، وإذا أُطلقَ على غيرِه أُضِيفَ، كربِّ الإبل وربِّ الدارِ؛ أي: مالكها، ويُطلق أيضًا على السّيدِ المطاعِ، ومنه قولُه تعالى: ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾ [سورة يوسف:٤١]؛ أي: سيدَهُ المطاعَ، ويطلق الربُّ أيضًا على المعبودِ، ومنه قولُ الشاعر:

أَرَبٌّ يَبُولُ الثُّعْلُبَانِ بِرَأْسِهِ ... لقد ذَلَّ من بالتْ عليهِ الثَّعَالِبُ

---

(١) انظر: جامع البيان (١/٣٨٥).

قال ابنُ الأنباري (رحمه الله): "الرَّبُّ ينقسِمُ على ثلاثةِ أَقْسامٍ: يكونُ الرَّبُّ المالِكَ، ويكونُ الربُّ السِّيدَ المُطاعَ، قال الله تعالى: ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُۥ خَمْرًا﴾؛ أي: سَيِّدَهُ، ويكون الربُّ المُصلِحَ، ربَّ الشيءَ إذا أصلحَه"(١).

وقال الراغبُ (رحمه الله): "الربُّ في الأصلِ التربيةُ، وهو إنشاءُ الشَّيءِ حالًا فحالًا إلى حدِّ التَّمامِ"(٢).

قال الطبريُّ (رحمه الله): "فربنا جل ثناؤه السيد الذي لا شبه له، ولا مثل في سؤدده، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر"(٣).

وقال ابنُ الأثير (رحمه الله): "الرَّب يطلق في اللُّغة على المالك والسيد والمدبر والمربي والقيِّم والمُنعِم، ولا يطلق غير مضاف إلا على الله تعالى، وإذا أطلق على غيره أضيف، فيقال: رب كذا"(١).

---

(١) انظر: النهج الأسمى (١/ ٤١٠ – ٤١٨).

(٢) انظر: المفردات (صـ ١٨٤).

(٣) انظر: جامع البيان (١/١٤٣).

قال ابن كثير (رحمه الله): "والرب هو المالك المتصرف، ويطلق في اللغة على السَّيد وعلى المتصرف للإصلاح، وكل ذلك صحيح في حق الله تعالى، ولا يستعمل الرب لغير الله، بل بالإضافة، تقول: رب الدار، رب كذا، وأما الرب فلا يقال إلا لله (عز وجل)"(٢).

وقال السعدي (رحمه الله): "(الربُّ) هو المُرَبِّي جميع عباده بالتدبيرِ وأصنافِ النِّعَمِ، وأَخَصُّ مِن هذا: تربيتُه لأصْفيائِهِ بإصْلاحِ قلوبِهم وأرواحِهم وأخلاقِهم؛ ولهذا كَثُر دعاؤهم له بهذا الاسمِ الجليلِ، لأنهم يَطلبون منه هذه التربيةَ الخاصَّةَ"(٣).

قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ﴾ استدل بصفة الخلق هنا؛ لأنَّ المشركين كانوا يعترفون بها، قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [سورة العنكبوت:٦١]، ﴿وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، حتى لا يدعي مدَّع أن أباه هو الذي خلقه، أو أن جده هو الذي

=

(١) انظر: النهاية (١/ ١٧٩).

(٢) انظر: التفسير (١/ ٢٣).

(٣) تيسير الكريم الرحمن (٩٤٥).

خلق أباه، وهكذا، فلا أحد يقدر على ادِّعاء ذلك، ثمَّ قال ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، التقوى: هي أن تجعل بينك وبين عذاب الله وقاية، باتباع الأوامر، واجتناب النواهي، وقد سبق الكلام عليها.

قوله: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا﴾، اللام في (لكم): تدل على الاختصاص، أي: لبني آدم، ﴿فِرَٰشًا﴾، أي: ممهدة كالفراش، تستقرون عليها، وتمشون عليها، وتزرعونها بلا مشقة أو تعب، كالفراش الذي ينام الإنسان عليه، ﴿وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً﴾، أي: سقفا محفوظا فوقنا، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلسَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ ءَايَٰتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [سورة الأنبياء:٣٢]؛ ثم قال: ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾، أي: من السحاب، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ [سورة الرعد:١٢]، قال بعض العلماء: المتر المكعب الواحد من الماء الذي ينزل من السحاب يزن طنا كاملا، ﴿فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾، الماء واحد، والأرض واحدة، ومع ذلك تخرج أصناف مختلفة في الذوق، والطعم، واللون، والرائحة، والشكل، فسبحان الخلاق العليم، كما قال تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ

صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [سورة الرعد:٤].

ثم قال بعد ذلك: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾، وهذا أول نهي في القرآن، فكما أن أول أمر في القرآن هو الأمر بالعبادة؛ فكذلك أول نهي في القرآن هو النَّهي عن اتخاذ الشِّرك والنِّد والنَّظير.

والنِّد معناه: المثل والكفؤ والعديل، أي: المساوي.

قال ابن الجوزي (رَحِمَهُ ٱللَّهُ): وفيما أريد بالأنداد ها هنا قولان:

أحدهما: الأصنام، قاله ابن زيد.

والثاني: **رجال كانوا يطيعونهم في معصية الله**. قاله السُّدي(١).

ثمَّ ختم الآية بقوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، أي: تعلمون أنَّ بيده الخلق، والرِّزق، والتَّدبير، فلا ندَّ له، ولا شريك له في عبادته.

(١) انظر: زاد المسير (١/٤٣).

قوله: (قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ (رحمه الله) تَعَالَى: الخَالِقُ لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة)، (ابن كثير): هو الإمام إسماعيل بن عمر بن كثير، أبو الفداء، صاحب التفسير المشهور، توفي في سنة أربع وسبعين وسبعمائة هجرية، (الخالق لهذه الأشياء هو المستحق للعبادة)، هكذا ذكر المؤلف هذه العبارة بالمعنى، وعبارة ابن كثير: (أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنيها ورازقهم، فهذا يستحق أن يعبد وحده، ولا يشرك به غيره).

[أنواع العبادة التي أمر الله بها]

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله):

(وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ) الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ الإِسْلامِ وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ، وَمِنْهُ الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، والاستعاذة، والاستغاثة، والذَّبح، والنَّذر، وغير ذلك من الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا كُلُّهَا للهِ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾ [سورة الجن:١٨].

فَمَنْ صَرَفَ مِنْهَا شَيْئًا لِغَيْرِ اللهِ فَهُوَ مُشْرِكٌ كَافِرٌ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَا بُرْهَٰنَ لَهُۥ بِهِۦ فَإِنَّمَا حِسَابُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [سورة المؤمنون:١١٧].

وَفِي الْحَدِيثِ «الدُّعَاءُ مخ الْعِبَادَةِ»، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [سورة غافر:٦٠].

وَدَلِيلُ الْخَوْفِ قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة آل عمران:١٧٥].

ودليل الرجاء قوله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ [سورة الكهف: ١١٠].

ودَلِيلُ التَّوَكُّلِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [سورة المائدة:٢٣]، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [سورة الطلاق:٣].

وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالْخُشُوعِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ٩٠].

وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ قَوْلُهُ تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِى﴾ [سورة البقرة: ١٥٠].

وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ﴾ [سورة الزمر:٥٤] الآية.

وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة:٥]، وفي الحديث: «إذا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ».(١)

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦) وقال هذا حديث حسن صحيح.

وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الناس:١-٢].

وَدَلِيلُ الاسْتِغَاثَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [سورة الأنفال:٩] الآية.

ودليل الذبح قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأنعام:١٦٢]، وَمِنَ السُنَّةِ: «لعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ».(١).

وَدَلِيلُ النَّذْرِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [سورة الإنسان:٧].

الشَّــــــرح

قوله: (وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ الإِسْلامِ وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ، وَمِنْهُ الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، والاستعاذة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، وغير ذلك من الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَاللهُ بِهَا كُلُّهَا للهِ).

(١) أخرجه مسلم (١٩٧٨).

لما ذكر الإمام المجدد (رحمه الله) أنَّ الواجب علينا أن نعبد الله وحده لا شريك له؛ لأنَّه وحده تعالى هو المستحق للعبادة ذكر أفراد هذه العبادة، وحكم من صرف شيئاً منها لغير الله.

قوله: (وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ): العبادة في اللغة: التذلل والخضوع، يقال: بعير معبد، أي: مذلل، وطريق معبد: إذا كان مذللا قد وطئته الأقدام.

وشرعا:

قال شيخ الإسلام (رحمه الله): هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة[١].

قوله: (الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا)، سواء كان أمر إيجاب أو استحباب، لأَنَّ المندوب مأمورٌ به أيضاً لكن ليس على سبيل الحتم والإلزام.

قوله: (مِثْلُ الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ)، هذه مراتب الدين وأصوله، كما جاء في حديث جبريل (عليه السلام) أنَّه سأل النَّبي (صلى الله عليه وسلم) ما الإسلام؟ ثم قال: فأخبرني عن الإيمان ... ثم قال له: فأخبرني عن الإحسان ... ثم قال (صلى الله عليه وسلم):

(١) انظر: رسالة العبودة صـ٤٤.

(... **هذا جبريل أتاكم يعلمكم دينكم**). رواه مسلم[١]، فجعل النبي (ﷺ) هذه الثلاث هي الدين وذلك لأنها متضمنة للدين كله.

أولاً الإسلام:

الإسلام لغة: الانقياد والاستسلام والخضوع.

وشرعا: هو الاستسلام لله بالتوحيد والانقياد له بالطاعة والخلوص من الشرك ومعاداة أهله.

وهو ينقسم إلى قسمين: الإسلام العام، والإسلام الخاص.

الإسلام العام:

وهو الذي جاءت به كل الأنبياء بمعناه العام. وهو الانقياد لله (جل وعلا) والاستسلام له وإخلاص الدين لله. قال تعالى: ﴿۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِى وَتَذْكِيرِى بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَعَلَى ٱللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوٓاْ أَمْرَكُمْ وَشُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ ٱقْضُوٓاْ إِلَىَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِنْ

(١) صحيح مسلم (٨).

أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة يونس:٧١-٧٢].

وقال موسى (عليه السلام): ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ [سورة يونس:٨٤].

وقال يوسف (عليه السلام): ﴿۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِى مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِى مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة يوسف:١٠١].

وقال قبل ذلك يعقوب (عليه السلام): ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [سورة البقرة:١٣٢]، فهذا يدل على أنَّ دين الإسلام العام دين جميع الأنبياء، فجميع الأنبياء جاءوا بالتَّوحيد، والانقياد، والاستسلام لله؛ لكن اختلفت الشَّرائع كما جاء في الصَّحيح عن أبي هريرة (رضي الله عنه)، عن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أنه قال: «أَنَا أَوْلَى النَّاسِ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ» قَالُوا: كَيْفَ يَا

رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «الْأَنْبِيَاءُ إِخْوَةٌ مِنْ عَلَّاتٍ، وَأُمَّهَاتُهُمْ شَتَّى، وَدِينُهُمْ وَاحِدٌ، فَلَيْسَ بَيْنَنَا نَبِيٌّ» (١).

أما الإسلام بالمعنى الخاص:

فبعد بعثة النبي (ﷺ) يختص بما بُعِث به محمَّد (ﷺ)؛ لأنَّ ما بعث به (ﷺ) نسخ جميع الأديان السَّابقة. وسيأتي مزيد تفصيل في هذا حيث سيذكر المؤلف رحمه الله هذه المراتب بالتفصيل.

قوله: (وأن المساجد لله).

قال ابن الجوزي رحمه الله: "فيها أربعة أقوال:

أحدها: أنها المساجد التي هي بيوت للصّلوات، قاله ابن عباس. قال قتادة: كانت اليهود والنصارى إذا دخلوا كنائسهم وبِيَعَهُم أشركوا، فأمر الله (عز وجل) المسلمين أن يخلصوا له إذا دخلوا مساجدهم.

والثاني: الأعضاء التي يسجد عليها العبد، قاله سعيد بن جبير، وابن الأنباري، وذكره الفَرَّاء. فيكون المعنى، لا تسجدوا عليها لغيره.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٣٦٥).

والثالث: أن المراد بالمساجد هاهنا: البقاع كلُّها، قاله الحسن. فيكون المعنى: أن الأرض كلها مواضع للسّجود، فلا تسجدوا عليها لغير خالقها.

والرابع: أنّ المساجد: السجود، فإنها جمع مسجد. يقال: سجدت سجوداً، ومَسْجِداً، كما يقال: ضربت في الأرض ضرباً، ومَضْرِباً، ثم يجمع، فيقال: المسَاجِد، والمضارِب. قال ابن قتيبة: فعلى هذا يكون واحدها: مَسْجَداً، بفتح الجيم. والمعنى: أَخْلِصُوا له، ولا تسجدوا لغيره"(١).

فالمساجد تطلق: إمَّا على المساجد المبنية للصَّلاة، وإمَّا على أماكن السّجود من الأرض، وهي كل صعيد طاهر من الأرض، وإمَّا على مواضع السجود من العبد، أو على السّجود نفسه، فالسّجود لا يكون إلا لله تعالى فمن صرفه لغيره فهو مشرك.

قوله: ﴿فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا﴾: نكرة في سياق النَّهي، والقاعدة: (أن النكرة إذا جاءت في سياق النَّفي أو النَّهي أفادت العموم)(٢)، فدل على أنَّه لا يجوز للعبد أن يدعو مع الله أحداً سواء كان جليلاً أو حقيراً، كثيراً أم قليلاً.

---

(١) انظر: زاد المسير (٤/٣٤٩).

(٢)انظر: العقد المنظوم في الخصوص والعموم للقرافي (٢/٤١٨).

قوله: (فمن صرف منها شيئا لغير الله فهو مشرك كافر)، سبق الكلام على الفرق بين الشِّرك والكفر، ولكن حكمهما واحد وهو أنَّ المشرك والكافر عمله حابط، وهو مخلَّد في النَّار، والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء:٤٨].

مسألة: حكم إيقاع الكفر على الشخص المعين؟

وهذه مسألة كبيرة زلَّت فيها أقدام، وضلَّت فيها أفهام، فينبغي الحذر من الخوض فيها بغير علم، وذلك لقوله (عليه الصلاة والسلام): **«أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا»**(١)، وثبوت حكم التَّكفير للشَّخص المعيَّن لابدَّ فيه من توفر الشُّروط، وانتفاء الموانع.

أولاً: شروط التكفير: ـ

١- **العلم المنافي للجهل**، وذلك أنْ يكون الشَّخص عالمًا بأنَّ هذا الفعل مُكفِّر.

٢- **التَّكليف**، بأن يكون الشَّخص مكلفًا، أي: عاقلا بالغاً، فخرج بذلك الصَّبي والمجنون.

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠).

٣-الاختيار، بأن يأتي الشَّخص الفعل مختارًا لا مكرهاً الإكراهَ المُلْجِئ، أي: الذي يترتب عليه قتل أو حبس أو ضرب.

٤-القصد، أي أن يأتي المكلف بالمُكفِّر قاصدًا له، ليس مخطئًا ولا ناسيًا.

ثانياً: موانع التكفير إجمالا: ـ

١-**العذر بالجهل**؛ والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿**إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ**﴾ [سورة المائدة:١١٢]، فلم يكفِّرهم مع شكِّهم في الاستطاعة والقدرة لجهلهم.

ومن السُّنَّة:

- ما جاء في الصَّحيح عن رِبْعيِّ بن حراش، قال: قال عقبة لحذيفة: ألا تحدثنا ما سمعت من النبي (ﷺ)؟ قال: سمعته يقول "**إِنَّ رَجُلًا حَضَرَهُ المَوْتُ، لَمَّا أَيِسَ مِنَ الحَيَاةِ أَوْصَى أَهْلَهُ: إِذَا مُتُّ فَاجْمَعُوا لِي حَطَبًا كَثِيرًا، ثُمَّ أَوْرُوا نَارًا، حَتَّى إِذَا أَكَلَتْ لَحْمِي، وَخَلَصَتْ إِلَى عَظْمِي، فَخُذُوهَا فَاطْحَنُوهَا فَذَرُّونِي فِي**

اليَمِّ فِي يَوْمٍ حَارٍّ، أَوْ رَاحٍ، فَجَمَعَهُ اللهُ فَقَالَ لِمَ فَعَلْتَ؟ قَالَ: خَشْيَتَكَ، فَغَفَرَ لَهُ»[١].

- ومنها ما أخرجه الترمذي من حديث أبي واقد اللَّيثيّ (رضي الله عنه): "أَنَّ رَسُولَ اللهِ (صلى الله عليه وسلم) لَمَّا خَرَجَ إِلَى حُنَيْنٍ مَرَّ بِشَجَرَةٍ لِلْمُشْرِكِينَ يُقَالُ لَهَا: ذَاتُ أَنْوَاطٍ يُعَلِّقُونَ عَلَيْهَا أَسْلِحَتَهُمْ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، اجْعَلْ لَنَا ذَاتَ أَنْوَاطٍ كَمَا لَهُمْ ذَاتُ أَنْوَاطٍ، فَقَالَ النَّبِيُّ (صلى الله عليه وسلم): سُبْحَانَ اللهِ هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ"[٢]، فلم يكفِّرهم، وإنما عذرهم بالجهل لحداثة عهدهم بالإسلام، ولم يعذرهم في الإنكار عليهم.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) نصوص كثيرة تدل على العذر بالجهل، وأيضاً لشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله) نصوص كثيرة تدل على العذر بالجهل منها قوله لما اتَّهموه بالتَّكفير بالجملة أو على العموم قال: "وإذا كنا لا نكفِّر من عبد الصَّنم على قبر عبد القادر، والصَّنم على قبر أحمد البدوي

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٧٩).

(٢) أخرجه الترمذي (٢١٨٠) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وأمثالهما لأجل جهلهم وعدم من ينبِّههم، فكيف نُكفِّر من لم يشرك بالله أو لم يهاجر إلينا ولم يكفر ويقاتل ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة النور:١٦].(١)

وقد أملى الشيخ ابن عثيمين (رحمه الله) على طلابه نصوصاً عديدةً لشيخ الإسلام ابن تيمية، وشيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (رحمهما الله) ثم قال: وأنا أستغرب كيف تعذرون بالجهل في أمور العبادات وتستعجبون من العذر بالجهل في أمور الاعتقادات. انتهى بمعناه من شرحه على صحيح البخاري.

٢- **التأويل**؛ فإذا أتى العبد شيئاً من المكفرات متأولاً؛ فإنَّه لا يكفر، كمن استحل شرب الخمر معتقداً أنَّها تجوز للذين آمنوا بعد عملهم الصَّالحات لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة المائدة:٩٣]، فقد فهم منها أحد الصَّحابة وهو قدامة بن مظعون ومن معه أنَّه لا بأس بشرب الخمر لمن آمن وأحسن، وذلك في خلافة عمر (رضي الله عنه) فأمر عمر بالإتيان به وبمن معه، فلما سأله عن شرب الخمر أجاب بالآية، فقال له عمر: لو آمنت واتقيت ما

(١) انظر: مجموع مؤلفات الشيخ ٣/١١، الدرر السنية ١/٦٦.

شربتها، وأمر بهم فجلدوا حدَّ الشَّارب، ولم يكفِّرهم لاستحلالهم شرب الخمر تأويلا.

٣ - **الإكراه**؛ فمن أكره على قول كلمة الكفر وقلبه مؤمن فلا يكفر، لقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [سورة النحل:١٠٦].

٤ - **الخطأ والنسيان**؛ فمن فعل مُكَفِّراً خطأً لا يكفر؛ كما في قصة الرَّجل الذي فقد دابَّته وعليها طعامه وشرابه وأيس من الموت، ثم وجدها؛ ففرح وقال من شِدَّة فرحه: "**اللهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ، أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ** "(١).

وقد سئل الشيخ ابن عثيمين (رحمه الله): عن العذر بالجهل فيما يتعلق بالعقيدة:

فأجاب بقوله: الاختلاف في مسألة العذر بالجهل كغيره من الاختلافات الفقهية الاجتهادية، وربما يكون اختلافًا لفظيًا في بعض الأحيان من أجل تطبيق الحكم على الشَّخص المعيَّن، أي إنَّ الجميع يتفقون على أنَّ هذا القول

(١) أخرجه مسلم (٢٧٤٧).

كفر، أو هذا الفعل كفر، أو هذا الترك كفر، ولكن هل يصدق الحكم على هذا الشَّخص المعيَّن لقيام المقتضى في حقه وانتفاء المانع أو لا ينطبق لفوات بعض المقتضيات، أو وجود بعض الموانع.

وذلك أن الجهل بالمكفِّر على نوعين:

النوع الأول: أن يكون من شخص يدين بغير الإسلام أو لا يدين بشيء ولم يكن يخطر بباله أنَّ دينًا يخالف ما هو عليه فهذا تجري عليه أحكام الظَّاهر في الدنيا، وأما في الآخرة فأمره إلى الله -تعالى -، والقول الراجح أنَّه يمتحن في الآخرة بما يشاء الله (ﷻ) والله أعلم بما كانوا عاملين، لكنَّنا نعلم أنَّه لن يدخل النَّار إلا بذنب لقوله تعالى: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [سورة الكهف:٤٩]، وإنما قلنا: تجرى عليه أحكام الظَّاهر في الدنيا وهي أحكام الكفر؛ لأنَّه لا يدين بالإسلام فلا يمكن أن يعطى حكمه، وإنما قلنا بأنَّ الرَّاجح أنه يمتحن في الآخرة؛ لأنَّه جاء في ذلك آثار كثيرة ذكرها ابن القيِّم (رحمه الله) في كتابه "طريق الهجرتين" عند كلامه على المذهب الثَّامن في أطفال المشركين تحت الكلام على الطَّبقة الرابعة عشرة.

النوع الثاني: أن يكون من شخص يدين بالإسلام ولكنَّه عاش على هذا المكفِّر ولم يكن يخطر بباله أنه مخالف للإسلام، ولا نبَّهه أحد على ذلك فهذا

تجري عليه أحكام الإسلام ظاهرًا، أما في الآخرة فأمره إلى الله (ﷻ) وقد دل على ذلك الكتاب، والسنة، وأقوال أهل العلم.

فمن أدلة الكتاب:

قوله - تعالى -: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء:١٥].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا ۚ وَمَا كُنَّا مُهْلِكِى ٱلْقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾ [سورة القصص:٥٩].

وقوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [سورة النساء:١٦٥].

وقوله: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ﴾ [سورة إبراهيم:٤].

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾[سورة التوبة:١١٥].

وقوله: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ﴾ [سورة الأنعام:١٥٥-١٥٧]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أنَّ الحجَّة لا تقوم إلا بعد العلم والبيان.

وأما السُّنَّة: ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة (رضي الله عنه) **«أنَّ النَّبي (صلى الله عليه وسلم)، قال: "والذي نفس محمَّد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة -يعني أمة الدعوة - يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار»**[1].

وأما كلام أهل العلم:

فقال في المغني (٨/ ١٣١): " فإن كان ممن لا يعرف الوجوب كحديث الإسلام، والناشئ بغير دار الإسلام، أو بادية بعيدة عن الأمصار وأهل العلم لم يحكم بكفره".

---

(١) أخرجه مسلم (١٥٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية في الفتاوى (٣/ ٢٢٩) مجموع ابن قاسم: "إني دائمًا -ومن جالسني يعلم ذلك مني -من أعظم الناس نهيًا عن أن ينسب معين إلى تكفير، وتفسيق، ومعصية إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرِّسالية التي من خالفها كان كافرًا تارة، وفاسقًا أخرى، وعاصيًا أخرى.

وإني أقرر أن الله تعالى قد غفر لهذه الأمة خطأها، وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية، والمسائل العملية، وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل، ولم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر، ولا بفسق، ولا بمعصية... **إلى أن قال**: وكنت أبين أن ما نقل عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهو أيضًا حق لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين... **إلى أن قال**: والتكفير هو من الوعيد فإنه وإن كان القول تكذيبًا لما قاله الرسول، (ﷺ)، لكن الرجل قد يكون حديث عهد بإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة، ومثل هذا لا يكفر بجحد ما يجحده حتى تقوم عليه الحجة، وقد يكون الرجل لم يسمع تلك النصوص أو سمعها ولم تثبت عنده، أو عارضها عنده معارض آخر أوجب تأويلها وإن كان مخطئًا" اهـ.

وقال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب (١ / ٥٦) من الدرر السنية: "وأما التكفير فأنا أكفر من عرف دين الرسول، ثم بعدما عرفه سبَّه، ونهى الناس عنه، وعادى من فعله فهذا هو الذي أكفره".

وفي صـ (٦٦): " وأما الكذب والبهتان فقولهم: إنا نكفر بالعموم ونوجب الهجرة إلينا على من قدر على إظهار دينه، فكل هذا من الكذب والبهتان الذي يصدون به الناس عن دين الله ورسوله، وإذا كنا لا نكفر من عبد الصنم الذي على عبد القادر، والصنم الذي على أحمد البدوي وأمثالهما لأجل جهلهم وعدم من ينبههم؛ فكيف نُكَفِّر من لم يشرك بالله إذا لم يهاجر إلينا ولم يُكَفِّرْ ويقاتل" اهـ.

وإذا كان هذا مقتضى نصوص الكتاب، والسنة، وكلام أهل العلم فهو مقتضى حكمة الله -تعالى-، ولطفه، ورأفته، فلن يعذب أحدًا حتى يعذر إليه، والعقول لا تستقل بمعرفة ما يجب لله -تعالى- من الحقوق، ولو كانت تستقل بذلك لم تتوقف الحجة على إرسال الرسل.

فالأصل فيمن ينتسب للإسلام بقاء إسلامه حتى يتحقق زوال ذلك عنه بمقتضى الدليل الشرعي، ولا يجوز التساهل في تكفيره لأن في ذلك محذورين عظيمين:

أحدهما: افتراء الكذب على الله - تعالى - في الحكم، وعلى المحكوم عليه في الوصف الذي نبزه به.

أما الأول فواضح حيث حكم بالكفر على من لم يكفره الله -تعالى - فهو كمن حرم ما أحل الله؛ لأن الحكم بالتكفير أو عدمه إلى الله وحده كالحكم بالتحريم أو عدمه.

وأما الثاني فلأنه وصف المسلم بوصف مضاد، فقال: إنه كافر، مع أنه بريء من ذلك، وحري به أن يعود وصف الكفر عليه لما ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) «أن النبي، (ﷺ)، قال: "**إذا كفر الرجل أخاه فقد باء بها أحدهما**»[١]، وفي رواية: «**إن كان كما قال وإلا رجعت عليه**»[٢].

وله من حديث أبي ذر (رضي الله عنه) أن النبي، (ﷺ)، قال: «**ومن دعا رجلًا بالكفر، أو قال: عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه**».[٣] يعني رجع عليه.

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٤) ومسلم (١١١) عن ابن عمر، وعند البخاري (٦١٠٣) ومسلم (٦٠) عن أبي هريرة (رضي الله عنه): " إذا قال لأخيه: يا كافر ... " الحديث، وعند البخاري برقم (٦١٠٥) عن ثابت بن الضحاك أن رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: " من رَمَى مؤمناً بكفرٍ؛ فهو كقتله ".

(٢) هذا لفظ مسلم.

(٣) أخرجه مسلم (٦١).

وقوله في حديث ابن عمر: **«إن كان كما قال»** يعني في حكم الله - تعالى -.
وكذلك قوله في حديث أبي ذر: "**وليس كذلك**" يعني في حكم الله تعالى.

وهذا هو المحذور الثاني أعني عود وصف الكفر عليه إن كان أخوه بريئًا منه، وهو محذور عظيم يوشك أن يقع به؛ لأن الغالب أنَّ من تسرع بوصف المسلم بالكفر كان معجبًا بعمله محتقرًا لغيره فيكون جامعًا بين الإعجاب بعمله الذي قد يؤدي إلى حبوطه، وبين الكبر الموجب لعذاب الله تعالى في النار كما جاء في الحديث الذي أخرجه أحمد وأبو داود عن أبي هريرة -رضي الله عنه- «أن النبي (ﷺ)، قال: "**قال الله (عز وجل): الكبرياء ردائي، والعظمة إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفته في النار**»[1].

فالواجب قبل الحكم بالتكفير أن ينظر في أمرين:

الأمر الأول: دلالة الكتاب والسنة على أنَّ هذا مكفر لئلا يفتري على الله الكذب.

الثاني: انطباق الحكم على الشخص المعين بحيث تتم شروط التَّكفير في حقه، وتنتفي الموانع.

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٩٠)، وابن ماجة (٤١٧٤) وصححه الألباني.

ومن أهم الشروط أن يكون عالمًا بمخالفته التي أوجبت كفره لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [سورة النساء:١١٥]، فاشترط للعقوبة بالنار أن تكون المشاقة للرسول من بعد أن يتبين الهدى له، ولكن هل يشترط أن يكون عالمًا بما يترتب على مخالفته من كفر أو غيره أو يكفي أن يكون عالمًا بالمخالفة وإن كان جاهلًا بما يترتب عليها؟ الجواب: الظاهر الثاني؛ أي إن مجرد علمه بالمخالفة كاف في الحكم بما تقتضيه؛ لأن النبي (ﷺ)، أوجب الكفارة على المجامع في نهار رمضان لعلمه بالمخالفة مع جهله بالكفارة؛ ولأن الزاني المحصن العالم بتحريم الزنى يرجم وإن كان جاهلًا بما يترتب على زناه، وربما لو كان عالمًا ما زنى.

ومن الموانع: أن يُكره على المُكفِّر، لقوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرًا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾ [سورة النحل:١٠٦].

ومن الموانع: أنْ يُغْلَق عليه فكره وقصده بحيث لا يدري ما يقول لشدّة فرح، أو حزن، أو غضب، أو خوف، ونحو ذلك، لقوله تعالى: ﴿وَلَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ

جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة الأحزاب:٥].

وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك (رضي الله عنه) «أن النبي (صلى الله عليه وسلم)، قال: "**لله أشد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة فاضطجع في ظلها قد» «أيس من راحلته، فبينما هو كذلك إذا بها قائمة عنده، فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي، وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح»**[1].

ومن الموانع أيضًا: أن يكون له شبهة تأويل في المكفِّر بحيث يظن أنه على حق؛ لأن هذا لم يتعمد الإثم والمخالفة فيكون داخلًا في قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾ [سورة الأحزاب:٥]؛ ولأنَّ هذا غاية جهده فيكون داخلًا في قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [سورة البقرة:٢٨٦].

---

(١) سبق تخريجه.

قال في المغني (٨/ ١٣١): "وإن استحل قتل المعصومين وأخذ أموالهم بغير شبهة ولا تأويل فكذلك -يعني يكون كافرًا - وإن كان بتأويل كالخوارج فقد ذكرنا أن أكثر الفقهاء لم يحكموا بكفرهم مع استحلالهم دماء المسلمين، وأموالهم، وفعلهم ذلك متقربين به إلى الله تعالى... **إلى أن قال**: وقد عرف من مذهب الخوارج تكفير كثير من الصحابة ومن بعدهم واستحلال دمائهم، وأموالهم، واعتقادهم التقرب بقتلهم إلى ربهم، ومع هذا لم يحكم الفقهاء بكفرهم لتأويلهم، وكذلك يخرج في كل محرم استحل بتأويل مثل هذا".

وفي فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية (١٣ / ٣٠) مجموع ابن قاسم: "وبدعة الخوارج إنما هي من سوء فهمهم للقرآن، لم يقصدوا معارضته، لكن فهموا منه ما لم يدل عليه، فظنوا أنه يوجب تكفير أرباب الذنوب".

وفي صـ (٢١٠) منه "فإنَّ الخوارج خالفوا السنة التي أمر القرآن باتباعها، وكفروا المؤمنين الذين أمر القرآن بموالاتهم، وصاروا يتبعون المتشابه من القرآن فيتأولونه على غير تأويله من غير معرفة منهم بمعناه ولا رسوخ في العلم، ولا اتباع للسنة، ولا مراجعة لجماعة المسلمين الذين يفهمون القرآن".

وقال أيضًا (٢٨/ ٥١٨) من المجموع المذكور: "فإنَّ الأئمة متفقون على ذم الخوارج وتضليلهم، وإنما تنازعوا في تكفيرهم على قولين مشهورين". لكنه

ذكر في (٧/ ٢١٧) "أنه لم يكن في الصحابة من يكفرهم لا علي بن أبي طالب ولا غيره، بل حكموا فيهم بحكمهم في المسلمين الظالمين المعتدين كما ذكرت الآثار عنهم بذلك في غير هذا الموضع".

وفي (٢٨/ ٥١٨): "أن هذا هو المنصوص عن الأئمة كأحمد وغيره".

وفي (٣/ ٢٨٢) قال: " والخوارج المارقون الذين أمر النبي، (ﷺ)، بقتالهم قاتلهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب أحد الخلفاء الراشدين، واتفق على قتالهم أئمة الدين من الصحابة والتابعين، ومن بعدهم، ولم يكفرهم علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وغيرهما من الصحابة، بل جعلوهم مسلمين مع قتالهم، ولم يقاتلهم علي حتى سفكوا الدم الحرام، وأغاروا على أموال المسلمين؛ فقاتلهم لدفع ظلمهم وبغيهم؛ لا لأنَّهم كفار. ولهذا لم يَسْبِ حريمهم، ولم يغنم أموالهم، وإذا كان هؤلاء الذي ثبت ضلالهم بالنص، والإجماع، لم يكفروا مع أمر الله ورسوله (ﷺ) بقتالهم؛ فكيف بالطوائف المختلفين الذين اشتبه عليهم الحق في مسائل غلط فيها من هو أعلم منهم، فلا يحل لأحد من هذه الطوائف أن يكفر الأخرى، ولا تستحل دمها ومالها، وإن كانت فيها بدعة محققة، فكيف إذا كانت المكفرة لها مبتدعة أيضًا، وقد تكون بدعة هؤلاء أغلظ، والغالب أنهم جميعًا جهال بحقائق ما يختلفون فيه". إلى أن قال: "وإذا كان المسلم متأولًا في القتال أو التكفير؛ لم يكفر بذلك".

إلى أن قال في صـ (٢٨٨): "وقد اختلف العلماء في خطاب الله ورسوله هل يثبت حكمه في حق العبيد قبل البلاغ على ثلاثة أقوال في مذهب أحمد وغيره.. والصحيح ما دل عليه القرآن في قوله -تعالى -: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [سورة الإسراء:١٥]، وقوله: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [سورة النساء:١٦٥].

وفي الصحيحين عن النَّبي (ﷺ): «**ما أحد أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين**»[(١)].

والحاصل أنَّ الجاهل معذور بما يقوله أو يفعله مما يكون كفرًا، كما يكون معذورًا بما يقوله أو يفعله مما يكون فسقًا، وذلك بالأدلة من الكتاب والسنة، والاعتبار، وأقوال أهل العلم. اهـ[(٢)].

(١) أخرجه البخاري (٧٤١٦)، ومسلم (١٤٩٩).

(٢) انظر: مجموع فتاوى ورسائل ابن عثيمين (٢/١٣٠-١٣٨).

قال الإمام المجدد رحمه الله:

(و أنواع العبادة التي أمر الله بها مثل الإسلام، والإيمان، والإحسان، ومنه الدعاء، والخوف، والرجاء، والتوكل، والرغبة، والرهبة، والخشوع، والخشية، والإنابة، والاستعانة، والاستعاذة، والاستغاثة، والذبح، والنذر، وغير ذلك من أنواع العبادة التي أمر الله بها كلها الله تعالى).

ذكر الإمام المجدد (رحمه الله) هنا أنواعاً من العبادات بأدلتها وهي أربعة عشر نوعًا:

النوع الأول من أنواع العبادات:

الدّعاء.

الدُّعاء لغة:

قال ابن منظور: "دعا الرجلَ دعوًا ودعاءً: ناداه. والاسم: الدعوة. ودعوت فلانًا: أي صِحت به واستدعيته"(١).

الدُّعاء شرعًا:

عرِّف بعدة تعريفات منها: -

(١) انظر: لسان العرب مادة (د ع و).

قال الخطابي: "معنى الدعاء استدعاءُ العبدِ ربَّه (ﷻ) العنايةَ، واستمدادُه منه المعونةَ. وحقيقته: إظهار الافتقار إلى الله تعالى، والتبرُّؤ من الحول والقوّة، وهو سمةُ العبودية، واستشعارُ الذلَّة البشريَّة، وفيه معنى الثناء على الله (ﷻ)، وإضافة الجود والكرم إليه"[١].

وقال ابن منظور: "هو الرغبة إلى الله (ﷻ)"[٢]، وقيل هو: سؤال العبد ربه على وجه الابتهال، وقد يطلق على التقديس، والتحميد ونحوهما[٣].

أنواع الدُّعاء:

١-**دعاء المسألة:** وهو أن يسأل العبد ربه حاجاته كالرزق والسَّلامة والعافية ونحوها، وهو محمود، وفي الحديث: "من لم يسأل الله غضب عليه"[٤]، وذلك لأنه يتضمن اعتراف العبد لربه بالغنى، والقدرة، والسَّمع، والبصر، والكلام، والرَّحمة، والفضل، والجود، والكرم، وغير ذلك.

---

(١) انظر: شأن الدعاء صـ٤.

(٢) انظر: لسان العرب مادة (د ع و).

(٣) انظر: القاموس الفقهي لغة واصطلاحاً صـ ١٣١.

(٤) أخرجه الترمذي (٣٣٧٣)، وابن ماجة (٣٨٢٧)، وحسنه الألباني.

٢-**دعاء العبادة**: بأن يتعبد المسلم لربه بالعبادات المتنوعة، كالصلاة، وتلاوة القرآن طلبا للأجر والثواب، ولسان حاله يقول: يا رب عبدتك فأعطني، وأدخلني الجنة، وأجرني من النار.

واستدل المؤلف على أن الدعاء من العبادة بقوله: (الدعاء مخ العبادة)(١)، وهذا الحديث بهذا اللفظ ضعيف، رواه الترمذي وقال: حديث غريب من هذا الوجه.

وقد صح الحديث عند الترمذي، وأحمد، وغيرهما من حيث النعمان بن بشير (رضي الله عنه) عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: «**الدُّعَاءُ هُوَ العِبَادَةُ» ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِي سَيَدۡخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾** [سورة غافر: ٦٠]، أي: ذليلين، فدل هذا على أن الدعاء من العبادة بل هو أجلها، كما جاء في الحديث: "**الحج عرفة**"(٢)، فحصر المبتدأ في الخبر يدل على ركنيته، وأنه أعظم أركانه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٣٧١)، وقال: هذا حديث غريب من هذا الوجه لا نعرفه إلا من حديث ابن لهيعة.

(٢) أخرجه الترمذي (٢٩٧٥)، وابن ماجة (٣٠١٥) وقال الترمذي: «هذا حديث حسن صحيح»

فلهذا لا يجوز للمسلم أن يدعو غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، كطلب الولد، وطول العمر، والرزق، ونحو ذلك، فمن فعل ذلك فقد أشرك مع الله غيره، كمن يدعون البدوي، والحسين، والدسوقي، والجيلاني، وقد جعلوهم شركاء مع الله (ﷻ).

فالميت المسلم يحتاج إلى أن ندعو الله له ولا ندعوه هو، وهذه مسألة عمت بها البلوى في بلاد المسلمين فلذلك وجب التنبيه عليها، والله المستعان.

النوع الثاني من أنواع العبادات:

الخوف

الخوف لغة:

قال ابن فارس: " الخاء والواو والفاء أصل واحد يدل على الذعر والفزع. يقال خفت الشيء خوفا وخيفة"[١].

وشرعاً:

قال المناوي رحمه الله: " توقع مكروه أو فوت محبوب، ذكره ابن الكمال"[٢].

وقد عرفه ابن عثيمين (رحمه الله) فقال: "الخوف هو الذعر وهو انفعال يحصل بتوقع ما فيه هلاك أو ضررٌ أو أذى، وقد نهى الله (سبحانه وتعالى) عن خوف أولياء الشيطان وأمر بخوفه وحده"[٣].

---

(١) انظر: مقاييس اللغة (٢/٢٣٠) مادة: (خوف).

(٢) انظر: التوقيف إلى مهمات التعاريف صـ١٦١.

(٣) انظر: شرح ثلاثة الأصول صـ٥٦.

والخوف على أنواع:

النوع الأول: الخوف الشَّرعي: وهو الخوف من الله تعالى، وهو خوف العبادة، وهذا لا يكون إلا لله، وصرفه لغير الله شرك أكبر، يدل على هذا قوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ**﴾ [سورة آل عمران:١٧٥]، والخوف من الله يكون محمودًا إذا كان يحمل العبد على فعل الطاعة وترك المعصية، ويكون مذمومًا إذا كان يحمل العبد على اليأس والقنوط من رحمة الله.

النوع الثاني: الخوف الشِّركي: ويسمى خوف السِّر، كأن يخاف من صاحب القبر، والولي الميت، أو البعيد عنه أن يؤذيه، فهذا من خوف السر.

النوع الثالث: الخوف الطبيعي أو الطبعي: كالخوف من النار والأسد ونحوهما، فهذا لا يلام عليه العبد إلا إذا تسبب في ترك واجب، كخوفه من الذهاب لصلاة الجماعة -مثلا-، أو تسبب في فعل محرم.

قال تعالى عن نبيه موسى لما رأى العصا تنقلب إلى حية: ﴿**فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ**﴾ [سورة طه:٦٧].

وقال عنه أيضا لما قتل القبطي: ﴿فَأَصْبَحَ فِي ٱلْمَدِينَةِ خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [سورة القصص:١٨]، وهو من أولي العزم من الرسل، فدل على أن الخوف الطبيعي لا يلام عليه العبد.

النوع الثالث من أنواع العبادة:

الرَّجاء

الرجاء لغة:

الرجاء في الأصل يدل على الأمل الذي هو نقيض اليأس. يقال رجوت الأمر أرجوه رجاء. ثم يتسع في ذلك، فربما عبر عن الخوف بالرجاء قال الله تعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [سورة نوح:١٣]، أي لا تخافون له عظمة"(١).

وفي الاصطلاح:

عرف بتعريفات عدة منها: -

- هو: تأمُّل الخير وقرب وقوعه.
- ومنها: النظر إلى سعة رحمة الله، قاله ابن القيم.
- وقيل: هو الاستبشار بجود وفضل الرَّبِّ (ﷻ) والارتياح لمطالعة كرمه.
- وقيل: هو الثقة بجود الرَّبِّ تعالى.

(١) انظر: مقاييس اللغة (٢/٤٩٤)، مادة: (رجى).

والمقصود به هنا: الرَّجاء المتضمن للذلِّ والخضوع لله تعالى، والذي يكون معه عمل وتوبة، فالرَّجاء بلا عمل أمانٍ كاذبة مذمومة، قال تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [سورة الكهف: ١١٠].

أنواع الرجاء:

الرجاء على نوعين: -

النوع الأول: رجاء محمود: وهو الرجاء الذي يصاحبه عمل ودليله الآية السابقة؛ فالرجاء المحمود هو رجاء يكون معه عمل بطاعة الله - تعالى - رجاء ثوابه، ورجاء رجل أذنب ذنوبًا ثم تاب منها صادقًا، رجاء مغفرة ربه وعفوه وإحسانه.

النوع الثاني: رجاء مذموم: وهو الرجاء الذي يُصاحبه كسل ويفتقر إلى العمل، وهذا هو التَّمنِّي والغرور وهذا رأس مال المفاليس.

النوع الرابع من أنواع العبادة:

التَّوَكُّل

التوكل لغة:

قال ابن فارس: الواو والكاف واللام: أصل صحيح يدل على اعتماد غيرك في أمرك. من ذلك الوكلة، والوكل: الرجل الضعيف. يقولون وكلة تكلة. والتوكل منه، وهو إظهار العجز في الأمر والاعتماد على غيرك(١).

ومعناه في الشرع: اعتماد القلب على الله في جلب المصالح ودفع المضار مع الثقة به والأخذ بالأسباب.

أقسام التوكل: -

التوكل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: التوكل الشرعي، وهو المذكور آنفا.

ودليله: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [سورة المائدة:٢٣].

(١) انظر: مقاييس اللغة ٦/١٣٦، مادة: (وكل).

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ [سورة الطلاق:٣].

الثاني: التوكل الشركي، وهو التوكل على غير الله، ومنه: أكبر وأصغر.

فالأكبر: كالتوكل على الميت والاعتماد عليه لدفع ضر أو جلب نفع.

والأصغر: كالتوكل على المخلوق الحي الذي يكون سببًا في جلب مصلحة أو دفع مضرة، لكن يتعلق القلب به، أما لو اعتقد أنه مجرد سبب وأن الله هو الذي قدر ذلك فلا بأس به.

الثالث: توكل جائز، وهو بمعنى الإنابة أو التوكيل، كما كان النبي (عليه الصلاة والسلام) يوكل أصحابه في جمع الصدقات، وفي إقامة الحدود، ونحو ذلك، وبعض العلماء منع من تسمية ذلك توكلاً وقالوا: التوكل عمل قلبي. والراجح ما ذكرناه. والله أعلم.

الخامس والسادس والسابع من أنواع العبادات:

الرَّغبة، والرَّهبة، والخشوع

الرَّغبة هي:

محبة الوصول إلى الشَّيء المحبوب.

قال ابن القيم (رحمه الله): " الفرق بين الرَّغبة والرَّجاء: أنَّ الرجاء طمع والرغبة طلب فهي ثمرة الرجاء؛ فإنه إذا رجا الشيء طلبه؛ والرَّغبة من الرَّجاء كالهرب من الخوف؛ فمن رجا شيئا طلبه ورغب فيه، ومن خاف شيئاً هرب منه، والمقصود أنَّ الرَّاجِي طالب، والخائف هارب "[١].

والرَّهبة هي:

الخوف المقرون بعمل والذي يؤدي إلى الهروب مما يخاف.

قال ابن القيم (رحمه الله): " وأما الرهبة فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضد الرغبة التي هي سفر القلب في طلب المرغوب فيه، وبين الرهب

(١) انظر: مدارج السالكين ٢/٥٥.

والهرب تناسب في اللفظ والمعنى، يجمعهما الاشتقاق الأوسط الذي هو عقد تقاليب الكلمة على معنى جامع"(١).

فالعبد يسيرُ إلى الله بَيْنَ الخوف والرجاء، فالرغب والرهب، كالجناحين للطائر، فأولياء الله يجمعون بين الخوف والرجاء مع العمل، فإذا جاء الأجل أو اقترب فإنهم يغلِّبون جانب الرجاء، لقوله (عليه الصلاة والسلام): «**لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِرَبِّهِ**»(٢)، وهذا فيه رد على ما نسب إلى رابعة العدوية من قولها: "اللهم إن كنت أعبدك طمعا في جنتك فلا تدخلنيها، وإن كنت أعبدك خوفا من نارك فأدخلنيها" وهذا مخالف لعمل ودعاء الأنبياء الذين أثنى الله عليهم وكانوا له خاشعين، وهذا ضلال لأنّه خلاف منهج الأنبياء كما قال تعالى: ﴿**إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ**﴾ [سورة الأنبياء:٩٠]، لذا قال بعض السلف: "من عبد الله بالحب وحده فهو زنديق، ومن عبد الله

(١) انظر: مدارج السالكين ١/٥٠٨.

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٧٧).

بالخوف وحده فهو حروري، ومن عبد الله بالرجاء وحده فهو مرجئ، والموحد من يعبد الله بالحب والخوف والرجاء"(١).

قال الشيخ عبد المحسن بن قاسم: " والرَّغبة والرَّهبة لا تقوم إلا على ساق الصبر، فرهبته تحمله على الصبر، ورغبته تقوده إلى الشُّكر، وعبادتا الرَّغبة والرَّهبة تنحسران عن العبد بقدر ذنوبه، وتزيدان بزيادة إيمانه، والعبد يناله التَّوفيق بإذن الله بقدر تلك العبادة"(٢)

والخشوع معناه:

الذل والخضوع لعظمة الله مستسلما لقضائه الشَّرعي والكوني.

وقال تعالى -مثنيا على أنبيائه وأوليائه-: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ﴾ [سورة الأنبياء:٩٠].

قال شيخ الإسلام (رحمه الله): الخشوع: الخضوع لله تعالى، والسكون

---

(١) انظر: العبودية صـ١١٢، مجموع الفتاوى ١٠/٨١، ٢٠٧.

(٢) انظر الدروس اليومية من ثلاثة الأصول صـ٨١.

والطمأنينة إليه بالقلب والجوارح"[١].

قال الشيخ عبد المحسن بن قاسم: " ومن فضل الله على عباده، أنَّ من رغب وطمع فيما عند الله أُجر، ومن رهب من عذاب الله أمَّنه الله، ومن خشع قلبه وجوارحه لله عاش حميداً عزيزاً في الحياة ولم يخضع لأحد من الخلق"[٢].

(١) انظر: مجموع الفتاوى ٢٨/٣١.

(٢) انظر الدروس اليومية من ثلاثة الأصول صـ٨٢.

الثامن من أنواع العبادات:

الخشية

الخشية لغة:

قال ابن فارس رحمه الله: "الخاء والشين والحرف المعتل يدل على خوف وذعر، فالخشية الخوف. ورجل خشيان. وخاشاني فلان فخشيته، أي كنت أشد خشية منه"(١).

وشرعاً:

قال الجرجاني (رحمه الله): " تألم القلب بسبب توقع مكروه في المستقبل، يكون تارة بكثرة الجناية من العبد، وتارة بمعرفة جلال الله وهيبته. وخشية الأنبياء من هذا القبيل"(٢).

وعرفها الشيخ ابن عثيمين (رحمه الله) فقال: " الخشية هي: الخوف المبني على العلم

---

(١) انظر: مقاييس اللغة ٢/١٨٤، ١٨٥، مادة: (خشي).

(٢) انظر: التعريفات صـ٩٨.

بعظمة من يخشاه وكمال سلطانه"(١).

الفرق بين الخشية والخوف

الخشية: خوف مبني على العلم بالمخوف، كما قال تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ**﴾ [سورة فاطر:٢٨]، أي العلماء بعظمته وكمال سلطانه فهي أخص من الخوف.

أقسام الخشية: -

الخشية تنقسم إلى قسمين: خشية شرعية، وخشية شركية.

القسم الأول: الخشية الشَّرعية: وهي الخشية من الله (ﷻ)، كما قال تعالى: ﴿**فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَٱخْشَوْنِي**﴾ [سورة البقرة:١٥٠]، وكما جاء في الحديث: **"إني لأخشاكم لله"**(٢).

القسم الثاني: الخشية الشِّركية: وهي أن يخشى غيرَ الله فيما لا يقدر عليه إلا

(١) انظر: شرح ثلاثة الأصول صـ٦٠.

(٢) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

الله، وهي هنا بمعنى الخوف، كالخشية من البدوي، أو أحد الأموات أو الغائبين أن يضروه في منع ولد، أو تقريب أجل، ونحو ذلك.

قال الشيخ السعدي (رحمه الله): "حقيقة الخوف والخشية: أن يخاف العبد مقامه بين يدي الله، ومقامه عليه، فينهى نفسه بهذا الخوف عن كل ما حرم الله"[١].

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن صـ٩٤٣.

التاسع من أنواع العبادات:

الإنابة

الإنابة لغة:

قال الجوهري: " أناب إلى الله، أي أقبل وتاب"(١).

وشرعاً هي:

الرجوع إلى الله والقيام بطاعته، واجتناب معصيته.

وهي قريبة من التوبة، ولا تكون إلا لله تعالى، ولا يجوز صرفها لغير الله، وهي من العبادات القلبية. قال جلا وعلا عن خليله إبراهيم (عليه السلام): ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُّنِيبٌ﴾ [سورة هود:٧٥]، أي: كثير الرجوع إلى ربه.

قال ابن القيم (رحمه الله): "والإنابة الرجوع إلى الله وانصراف دواعي القلب وجواذبه إليه، وهي تتضمن المحبة والخشية، فإِن المنيب محب لمن أَناب إليه خاضع له خاشع ذليل"(٢).

---

(١) انظر: الصحاح تاج اللغة ١/٢٢٩، مادة: (نوب).

(٢) انظر: طريق الهجرتين صـ١٧٤.

قال الشيخ السعدي رحمه الله: "وحقيقة الإنابة: انجذاب القلب إلى الله، في كل حالة من أحواله، ينيب إلى ربه عند النعماء بشكره، وعند الضراء بالتضرع إليه، وعند مطالب النفوس الكثيرة بكثرة دعائه في جميع مهماته، وينيب إلى ربه باللَّهج بذكره في كل وقت.

والإنابة أيضا: الرجوع إلى الله، بالتوبة من جميع المعاصي، والرجوع إليه في جميع أعماله وأقواله، فيعرضها على كتاب الله، وسنة رسوله (ﷺ)، فتكون الأعمال والأقوال موزونة بميزان الشَّرع"[١].

قوله: ودليل الإنابة قوله تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [سورة الزمر: ٥٤].

درجات الناس في الإنابة:

قال ابن القيم (رحمه الله) والناس في إِنابتهم على درجات متفاوتة: -

- فمنهم المنيب إلى الله بالرجوع إليه من المخالفات والمعاصي، وهذه الإنابة مصدرها مطالعة الوعيد، والحامل عليها العلم والخشية والحذر.

(١) انظر: تيسير الكريم الرحمن صـ٩٤٣.

- ومنهم المنيب إليه بالدخول في أَنواع العبادات والقربات، فهو ساع فيها بجهده وقد حبب إليه فعل الطاعات وأَنواع القربات، وهذه الإِنابة مصدرها الرجاءُ ومطالعة الوعد، والثواب، ومحبة الكرامة من الله؛ وهؤلاء أبسط نفوساً من أهل القسم الأول، وأشرح صدوراً، وجانب الرجاءِ ومطالعة الرحمة والمِنَّة أغلب عليهم، وإلَّا فكل واحد من الفريقين منيب بالأمرين جميعاً، ولكن خوف هؤلاء اندرج في رجائهم فأَنابوا بالعبادات، ورجاء الأَولين اندرج تحت خوفهم فكانت إِنابتهم بترك المخالفات.

- ومنهم المنيب إلى الله بالتضرع والدعاءِ والافتقار إليه والرغبة وسؤال الحاجات كلها منه، ومصدر هذه الإنابة شهود الفضل والمنة والغنى والكرم والقدرة، فأنزلوا به حوائجهم وعلقوا به آمالهم، فإنابتهم إِليه من هذه الجهة مع قيامهم بالأَمر والنهى، ولكن إِنابتهم الخاصة إِنما هي من هذه الجهة، وأَما الأَعمال فلم يرزقوا فيها الإِنابة الخاصة وأَملهم المنيب إليه عند الشدائد والضراءِ فقط إِنابة اضطرار لا إِنابة اختيار كحال الذين قال الله في حقهم: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [سورة الإسراء:٦٧]، وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [سورة العنكبوت:٦٥].

وهؤلاء كلهم قد تكون نفس أَرواحهم ملتفتة عن الله سبحانه معرضة عنه إِلى مألْوف طبيعي نفساني قد حال بينها وبين إِنابتها بذاتها إلى معبودها وإلهها الحق، فهي ملتفتة إلى غيره ولها إليه إنابة ما بحسب إيمانها به ومعرفتها له. فأَعلى أَنواع الإِنابة إنابة الروح بجملتها إليه لشدة المحبة الخالصة الغنية لهم عما سوى محبوبهم ومعبودهم وحين أَنابت إِليه أرواحهم لم يتخلف منهم شيء عن الإِنابة، فإِن الأعضاءَ كلها رعيتها وملكها تبع للروح فلما أَنابت الروح بذاتها إِليه إنابة محب صادق المحبة ليس فيه عرق ولا مفصل إلا وفيه حب ساكن لمحبوبه: أَنابت جميع القوى والجوارح؛ فأَناب القلب أَيضاً بالمحبة والتضرع والذل والانكسار.

وأناب العقل بانفعاله لأوامر المحبوب ونواهيه، وتسليمه لها، وتحكيمه إياها دون غيرها، فلم يبق فيه منازعة شبهة معترضة دونها.

وأنابت النفس بالانقياد والانخلاع عن العوائد النفسانية والأخلاق الذميمة والإرادات الفاسدة، وانقادت للأمر خاضعة له وداعية فيه مؤثرة إياه على غيره، فلم يبق فيها منازعة شهوة تعترضها دون الأمر، وخرجت عن تدبيرها واختيارها تفويضاً إلى مولاها ورضى بقضائه وتسليماً لحكمه.

وأناب الجسد بالأعمال والقيام بها فرضها وسننها على أكمل الوجوه.

وأنابت كل جارحة وعضو إنابتها الخاصة فلم يبق من هذا العبد المنيب عرق ولا مفصل إلا وله إنابة ورجوع إلى الحبيب الحق الذي كل محبة سوى محبته عذاب على صاحبها، وإن كانت عذبة في مباديها فإنها عذاب في عواقبها، فإنابة العبد ولو ساعة من عمره هذه الإنابة الخالصة أنفع له وأعظم ثمرة من إنابة سنين كثيرة من غيره، فأَين إنابة هذا من إنابة من قبله؟ وذلك فضل الله يؤتيه من يشاءُ، بل هذه روحه منيبة أبداً، وإن توارى عنه شهود إنابتها باشتغال فهي كامنة فيها كمون النار في الزناد"[١].

قوله تعالى: ﴿وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾، سبق بيان أن الإسلام نوعان: عام وخاص.

١-عام: وهو الاستسلام لله تعالى بتوحيده، وهو دين جميع الأنبياء.

٢-خاص: وهو الذي جاء به نبينا محمد (ﷺ)، والذي لا يسع أحداً إلا هو، قال تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة آل عمران:٨٥].

وهناك الإسلام الكوني: وهو بمعنى الاستسلام لحكم الله الكوني القدري.

---

(١) انظر: طريق الهجرتين صـ١٧٣-١٧٤، بتصرف يسير.

وهو عام للمؤمن والكافر، والبر والفاجر، قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [سورة آل عمران:٨٣].

العاشر من أنواع العبادات:

الاستعانة

الاستعانة:

طلب العون يقال استعان فلان فلاناً وبه أي طلب منه العون(١).

قال ابن القيم (رحمه الله): " والاستعانة تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه، فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره مع ثقته به لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به"(٢).

والاستعانة تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: استعانة شرعية: وهي الاستعانة بالله في جلب المنافع ودفع المضار.

ودليلها: قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [سورة الفاتحة:٥].

---

(١) انظر: المعجم الوسيط٢/٦٣٨ مادة: (عون).

(٢) انظر: مدارج السالكين ١/٩٦.

وفي الحديث: **"إذا استعنت فاستعن بالله"**(١).

ومنها: الاستعانة بالأعمال الصالحة المشروعة كالصبر والصلاة، كما قال تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّـٰبِرِينَ﴾ [سورة البقرة:١٥٣].

الثاني: استعانة شركية: وهي الاستعانة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، ومنها الاستعانة بالأموات، وأصحاب الأضرحة ونحوها.

الثالث: استعانة مباحة: كأن تطلب العون من المخلوق الحي الحاضر القادر، فيما يقدر عليه.

ودليلها: قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [سورة المائدة:٢].

ومثالها: كأن تقول لأخيك: أعطني الكأس، أو القلم، أو احمل عليَّ متاعي.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٥١٦)، وحسنه وصححه الحاكم.

فيجب التَّنبه للفرق بين هذه الأنواع؛ لأنَّ الصُّوفية وعُبَّاد القبور يستدلون بجواز طلب العون من الحي الحاضر القادر على جواز طلبها من الأموات، وهذا قياس باطل.

الحادي عشر من أنواع العبادات:

الاستعاذة

الاستعاذة لغة:

قال الجوهري: " عُذْتُ بفلانٍ واسْتَعَذْتُ به، أي لجأت إليه. وهو عياذي، أي ملجئي. وأعذت غيرى به وعوذته به"(١).

وشرعاً:

هي طلب العوذ والحماية من المكروه.

وقال ابن كثير رحمه الله: "الاستعاذة هي الالتجاء إلى الله والالتصاق بجنابه من شر كل ذي شر. والعياذ يكون لدفع الشر. واللياذ لطلب الخير"(٢).

وحقيقتها:

"الهرب من شيء تخافه إلى من يعصمك منه"(٣).

---

(١) انظر: الصحاح ٢/٥٦٦-٥٦٧، مادة: (عوذ).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير ١/١١٤.

(٣) انظر: الدروس اليومية من ثلاثة الأصول صـ٩٠.

قال الشيخ عبد المحسن بن قاسم: "وهي من العبادات التي أمر الله تعالى بها عباده؛ كما قال تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ نَزۡغٌ فَٱسۡتَعِذۡ بِٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [سورة فصلت:٣٦].

وأمثال ذلك في القرآن كثير كقوله: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلۡفَلَقِ﴾ [سورة الفلق:١]، وقوله تعالى: ﴿قُلۡ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الناس:١].

فلما كان عبادة لله فصرفه لغير الله شرك في العبادة، فمن صرف شيئاً من هذه العبادات لغير الله جعله شريكاً لله في عبادته، ونازع الرَّب في إلهيته، كما أنَّ من صلى لله وصلى لغيره يكون عابداً لغير الله ولا فرق"(١).

وقال أيضاً: "وقد أجمع العلماء على أنه لا تجوز الاستعاذة بغير الله"(٢).

قال شيخ الإسلام (رحمه الله): "وقد نص الأئمة كأحمد وغيره على أنَّه لا تجوز الاستعاذة بمخلوق "(٣).

---

(١) انظر: فتح المجيد صـ١٦٢.

(٢) انظر: فتح المجيد صـ١٦٣.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى ١٥ / ٢٢٧ .

أنواع الاستعاذة:

الاستعاذة على ثلاثة أنواع:

النوع الأول: استعاذة شرعية: وهي: الاستعاذة بالله جلا وعلا، أو بصفاته، كقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ﴾ [سورة الفلق:١]، وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة الناس:١].

وكقوله (ﷺ)، في الحديث الذي رواه مسلم: **"أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ"**(١).

وكقوله أيضاً في صحيح مسلم: **"أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"**(٢).

وكقوله في رقية المريض: **"أَعُوذُ بِاللهِ وَقُدْرَتِهِ مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ وَأُحَاذِرُ"**(٣) رواه مسلم.

وكقوله في صحيح البخاري: **"أعوذ بوجهك"**(١).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٠٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦١١٥)، ومسلم (٢٦١٠).

(٣) أخرجه مسلم (٢٢٠٢).

النوع الثاني: استعاذة شركية: وهي الاستعاذة بالأموات، أو بالأحياء غير الحاضرين القادرين، كمن يستعيذ بصاحب القبر، أو بالجن. قال تعالى: ﴿**وَأَنَّهُۥ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ ٱلْإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا**﴾ [سورة الجن:٦].

النوع الثالث: استعاذة مباحة: كمن يستعيذ بالحي الحاضر القادر فيما هو من خصائصه التي يقدر عليها، كمن يستعيذ بك من شر ظالم، فتؤويه بقدر ما تستطيع، وكما جاء في صحيح مسلم قال (ﷺ): "**وَمَنْ وَجَدَ فِيهَا مَلْجَأً فَلْيَعُذْ بِهِ**"(٢).

=

(١) أخرجه البخاري (٤٦٢٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٨٨٦).

الثاني عشر من أنواع العبادات:

الاستغاثة

الاستغاثة لغة:

مأخوذ من مصدر (غوث) الغين والواو والثاء كلمة واحدة، وهي الغوث من الإغاثة، وهي الإغاثة والنصرة عند الشدة"(١)

وشرعاً:

الاستغاثة: طلب الغوث، وهو الإنقاذ من الشر والهلاك.

قال الشيخ عبد المحسن بن قاسم: " والاستغاثة تتضمن: كمال الافتقار إلى الله، واعتقاد كفايته، وهي من أفضل الأعمال وأكملها، والمرء في هذه الحياة عرضة للكروب والكوارث، فمن استغاث بربه في كشف ملماته فقد أدى عبادة عظيمة فزع إليها الأنبياء والصالحون عند الشدائد ففرج الله كروبهم"(٢).

---

(١) انظر: مقاييس اللغة ٤/٤٠، مادة: (غوث).

(٢) انظر: الدروس اليومية من ثلاثة الأصول صـ٩٣.

والاستغاثة على أقسام:

الأول: استغاثة شرعية، وهي الاستغاثة بالله (ﷻ)، قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [سورة الأنفال:٩].

الثاني: استغاثة شركية، وهي: طلب الغوث من المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله.

الثالث: استغاثة جائزة، وهي طلب الغوث من الحي الحاضر القادر فيما يقدر عليه.

والدليل عليه ما ورد في قصة موسى (عليه السلام)، قال تعالى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾ [سورة القصص:١٥]، وكغريق في البحر يطلب الغوث ممن على الشاطيء لينقذه من الغرق، فهذا جائز.

الثالث عشر من أنواع العبادات:

الذّبح

الذبح لغة:

مصدر "ذبح"، وبابه "قطع"، والذبح بالكسر ما يذبح، وفى التنزيل العزيز: ﴿وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [سورة الصافات:١٠٧].

والذبيح: المذبوح، والأنثى ذبيحة، والذبيحة من الشَّاة المذبوحة، والذبيحة: اسم لما يذبح من الحيوان[١].

وشرعاً:

إزهاق الرُّوح بإراقة الدم على وجه مخصوص[٢].

وقال ابن قدامة (رَحِمَهُ اللَّهُ) هو: " قطع الحلقوم والمريء والودجين"[٣].

---

(١) انظر لسان العرب ٢/ ٤٣٦، مادة: (ذبح).

(٢) انظر: شرح ثلاثة الأصول للعثيمين صـ٦٦.

(٣) انظر: المغني، ٩/٤٥٩.

والذَّبح على أنواع:

النوع الأول: ذبح شرعي، وهو الذبح لقصد التقرب إلى الله تعالى، كذبح الهدي والأضاحي والعقيقة، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ [سورة الأنعام:١٦٢-١٦٣].

النوع الثاني: ذبح شركي، وهو الذبح للأموات وأصحاب القبور تقرباً إليهم وتوصلاً إلى طلب الحاجات منهم، وهو شرك أكبر، وهو مما عمت به البلوى كالذبح للبدوي والدسوقي والحسين وغيرهم، وهذا شرك لا يغفره الله إلا بالتوبة.

النوع الثالث: ذبح جائز، كالذبح للتجارة أو الأكل.

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ﴾ [سورة يس:٧١]، وقد يكون مطلوباً أو منهياً عنه حسبما يكون وسيلة له.

النوع الرابع: ذبح مستحب، كالذبح إكراماً للضيف، أو لوليمة عرس.

يدل عليه قوله (ﷺ): "**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**"[١]، وقوله (ﷺ) لعبد الرحمن بن عوف: "**أولم ولو بشاة**"[٢].

(١) أخرجه البخاري (٥٦٧٩)، ومسلم (٤٨).

(٢) أخرجه البخاري (٥١٥٣)، ومسلم (١٤٢٧).

الرابع عشر من أنواع العبادات:

النذر

النذر لغة: الالتزام.[١]

وشرعاً:

إلزام المكلف نفسه بشيء لله غير واجب عليه بأصل الشرع.

والدليل على أنَّ النذر عبادة قوله تعالى: ﴿**يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا**﴾ [سورة الإنسان:٧]؛ فمدح سبحانه الذين يوفون بالنذر ولو لم يكن عبادة لم يمدحهم.

حكمه ابتداءً:

مكروه، لأنَّ فيه معاوضة.

ودليل الكراهة: ما جاء في صحيح مسلم أنه (ﷺ) نهى عن النَّذر، وقال: «**إِنَّهُ لَا يَأْتِي بِخَيْرٍ، وَإِنَّمَا يُسْتَخْرَجُ بِهِ مِنَ الْبَخِيلِ**»[٢]؛ لكن إذا وقع النذر من

(١) انظر: المصباح المنير ٢/ ٥٩٩.

(٢) أخرجه البخاري (٦٦٠٩)، ومسلم (١٦٤٠).

العبد وجب الوفاء به عبادةً؛ لأنَّ الله (جل وعلا) أثنى على أصحابها فقال تعالى:

﴿يُوفُونَ بِٱلنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُۥ مُسْتَطِيرًا﴾ [سورة الإنسان:٧]

ولا مانع من النذر العام بدون معاوضة، كمن قال: لله عليّ أن أتصدق بكذا أو أحج أو أصوم.... فهذا من نذر الطاعة، كما في صحيح البخاري، قال (ﷺ): **"مَنْ نَذَرَ أَنْ يُطِيعَ اللهَّ فَلْيُطِعْهُ، وَمَنْ نَذَرَ أَنْ يَعْصِيَهُ فَلاَ يَعْصِهِ"**(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٦٦٩٦).

[الأصل الثاني معرفة دين الإسلام بالأدلة]

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله):

الأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ وَهُوَ الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله. وهو ثلاث مراتب: (الإسلام) و (الإيمان) و (الإحسان)، وكل مرتبة لها أركان.

فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ (خَمْسَةٌ) شَهَادَةُ أَن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله و (إقام الصلاة) و (إيتاء الزكاة) و (صوم رمضان) و (حج بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ).

فَدَلِيلُ الشَّهَادَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران:١٨].

ومعناها لا معبود بحق إلا الله وحده، و (لَآ إِلَٰهَ) نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، (إلا اللهُ) مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ.

وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الزخرف:٢٦-٢٨].

وقوْلُه تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران:٦٤].

وَدليلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة التوبة:١٢٨]، وَمَعْنَى شَهَادَة أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، واجْتِنَابُ مَا عنه نهى وزجر، وألا يُعْبَدَ اللهُ إلا بِمَا شَرَعَ.

وَدَلِيلُ الصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَتَفْسِيرِ التَّوْحِيدِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ﴾ [سورة البينة:٥].

ودَلِيلُ الصِّيَامِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة:١٨٣].

ودَلِيلُ الْحَجِّ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فِيهِ ءَايَـٰتُۢ بَيِّنَـٰتٌ مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [سورة آل عمران:٩٧].

الشَّـــــــــرح

قوله: (الأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ وَهُوَ الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والبراءة من الشرك وأهله)، الأصل الثاني: وهو معرفة دين الإسلام، وهذا هو السؤال الثاني من مسائل القبر الثلاث وهي:

- من ربك؟ وهذا هو الأصل الأول.
- وما دينك؟ وهذا هو الأصل الثاني.
- ومن نبيك؟ وهذا هو الأصل الثالث.

فالمسلم يجيب فيقول ربي الله، وديني الإسلام، ونبيِّ محمد (عليه الصلاة والسلام)، وأما المنافق أو الكافر فيقول: هاه هاه لا أدري، فيضرب بمرزبة من حديد، ويقال له: لا دريت ولا تليت، ولا يوفق للإجابة الصحيحة إلا العبد الصادق في دينه المخلص في توحيده، الذي عاش على الإسلام ومات عليه. كما قال تعالى -في وصية يعقوب لبنيه-: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ

وَيَعۡقُوبُ يَٰبَنِيَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [سورة البقرة:١٣٢].

فلذلك يستحب للمسلم أن يكثر من إلحاحه على ربه أن يحييه على الإسلام، وأن يتوفاه على الإسلام؛ لأنَّ الأعمال بالخواتيم، وقد كان السلف الصالح (رحمهم الله) يخافون خوفاً شديداً من سوء الخاتمة، ويقولون: "الخواتيم ميراث السوابق"[١] ، والعبد يبعث على ما مات عليه، فينبغي على العبد أن يسأل الله الثبات على الإسلام حتى يلقى الله به.

قوله: (الأَصْلُ الثَّانِي: مَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بِالأَدِلَّةِ).

المقصود بالمعرفة هنا: العلم الذي يورث العمل، ويلزم منه الخضوع والاستسلام، والقيام بأوامر الشرع، وليست مجرد المعرفة، كما عند الجهمية[٢]

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (١/١٨٠).

(٢) الجهمية: هم أصحاب جهم بن صفوان، وأول ظهور بدعته بترمذ، وهو الذى أظهر نفى الصفات والتعطيل، وأخذ ذلك عن الجعد بن درهم، وزعم أن الإيمان هو المعرفة بالله تعالى فقط، وأن الكفر هو الجهل به فقط، وقال لا فعل ولا عمل إلا لله، وإنما ينسب الأقوال والأفعال إلى العباد مجازاً ويقول بخلق القرآن. قتله سلم بن أحوز المازني بمرو في آخر ملك بنى أمية ١٢٨ هـ. انظر: الفرق بين الفرق صـ٢١١، ٢١٢، الملل والنحل ١/١٢٧، ١٢٨.

ومن تابعهم من المرجئة[1]، والتي يجعلون العبد بها مؤمنا كامل الإيمان.

قوله: (دين). سبق بيان أن الدين هو الجزاء، ومنه قولهم: كما تدين تدان، وقال تعالى: ﴿مَٰلِكِ يَوۡمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٤]، أي: يوم الجزاء، **(دين الإسلام):** أي: الذي سيأتي الآن بيانه ومراتبه، وأركان كل مرتبة، وإذا أطلق الإسلام فإنه يدخل فيه الإيمان والإحسان، وإذا قرن الإسلام بالإيمان أو الإحسان فلكل واحد معنى يختص به، كما مشى عليه المؤلف هنا.

وقد عَرَّف الإسلام هنا بأنه:

١-الاستسلام لله بالتوحيد.

٢-الانقياد له بالطاعة.

٣-البراءة من الشرك وأهله.

---

(١) المرجئة: سموا بذلك لقولهم بالإرجاء، والإرجاء إما: مشتق من الرجاء لأن المرجئة يرجون لأصحاب المعاصي الثواب من الله تعالى، أو يكون مشتقاً من الإرجاء بمعنى التأخير، لأنهم أخروا العمل عن مسمى الإيمان، وهم القائلون لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، وهم فرق متعددة، وأول من قال بالإرجاء هو: غيلان الدمشقي. انظر: الملل والنحل ١/ ١٣٩.

وهذا التعريف ينبغي على طالب العلم حفظه جيدا لوجازته، فهو تعريف جامع مانع.

وقوله: (وهو الاستسلام لله بالتوحيد)، وذلك بأن يستسلم العبد لربه بإفراده (جلَّ وعلا) بالعبادة، والإخلاص في توحيده، وهذا هو المقصود بالاستسلام هنا، وليس مجرد الاستسلام القدري الذي هو لكل الكائنات قال تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ﴾ [سورة آل عمران:٨٣].

ثم قال: (وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ)، الطاعة: هي فعل الأوامر واجتناب النواهي، وطاعة الأمر بامتثاله والإيمان به، والطاعة في النَّهي باجتنابه وتركه.

قوله: (وَالْبَرَاءَةُ من الشرك وأهله)، ذكر أمرين في البراءة:

الأمر الأول: البراءة من الشرك نفسه، وهو الكفر بالطاغوت، أي: الكفر بكل ما يعبد من دون الله، كما قال إبراهيم لأبيه وقومه: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦٓ إِنَّنِي بَرَآءٞ مِّمَّا تَعۡبُدُونَ ٢٦ إِلَّا ٱلَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُۥ سَيَهۡدِينِ﴾ [سورة الزخرف:٢٦-٢٧]، وهذه هي المرتبة الثانية من البراءة.

والبراءة من الشرك على ثلاث مراتب:

المرتبة الأولى: البراءة من الشرك بالقلب؛ وهي واجبة على كل مسلم، لأنَّه لا سلطة لأحد على قلب الإنسان؛ فيجب على المسلم أن يبغض بقلبه الشرك والكفر بكل صوره، قلّ أم كثر.

المرتبة الثانية: البراءة من الشرك باللسان، وهذه تكون على حسب الاستطاعة، لقوله في الحديث: **«مَنْ رَأَى مِنْكُمْ مُنْكَرًا فَلْيُغَيِّرْهُ بِيَدِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ، وَذَلِكَ أَضْعَفُ الْإِيمَانِ»**[١].

المرتبة الثالثة: البراءة من الشرك بالجوارح، فلا يأتي الشرك، ولا يرد أماكنه، وإن استطاع أن يتخلص من مظاهر الشرك فعل، وذلك بحسب القدرة، كما فعل إبراهيم (عليه السلام) مع آلهة المشركين.

الامر الثاني: البراءة من المشركين أنفسهم، وهذا يرد فيه أيضا المراتب الثلاث الماضية، وهي: البراءة منهم بالقلب، وباللسان، وبالجوارح.

الأولى: البراءة من المشركين بالقلب؛ وتكون ببغض المشركين وكراهتهم.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٩).

الثانية: البراءة من المشركين باللسان، وتكون بإعلان الكفر لهم، وذلك بحسب المكان، والزمان، والقوة والضعف، لذلك اشترط أهل العلم فيمن يسافر إلى بلاد الكفار شروطاً منها: القدرة على إظهار الدين، والقدرة على البراءة من آلهتهم، وإلا فلا يجوز له البقاءُ بين ظهورهم إلا لضرورة، والضَّرورةُ تُقَدَّرُ بقدرها، لقوله (ﷺ): **«أَنَا بَرِيءٌ مِنْ كُلِّ مُسْلِمٍ يُقِيمُ بَيْنَ أَظْهُرِ الْمُشْرِكِينَ». قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ لِمَ؟ قَالَ: «لَا تَرَاءَى نَارَاهُمَا»**[1] ، وذكر تعالى عن إبراهيم أنه ومن معه تبرؤوا من الشِّرك وأهله، قال تعالى: ﴿**قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ**﴾ [سورة الممتحنة:٤].

الثالثة: البراءة من المشركين بالجوارح، وهذه تكون بجهادهم وقتالهم، وذلك بعد أمرين:

الأمر الأول: دعوتهم للإسلام.

الأمر الثاني: فإن أَبوا؛ فيعرض عليهم دفع الجزية للمسلمين.

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٦٤٥)، والترمذي (١٦٠٤)، وصححه الألباني.

الثالث: فإن أبوا فقتالهم وجهادهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة البقرة:١٩٣]، والفتنة هنا الشرك.

وقد جاء بيان هذه الثلاث في حديث بريدة (رضي الله عنه): **"كَانَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ) إِذَا أَمَّرَ أَمِيرًا عَلَى جَيْشٍ، أَوْ سَرِيَّةٍ، أَوْصَاهُ فِي خَاصَّتِهِ بِتَقْوَى اللهِ، وَمَنْ مَعَهُ مِنَ الْمُسْلِمِينَ خَيْرًا، ثُمَّ قَالَ: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ، وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ، وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ**

وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ، وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا»[(١)]، فبين له هذه المراتب الثلاث.

قوله: (وَهُوَ الاستسلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة، والخلوص من الشرك)، فيه تعريف الإسلام بركني كلمة التوحيد وهما الإثبات والنفي، فقوله: **(هو الاستلام لله بالتوحيد، والانقياد له بالطاعة)**، هذا إثبات، وهذا معنى قولنا: (إلاَّ الله)، وقوله: **(والبراءة من الشرك وأهله)**، هذا نفي، وهو معنى قولنا: (لا إله)، وهذا من فقه المؤلف (رحمه الله) تعالى، ودقته في صياغة الحدود نظرا لأهمية ذلك.

قوله: (وهو ثلاث مراتب: الإسلام، والإيمان، والإحسان. وكل مرتبة لها أركان)، المرتبة: هي المنزلة والمكانة.

ودليل هذا التقسيم: ما سيأتي من حديث ابن عمر عن عمر (رضي الله عنهما) من سؤال جبريل للنبي (صلى الله عليه وسلم) عن هذه المراتب وإجابته (عليه الصلاة والسلام).

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٣١).

قوله: (وكل مرتبه لها أركان)، الأركان: جمع ركن، والركن: هو جانب الشيء الأقوى الذي لا يقوم إلا به.

قوله: (وأركان الإسلام خمسة).

أي: خمس دعائم ينتقض بانتقاضها جميعا وهي:

١) شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله.

٢) إقام الصلاة.

٣) إيتاء الزكاة.

٤) صوم رمضان.

٥) حج بيت الله الحرام.

أما الركن الأول: وهو الشهادة، فبالإجماع ينتقض إسلام الشخص بانتقاضه وفقده، وأما باقي الأركان ففيها خلاف عند أهل العلم، وأشدها الصلاة، لحديث: **«العَهْدُ الَّذِي بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمُ الصَّلَاةُ، فَمَنْ تَرَكَهَا فَقَدْ كَفَرَ»**(١).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٢١)، والنسائي (٤٦٣)، وابن ماجة (١٠٧٩).
=

والدليل على هذه الأركان الخمسة:

١-حديث ابن عمر: عن النبي (ﷺ)، قال: «**بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسَةٍ، عَلَى أَنْ يُوَحَّدَ اللهُ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصِيَامِ رَمَضَانَ، وَالْحَجِّ**»، **فَقَالَ رَجُلٌ: الْحَجُّ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، قَالَ: «لَا، صِيَامُ رَمَضَانَ، وَالْحَجُّ»** [(١)].

٢-ما جاء في حديث عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) في سؤال جبريل (عليه السلام) عن الإسلام فقال النبي (ﷺ): «**الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ (ﷺ)، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنِ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا**».[(٢)]

قال الحافظ ابن رجب (رحمه الله): "المراد من هذا الحديث أن الإسلام مبني على هذه الخمس، فهي كالأركان والدعائم لبنيانه، والمقصود تمثيل الإسلام ببنيانه ودعائم البنيان هذه الخمس، فلا يثبت البنيان بدونها، وبقية خصال الإسلام كتتمة البنيان، فإذا فقد منها شيء، نقص البنيان وهو قائم لا ينتقض بنقص ذلك، بخلاف نقض هذه الدعائم الخمس؛ فإن الإسلام يزول بفقدها

=

وفي صحيح مسلم (٨٢) عن جابر: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إِنَّ بَيْنَ الرَّجُلِ وَبَيْنَ الشِّرْكِ وَالْكُفْرِ تَرْكَ الصَّلَاةِ».

(١) أخرجه البخاري (٨)، ومسلم (١٦) واللفظ له.

(٢) سبق تخريجه.

جميعها بغير إشكال، وكذلك يزول بفقد الشهادتين، وأما إقام الصلاة، فقد وردت أحاديث متعددة تدل على أن من تركها، فقد خرج من الإسلام... وذهب إلى هذا القول جماعة من السلف والخلف ... وذهبت طائفة منهم إلى أن من ترك ركناً من أركان الإسلام الخمسة ركناً عمداً أنه كافر بذلك ..."[1].

قوله: (فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ خَمْسَةٌ شَهَادَةُ أَن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله).

معنى الشهادة:

الشهادة هي: الاعتقاد الجازم الذي يعبر عنه باللسان، واختير لفظ الشهادة؛ لأن من يشهد بها كأنه يرى ما يشهد به لقوة الاعتقاد وثباته، وجعلت الشهادتان ركنا واحدا لتلازمهما، ولأن العمل لا يقبل إلا بشرطين: الإخلاص، والمتابعة، لا يقبل أحدهما دون الأخر.

شروط شهادة أن لا إله إلا الله:

وهذه الشهادة لكي تكون مقبولة لابد لها من شروط ذكرها أهل العلم، وقد جمعها الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي في قوله:

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم ١/١٤٨-١٤٩، بتصرف.

وَبِشُرُوطٍ سَبْعَةٍ قَدْ قُيِّدَتْ ... وَفِي نُصُوصِ الْوَحْيِ حَقًّا وَرَدَتْ

فَإِنَّهُ لَمْ يَنْتَفِعْ قَائِلُهَا ... بِالنُّطْقِ إِلَّا حَيْثُ يَسْتَكْمِلُهَا

الْعِلْمُ وَالْيَقِينُ وَالْقَبُولُ ... وَالِانْقِيَادُ فَادْرِ مَا أَقُولُ

وَالصِّدْقُ وَالْإِخْلَاصُ وَالْمَحَبَّةْ ... وَفَّقَكَ اللَّهُ لِمَا أَحَبَّهْ

وزاد غيره شرطا آخر، وهو البراءة من الشرك وأهله، قال الناظم:

وزيد ثامنها الكفران منك بما ... سوى الإله من الأوثان قد ألها

فهذه ثمانية شروط وهي: -

الشرط الأول: العلم بمعناها المنافي للجهل.

والدليل قوله تعالى: ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [سورة محمد:١٩]؛ فبدأ بالعلم.

الشرط الثاني: اليقين المنافي للشك والريب.

والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمۡ يَرۡتَابُواْ﴾ [سورة الحجرات:١٥]، وقد جاء في حديث أبي هريرة (رضي الله عنه) قال له

رسول الله (ﷺ): «اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ، فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»[1].

الشرط الثالث: القبول المنافي للرد.

فيجب على المسلم أن يقبلها بمعانيها وما دلت عليه، ولا يرد منها شيئا، كما يفعل المشركون الذين قال الله تعالى عنهم: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوٓاْ إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [سورة الصافات:٣٥].

وقد جاء في الحديث المتفق عليه قوله (ﷺ): «مَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ مِنَ الْهُدَى وَالعِلْمِ، كَمَثَلِ الغَيْثِ الكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا، فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ، قَبِلَتِ المَاءَ، فَأَنْبَتَتِ الكَلَأَ وَالعُشْبَ الكَثِيرَ، وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ، أَمْسَكَتِ المَاءَ، فَنَفَعَ اللهُ بِهَا النَّاسَ، فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا، وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى، إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لاَ تُمْسِكُ مَاءً وَلاَ تُنْبِتُ كَلَأً، فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللهِ، وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ، وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا، وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ»[2].

---

(١) أخرجه مسلم (٣١).

(٢) أخرجه البخاري (٧٩)، ومسلم (٢٢٨٢).

الشرط الرابع: الانقياد المنافي للترك.

قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا۟ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [سورة الزمر:٥٤].

وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱدْخُلُوا۟ فِى ٱلسِّلْمِ كَآفَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [سورة البقرة:٢٠٨].

الشرط الخامس: الصدق في قولها، واعتقادها، المنافي للكذب.

لا كحال المنافقين الذين يكذبون في قولها، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [سورة التوبة:١١٩].

وفي الحديث: "**مَا مِنْ أَحَدٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، صِدْقًا مِنْ قَلْبِهِ إِلاَّ حَرَّمَهُ اللهُ عَلَى النَّارِ**"(١).

وفي صحيح مسلم في قصة الأعرابي الذي سأل عن أركان الإسلام، فقال له النبي (ﷺ): "**خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ**" **فَقَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا، قَالَ:**

---

(١) أخرجه البخاري (١٢٨)، ومسلم نحوه (٣٢) واللفظ للبخاري.

لاَ؛ إلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ قَالَ رَسُولُ الله: "وَصِيَامُ رَمَضَان قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهُ، قَالَ: لاَ؛ إلاَّ أَن تَطَّوَّعَ قَالَ: وَذَكَرَ لَهُ رَسُولُ الله الزَّكَاة، قَالَ: هَلْ عَلَيَّ غَيْرُهَا، قَالَ: " لاَ؛ إلاَّ أَنْ تَطَّوَّعَ قَالَ: فَأَدْبَرَ الرَّجُلُ وَهُوَ يَقُولُ: وَالله لاَ أَزِيدُ عَلَى هَذَا وَلاَ أَنْقُصُ، قَالَ رَسُولُ الله أَفْلَحَ إِنْ صَدَقَ "(١).

الشرط السادس: الإخلاص.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ﴾ [سورة البينة:٥].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنه قال: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهَّ، مَنْ أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ رَسُولُ اللهَّ (صلى الله عليه وسلم): لَقَدْ ظَنَنْتُ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَنْ لاَ يَسْأَلَني عَنْ هَذَا الْحَدِيثِ أَحَدٌ أَوَّلُ مِنْكَ، لِمَا رَأَيْتُ مِنْ حِرْصِكَ عَلَى الْحَدِيثِ، أَسْعَدُ النَّاسِ بِشَفَاعَتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُّ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ"(٢).

---

(١) أخرجه البخاري (٤٦) واللفظ له، ومسلم (١١).

(٢) أخرجه البخاري (٩٩).

الشرط السابع: المحبة لها، ولأهلها، ولما دلَّت عليه. قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِۗ﴾ [البقرة: ١٦٥].

وفي الحديث الصحيح المتفق عليه، من حديث أنس (رضي الله عنه)، قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): **"ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ المَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ للهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ"**(١).

الشرط الثامن: البراءة من الشرك وأهله.

والدليل عليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [سورة الزخرف:٢٦-٢٧].

وقوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَىِّۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ [سورة البقرة:٢٥٦].

(١) أخرجه البخاري (١٦)، ومسلم (٤٣)، واللفظ للبخاري.

قوله: (فدليل الشهادة: قوله تعالى: ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [سورة آل عمران:١٨].

قوله: (شهد الله)، كلمة (شهد) قال العلماء: إنها تتضمن عدة معانٍ، وهي: (أعلَم، وأخبَر، وحَكَم) بأنَّه لا إله إلا هو، وهذه كلها من معاني الشهادة، وهي آية عظيمة دلَّت على أعظم شهادة من أجلِّ شاهدٍ لأعظمَ مشهودٍ به، فأعظم شهادة هي شهادة التوحيد، من أجل شاهد وهو (الله) (سبحانه وتعالى)، على أعظم مشهودٍ به وهو (أنه لا إله إلا هو)، وقد شهد معه (سبحانه وتعالى) الملائكة، وأهل العلم، وهم علماء الشريعة من الأنبياء والعلماء، وهذا دليل عظيم على فضل العلماء بعد الأنبياء من بين كلِّ البَشر؛ لأن الله قرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، ولم يذكر أحداً من أصناف البشر سواهم، وهذه منقبة عظيمة لأهل العلم، وذلك لأنهم أعلم البشر بالله وأخشاهم له، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [سورة فاطر:٢٨].

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة الزمر:٩]، وذلك لما علموه، ودرسوه، وأيقنوا به

من براهين الربوبية، وأدلة الألوهية، وعظمة أسمائه وصفاته، وعظيم الحكمة في أفعاله، وأسرار شرعه وقدره.

وقد أمر الله الناس أن يرجعوا إليهم في كل أمورهم، قال تعالى: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة النحل:٤٣].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ [سورة النساء:٨٣].

قوله: ﴿قَائِماً بِالْقِسْطِ﴾، (قائما): حال، أي: حال كونه قائما، و(القسط): هو العدل في القول، والعمل، والحكم، **﴿لاَ إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾،** هذا توكيد لهذه الشهادة العظيمة. **﴿الْعَزِيزُ﴾،** لها معانٍ:

الأول: العزيز من العزة، أي: القوة، فهو -سبحانه- القوي.

الثاني: العزيز، الذي لا يغالب ولا يقهر، قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝١٨﴾ [سورة الأنعام:١٨].

والعزيز: اسم من أسماء الله الحسنى، و﴿ٱلْحَكِيمُ﴾، من أسماء الله الحسنى، ومن معانيه:

١- المحكِم لخلقه، أي: الذي أتقن صنعه، وأحكم خلقه.

٢- ومن معاني الحكيم: الحاكم، والحَكَم بين عباده في الدنيا، والآخرة.

٣- ومن معاني الحكيم أيضا: الذي اشتملت أفعاله على غاية الحكمة مع غاية الرحمة.

فجمع هنا بين هذين الاسمين الجليلين؛ ليبين أنه (ﷻ) في عزته وقوته وقدرته وقهره لا يظلم أحداً، ولا يفعل لغير حكمة، بل أفعاله كلها لحكمة (ﷻ). وهذا فيه رد على الأشاعرة نفاة الحكمة والتعليل، الذين يقولون: يفعل لا لحكمة ولكن لمجرد الإرادة والمشيئة، فهذا فيه رد عليهم.

قال: (ومعناها لا معبود بحق إلا الله وحده، و(لا إله) نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ، (إلا اللهُ) مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ)، (ومعناها): أي معنى شهادة أن لا إله إلا الله، **(لا معبود بحق إلا الله)،** هذا هو الراجح في معناها، بتقدير كلمة (بحق)، وكثير من المفسِّرين والشُّراح يقدّرون الخبر المحذوف بقولهم: (موجود)، فتكون العبارة: لا إله (موجود) إلا الله، أو لا معبود (موجود) إلا الله، وهذا غير صحيح، لأن كثيرا من الآلهة الباطلة قد عبدت مع الله (ﷻ)، وهي موجودة، وقد سماها الله تعالى آلهةً، وسماها عابدوها آلهةً، قال تعالى : ﴿فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِي

يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ لَّمَّا جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَمَا زَادُوهُمۡ غَيۡرَ تَتۡبِيبٖ﴾ [سورة هود:١٠١].

لذا كان الصواب تقدير الخبر المحذوف بقولنا: (حق)، أي: لا معبود (حق) إلا الله، أو: لا معبود (بحق) إلا الله، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدۡعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلۡبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡكَبِيرُ﴾ [سورة الحج:٦٢].

قوله: و**(لا إله)** لا: نافية للجنس، وبعض العلماء يقول: للتبرئة، (إله): اسم لا النافية، والخبر محذوف، تقديره: حق، **(إِلَّا)**: أداة استثناء، **(الله)**: لفظ الجلالة، بدل.

قال ابن رجب (رحمه الله): " والإله هُوَ الَّذِي يطاع فَلَا يعْصى هَيْبَةً لَهُ، وإجلالاً ومحبةً، وخوفاً، ورجاءً، وتوكلاً عَلَيْهِ، وسؤالًا مِنْهُ، وَدُعَاءً لَهُ وَلَا يصلح ذَلِك كُله إِلَّا لله "[١].

و**(الإله)**: هو المألوه، أي المعبود بالمحبة والذل والتعظيم، من أَلَهَ يَأْلَهُ إلهة، أي عبد يعبد عبادة، **والتَّأَلُّه**: التعبد. وقد مر ذلك في أول الشرح.

(١) انظر: كلمة الإخلاص صـ٢٢.

قوله: (نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ)، هذا هو الركن الأول من ركني كلمة التوحيد، وهو النفي، ثم ذكر الركن الثاني وهو الإثبات، في قوله: **(إلا اللهُ مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ)**، والقاعدة عند أهل العلم **(أنَّ النَّفي المحض ليس توحيدا، والإثبات المحض لا يكفي، وإنها يكون التوحيد بالجمع بين النَّفي والإثبات)** كما هنا، **(لا شريك له في عبادته، كما أنه لا شريك له في ملكه)**، هذا استدلال بتوحيد الربوبية على توحيد الألوهية، فتوحيد الربوبية يلزم منه توحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية، لذا ورد في القرآن كثيرا الاحتجاج على المشركين بالربوبية على وجوب إفراد الله تعالى في عبادته، كقوله تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سورة لقمان:٢٥]. وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة:٢١].

قوله: (وَتَفْسِيرُهَا الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [سورة الزخرف:٢٦-٢٨].

بين المؤلف (رحمه الله): أن الله تعالى قد وضحها بنفسه في كتابه العزيز حيث قال: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ﴾، فقوله: (براء)، هذه صفة مشبهة وهي أبلغ من (بريء) وهذا نفي سيأتي بعده الإثبات، وهو ركن كلمة التوحيد، (مما تعبدون) أي من الأوثان، والخطاب موجه لأبيه وأهل بابل، وملكهم النمرود.

وفيه دليل على البراءة من الشرك وأهله، وقد سبق الكلام على هذه المسألة في المقدمات، ﴿إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى﴾، هذا إثبات، وهو الركن الثاني، ومعناه خلقني على الفطرة، وهي التوحيد، كما في الحديث "**مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ**"[(١)]، ﴿فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ أي: الطريق المستقيم، ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةًۢ﴾، الضمير يعود على كلمة التوحيد، والبراءة من الشرك وأهله، ﴿بَاقِيَةً فِى عَقِبِهِۦ﴾ أي في ذريته، كما قال تعالى: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِۦمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [سورة البقرة:١٣٢]، وفيها دليل على أهمية أن يوِّرث الوالد أبناءه العلم والتوحيد والهدى قبل أن يحرص على توريثهم

---

(١) أخرجه البخاري (٤٧٧٥)، ومسلم (٢٦٥٨).

المال والضِّياع والثروات، وهذا الأدب يغفل عنه كثير من الآباء والأمهات مع أن فيه النجاة والسَّعادة الأبدية، ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: عن الشرك.

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران:٦٤].

قوله: ﴿تَعَالَوْا۟﴾، أي: هلموا. ﴿إِلَىٰ كَلِمَةٍ﴾ الكلمة سيأتي ذكرها بعد قليل، ﴿سَوَآءٍۭ﴾ أي: نحن وأنتم نستوي فيها، والكلمة السواء هي الكلمة العادلة وهي: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾، هذا الركن الأول، وهو الإثبات، ﴿وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾، هذا الركن الثاني وهو النَّفي.

وفيه وجوب التَّخلي عن الشِّرك سواء كان قليلا أم كثيراً جليلاً أم حقيراً، ﴿وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، تفسيرها في حديث عدي بن حاتم عند الترمذي، لما قرأ النبي (ﷺ) عليه : ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة:٣١]؛ قال عدي: أَتَيْتُ النَّبِيَّ (ﷺ) وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: " يَا عَدِيُّ اطْرَحْ هَذَا

الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ، فَطَرَحْتُهُ فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةَ فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا، فَقُلْتُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟» قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»(١).

ثمَّ قال: ﴿فَإِن تَوَلَّوۡاْ﴾ أي امتنعوا وأبوا وأعرضوا، ﴿فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾، أي أعلنوا لهم وصرِّحوا بأنَّنا على التَّوحيد والإسلام، وهم كفار على الشِّرك والكفر، وأنتم بريئون مما هم عليه.

---

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، والطبراني في الكبير (٢١٩-٢٠١٨) واللفظ له. وحسنه الألباني.

قال الإمام المجدد (رَحِمَهُ ٱللَّهُ):

وَدِلِيلُ شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾﴾ [سورة التوبة:١٢٨].

قوله: ﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾، أي: من جنسكم تعرفون نسبه وصدقه، كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الجمعة:٢]؛ **﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾**، أي: يشق عليه ما شق عليكم، وذلك لأنَّه (عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ) بُعِثَ بالحنيفيَّة السَّمحة، كما في حديث ابن عباس (رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا)، أنَّ رسول الله (ﷺ) قام، فقال: «**إِنَّ اللهَ تَعَالَى كَتَبَ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ**» **فَقَالَ الْأَقْرَعُ بْنُ حَابِسٍ التَّمِيمِيُّ كُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَسَكَتَ، فَقَالَ: «لَوْ قُلْتُ نَعَمْ، لَوَجَبَتْ، ثُمَّ إِذًا لَا تَسْمَعُونَ، وَلَا تُطِيعُونَ، وَلَكِنَّهُ حَجَّةٌ وَاحِدَةٌ»**[(١)]، وهذا من شفقته (عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ).

(١) أخرجه أبو داود (١٧٢١)، والنسائي (٢٦٢٠)، وابن ماجة (٢٨٨٦)، وصححه الالباني.

وفي الحديث: «لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ - وَفِي حَدِيثِ زُهَيْرٍ عَلَى أُمَّتِي - لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ عِنْدَ كُلِّ صَلَاةٍ»[1].

قوله: ﴿حَرِيصٌ عَلَيْكُم﴾ أي: على هدايتكم وكل ما ينفعكم، ﴿بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ أي: ذو رأفة ورحمة بهم، كما قال تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْۖ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًاۖ سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمْ فِي ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا﴾ [سورة الفتح:٢٩].

قوله: (وَمَعْنَى شَهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، واجْتِنَابُ مَا عنه نهى وزجر، وألا يُعْبَدَ اللهُ إلا بِمَا شَرَعَ).

معنى شهادة أنَّ محمداً رسول الله:

(١) أخرجه البخاري (٨٨٧)، ومسلم (٢٥٢).

بيَّن الإمام المجدد (رحمه الله): أنَّ شهادة أنَّ محمدا رسول الله تقتضي أربعة أمور وهي:

١) طاعته فيما أمر.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء:٦٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ﴾ [سورة الحشر:٧].

وقوله: (فيما أمر)، أي سواء كان الأمر للوجوب أو للاستحباب، فالأمة مأمورة أن تأخذ بكل أوامره، سواء كان أمرا واجباً وهو: ما أمر به الشارع على وجه الحتم واللزوم وأوجب العقوبة على تاركه، أو كان أمر استحباب، وهو ما أمر به الشارع لا على وجه الحتم والإلزام، ولم يجعل على تاركه عقوبة. وهذه من المسائل التي يخل بها الكثير من المسلمين، فلا يهتمون إلا بالأمر الواجب، ويزهدون في الأمر المستحب أو المسنون، وقد كان الصحابة (رضي الله عنهم) لا يفرقون في العمل بينهما، ولا يقولون: يا رسول الله هل هذا مستحب فنتركه أو واجب فنقوم به، بل كانوا يقولون: سمعنا وأطعنا، ويسارعون إلى امتثال الأمر الشرعي، لأن الله يقول: ﴿وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾ [سورة الأعراف:١٥٨].

ويقول: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة الأعراف:١٥٧].

٢) تصديقه فيما أخبر.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [سورة النجم:٣-٤]؛ فكما أن القرآن هو الوحي الأول، فكذلك سنته (ﷺ) هي الوحي الثاني، وهذا فيه رد على الأشاعرة والمتكلمين والصوفية الذين يؤولون كلامه ويقولون لم يُرد كذا وإنما أراد كذا، فهم بهذا يزعمون أنهم أحسن عبارة منه وأبلغ بيانا منه، بل أعلم منه.

٣) واجتناب ما عنه نهى وزجر.

والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [سورة الحشر:٧].

وهذا الأمر قد أخل به كثير من الناس، فوقعوا فيما نهاهم عنه وحذرهم منه، وقد قال (ﷺ): **"دَعُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ، إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلاَفِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ، فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ"**(١).

٤) ألا يعبد الله إلا بما شرع.

أي بما شرع هذا النبي الكريم (عليه الصلاة والسلام)، وهذا هو الشرط الثاني من شروط قبول العمل، وهو الاتباع، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة آل عمران: ٣١].

وقال تعالى: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ [سورة القصص: ٥٠].

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٨)، ومسلم (١٣٣٧).

وفي صحيح البخاري، قال (ﷺ): **«كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَمَنْ يَأْبَى؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى»**(١).

وفي حديث العرباض بن سارية: **"فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ"**(٢).

هذه هي الأمور الأربعة التي تحتويها شهادة أن محمدا رسول الله، وبهذا يُعلم أن هذا الرسول الكريم (ﷺ) لا يجوز أن يُعْبَد مع الله، ولا يُدعى من دون الله، وليس له حق في الربوبية، ولا في الألوهية، بل هو (عليه الصلاة والسلام) عبد يَعْبُد الله ولا يُعبَد، ورسولٌ لا يُكَذَّب، ولا يَمْلِك لنفسه ولا لغيره نفعًا ولا ضرًا إلا ما شاء الله، كما قال تعالى: ﴿**قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا**

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٤٦٠٩)، الترمذي (٢٦٧٦) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [سورة الأعراف:١٨٨].

وهذا فيه رد على من يرفعه فوق مرتبته التي جعله الله فيها، فيرفعه إلى مرتبة الربوبية، كما قال البوصيري - صاحب البردة- في بردته:

فإنّ لي ذمّة منه بتسميتي	محمّداً وهو أوفى الخلق بالذّمم
إن لم يكن في معادي آخذاً بيدي	فضلاً، وإلّا فقل يا زلّة القدم
يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به	سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق رسول الله جاهك بي	إذا الكريم تحلّى باسم منتقم
فإنّ من جودك الدّنيا وضرّتها	ومن علومك علم اللّوح والقلم

فجعل للرسول (ﷺ) في هذه الأبيات ما لا يليق إلا بالرب (جل وعلا) حيث جعل الدنيا وما فيها، والآخرة وما فيها لمحمد (ﷺ)، فماذا أبقى لرب العالمين؟! هذا من الغلو والإفراط في المدح الذي نهى عنه النبي (ﷺ) في قوله: "**لاَ تُطْرُونِي، كَمَا أَطْرَتْ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**"(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤٤٥).

قال الإمام المجدد (رَحِمَهُ ٱللَّهُ):

(وَدَلِيلُ الصَّلاةِ وَالزَّكَاةِ وَتَفْسِيرُ التَّوْحِيدِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾.

قوله: (وَدَلِيلُ الصَّلاةِ):

الصلاة لغةً: الدعاء.

وشرعاً: عبادة ذات أقوال وأفعال مفتتحة بالتكبير مختتمة بالتسليم.

معنى إقامتها:

أي الإتيان بها مستقيمة، وليس مجرد القيام بهيئات وحركات مجردة، بل الإتيان بركوعها، وسجودها، وطمأنينتها، وخشوعها، على ما جاء به الشرع.

من ثمرات إقامة الصَّلاة بالطريقة الصَّحيحة:

١) **تحلي العبد بالأخلاق الفاضلة، وتباعده عن الرذائل**، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِۗ وَلَذِكۡرُ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَصۡنَعُونَ﴾ [سورة العنكبوت:٤٥].

فالذي يؤديها بطريقة صحيحة مستقيمة بخشوعها وطمأنينتها، ويتدبر ما يقرأ فيها من القرآن كما يتدبر في الذِّكر والدُّعاء، فإن ذلك لابد أن يؤثر فيه.

٢) أن المصلي لا يكون هلوعًا جزوعًا إذا مسَّه الشّر كما لا يكون منوعًا إذا مسَّه الخير، وذلك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ١٩ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلۡخَيۡرُ مَنُوعًا ٢١ إِلَّا ٱلۡمُصَلِّينَ ٢٢ ٱلَّذِينَ هُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ دَآئِمُونَ﴾ [سورة المعارج:١٩-٢٣]؛ فاستثنى المصلين المحافظين على صلاتهم، والمداومين عليها.

(**مسألة**)

حكم من ترك الصَّلاة كسلاً وتهاونًا بعد إقراره بوجوبها

اختلف الفقهاء فيه على أقوال:

القول الأول: ذهب عبد الله بن المبارك، وأحمد، وإسحاق إلى أن من تركها عمداً من غير عذر حتى يخرج وقتها فإنه كافر.

قال الإمام أحمد (رحمه الله): «لَا يُكَفَّرُ أَحَدٌ بِذَنْبٍ إِلَّا تَارِكُ الصَّلَاةِ عَمْدًا فَإِنْ تَرَكَ صَلَاةً إِلَى أَنْ يَدْخُلَ وَقْتُ صَلَاةٍ أُخْرَى يُسْتَتَابُ ثَلَاثًا»[١].

القول الثاني: وهو ما ذهب إليه الشافعي ومكحول، أنَّ تارك الصَّلاة كسلاً لا يخرج من الملَّة، وإذا مات فإنه يدفن في مقابر المسلمين، وأهله يرثونه.

(١) انظر: تعظيم قدر الصلاة لمحمد بن نصر المروزي (٢/٩٢٧).

وحكمه عندهم: أنه يقتل كما يقتل الكافر، ولكنه لا يكفر، لكن اختلف أصحاب الشافعي في طريقة قتله:

فقال أكثرهم: إنه يقتل بالسيف.

وقال القاضي شريح: لا يقتل بالسيف بل لا يزال يضرب حتى يصلي أو يأتي الضرب عليه فيموت.

القول الثالث: وهو ما ذهب إليه أبو حنيفة وأصحابه، أنه لا يكفر ولا يقتل، ولكن يحبس ويضرب حتى يصلي.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): "فإن كان مقرا بالصلاة في الباطن، معتقدا لوجوبها، يمتنع أن يصر على تركها حتى يقتل وهو لا يصلي، هذا لا يعرف من بني آدم وعادتهم؛ ولهذا لم يقع هذا قط في الإسلام، ولا يعرف أن أحدا يعتقد وجوبها، ويقال له إن لم تصل وإلا قتلناك، وهو يصر على تركها، مع إقراره بالوجوب، فهذا لم يقع قط في الإسلام.

ومتى امتنع الرَّجل من الصلاة حتى يُقتل لم يكن في الباطن مقراً بوجوبها، ولا ملتزماً بفعلها، وهذا كافر باتفاق المسلمين، كما استفاضت الآثار عن الصحابة بكفر هذا، ودلت عليه النصوص الصحيحة"(١).

فالشخص الذي يترك الصلاة إذا قيل له: صل وإن لم تصل قتلناك فيؤْثر القتل على الصلاة، لا يقول أحد إنَّ في قلبه مثقال حبة من إيمان؛ لأنَّه آثر القتل على أداء الصلاة، ولو كان في قلبه إيمان لقدم الصلاة على ذهاب الروح بالقتل. ومن هذا التقرير يتبين خطورة ترك الصلاة حتى مع الإقرار بوجوبها، فينبغي التنبه لهذه المسألة وتنبيه المسلمين لخطورتها وما يترتب عليها.

قوله: ﴿وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [سورة البينة:٥].

الزكاة لغةً:

مِنْ زكا الشيء يزكو، أي نما وزاد، وتأتي أيضا لغةً بمعنى التطهير والإصلاح والتنقية كما في قوله تعالى: ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا﴾ **[سورة الشمس:٩]، وقوله:** ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ مَن تَزَكَّىٰ﴾ [سورة الأعلى:١٤].

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (٢٢/٤٨).

وشرعاً: التعبد لله ببذل مال واجب في مال مخصوص لطائفة مخصوصة.

شرح التعريف:

قوله: (مال مخصوص)، أي، الذي تكون فيه الزكاة وهو أربعة أنواع:

الأول: النقدان، وهما الذهب والفضة، وما يقوم مقامهما من الأوراق النقدية المتداولة الآن.

الثاني: الزروع والثمار مما يُقتات يعني: يؤكل، ويدخر: كالأرز والبُرّ -الحنطة- والذرة والعدس والفول.

والثمار: كالتمر والزبيب المأخوذ من العنب، ولا زكاة في البطيخ والرمان والتفاح ونحوها مما يصيبه التلف بعد مدة.

الثالث: زكاة عروض التجارة، وهو ما يتخذه التجار في تجارتهم مما يتاجرون به، كالأقمشة والسيارات والأدوات الكهربائية وقطع الغيار ونحوها كثير، فإذا حال عليها الحولُ وبلغت النصاب ففيها الزكاة.

الرابع: زكاة البهائم، الإبل والبقر والغنم. بشرط أن ترعى أكثر الحول بدون كلفة، وتسمى: السائمة.

وقوله: **(لطائفة مخصوصة)**، وهم أهل الزكاة الثمانية المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [سورة التوبة: ٦٠].

وسميت الزكاة بهذا لأمور:

١) لأنَّها تنمي وتطهر أخلاق المُزكي بأن يكون كريما جواداً ببذل جزء من ماله، ومجاهداً للشُّح الذي تأمره به نفسه، وقد جاء في الحديث: **«اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ»**(١).

٢) لأنَّها تنمي المال بحفظه وحمايته، لوجود البركة فيه، كما جاء في الحديث: **«مَا نَقَصَتْ صَدَقَةٌ مِنْ مَالٍ، وَمَا زَادَ اللهُ عَبْدًا بِعَفْوٍ، إِلَّا عِزًّا، وَمَا تَوَاضَعَ أَحَدٌ للهِ إِلَّا رَفَعَهُ اللهُ»**(٢).

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٨).

(٢) أخرجه مسلم (٢٥٨٨).

٣)لأنَّها تنمي الثواب، كما قال تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦١].

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة (رضي الله عنه) قال: قال رسول الله صلى الله عليه: **«مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلاَ يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيهَا لِصَاحِبِهِ، كَمَا يُرَبِّي أَحَدُكُمْ فَلُوَّهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الجَبَلِ»**[(١)]، يربيها: ينميها ويضاعفها، فَلوّه: أي مُهره.

والمراد بـــ: (إيتاء الزكاة): إعطاؤها لمستحقيها.

---

(١) أخرجه البخاري (١٤١٠) واللفظ له، ومسلم (١٠١٤).

قال الإمام المجدد (رحمه الله):

ودليل الصيام قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة:١٨٣].

الصيام لغة: الإمساك.

وشرعاً: الإمساك عن المفطرات مِنْ طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

قال (رحمه الله): ودليل الحج قوله تعالى: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾ [سورة آل عمران:٩٧].

الحج لغةً: القصد

وشرعا: قصد بيت الله للطواف والسعي وغير ذلك، وهو واجب في العمر مرة واحدة، لمن استطاع إليه سبيلا.

مسألة: هل يكفر تارك المباني الثلاثة (الزكاة، والصيام، والحج)؟

الجواب: أكثر أهل العلم على أنَّ تارك المباني الثلاثة :(الزكاة والصيام والحج) لا يكفر، ولا يخرج من الملة لقول عبد الله بن شقيق العقيلي، قال: «**كَانَ**

أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ (ﷺ) لَا يَرَوْنَ شَيْئًا مِنَ الأَعْمَالِ تَرْكُهُ كُفْرٌ غَيْرَ الصَّلَاةِ»(١)، ويوجد خلاف لبعض العلماء في بعضها، ذكره شيخ الإسلام في كتاب الإيمان الأوسط.(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٦٢٢) وصححه الألباني.

(٢) قال شيخ الإسلام (رحمه الله): " وأما مع الإقرار بالوجوب إذا ترك شيئا من هذه الأركان الأربعة ففي التكفير أقوال للعلماء هي روايات عن أحمد: (أحدها: أنه يكفر بترك واحد من الأربعة حتى الحج وإن كان في جواز تأخيره نزاع بين العلماء فمتى عزم على تركه بالكلية كفر وهذا قول طائفة من السلف وهي إحدى الروايات عن أحمد اختارها أبو بكر و (الثاني: أنه لا يكفر بترك شيء من ذلك مع الإقرار بالوجوب وهذا هو المشهور عند كثير من الفقهاء من أصحاب أبي حنيفة ومالك والشافعي وهو إحدى الروايات عن أحمد اختارها ابن بطة وغيره. و (الثالث لا يكفر إلا بترك الصلاة وهي الرواية الثالثة عن أحمد وقول كثير من السلف وطائفة من أصحاب مالك والشافعي وطائفة من أصحاب أحمد. و (الرابع: يكفر بتركها وترك الزكاة فقط. و (الخامس: بتركها وترك الزكاة إذا قاتل الإمام عليها دون ترك الصيام والحج. انظر: الإيمان الأوسط (صـ١٥٥).

[المرتبة الثانية: الإيمان]

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله):

(المرتبة الثانية: الإيمان: وهو بضع وسبعون شعبة: فأعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان.

وأركانه ستة: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره).

الشـــــــــــــرح

اختلف السلف (رحمهم الله) في حقيقة الإيمان والإسلام، هل هما متغايران؟ أو أنهما مترادفان؟

الذي عليه المحقِّقون أنَّ الإسلام والإيمان إذا اجتمعا افترقا وإذا افترقا اجتمعا، أي: أنه إذا أُفرد الإسلام في النُّصوص أو في الكلام فإنه يدخل فيه الإيمان والإحسان، أي: كل الدين، وإذا أفرد الإيمان يدخل فيه الإسلام بأعماله الظاهرة، والإحسان بدرجاته، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا﴾ [سورة الأحزاب:٧٠]، ونحوها، أما إذا اجتمعا في الكلام أو في النص فينفرد كل واحد منهما بمعنى، فيطلقُ الإيمان عندئذ على الاعتقادات والأمور العلمية الباطنة، ويطلق الإسلام على الأعمال الظاهرة كما

ورد في حديث جبريل عندما سأل النبي (ﷺ) عن الإيمان فقال: "أن تؤمن بالله....."، وسأله عن الإسلام فذكر الأركان السابقة.

الإيمان في اللغة:

يطلق على الإقرار، أي: إقرار القلب المستلزم للإذعان والانقياد.

وبعض العلماء يفسره بالتصديق، وهو تعريف قاصر؛ لأن إبليس مصدق بربه، وفرعون في الباطن مصدق، كما قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسۡتَيۡقَنَتۡهَآ أَنفُسُهُمۡ ظُلۡمٗا وَعُلُوّٗا﴾ [سورة النمل:١٤]. وقد يصح هذا التعريف إذا قلنا: التصديق المستلزم للانقياد والإذعان.

وشرعًا:

هو: اعتقادٌ بالجنان، ونطقٌ باللِّسان، وعملٌ بالجوارح والأركان، يزيد بطاعة الرَّحمن، وينقص بطاعة الشيطان.

هذه خمسة أمور، وهو اعتقاد أهل السنة والجماعة.

وقد خالفهم في ذلك المرجئة، الذين أرجؤوا - أخَّرُوا- العملَ عن مسمى الإيمان وهم طوائف:

الأولى: وهم الجهمية، قالوا إنَّ الإيمان هو مجرد المعرفة، أي معرفة القلب للرَّب فقط. وبهذا يدخل أبو طالب عم النَّبيّ (ﷺ) في الإيمان، فإنه قد قال:

ولقد علمتُ بأنَّ دين محمَّد من خير أديان البريَّة دينًا
لولا الملامة أو حذار مسبَّة لوجدتني سمحًا بذاك مبينًا

الثانية: وهم الأشاعرة والكلابية، قالوا: إنَّ الإيمان هو مجرد التصديق.

والكلابية: أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب، الذي اعتنق الأشعريُ مذهبه في طوره الثاني، وهذا المذهب يدرس الآن في الأزهر في مختلف المراحل الدراسية، يقول اللَّقاني صاحب جوهرة التوحيد[١]:

وفُسِّرَ الإيمانُ بالتصدِّيقِ والنُطقُ فيهِ الخُلْفُ بالتحقيقِ
فَقِيْلَ شَرطٌ كالعَمَلْ وَقِيْلَ بَلْ شَطْرٌ والاسلامُ اشْرَحَنَّ بِالعَمَلْ
مِثَالُ هذا الحَجُّ والصَّلاةُ كذا الصيامُ فَادْرِ والزكاةُ

والمعنى أن الإيمان عندهم يفسَّر بالتَّصديق، وهو أحد قولي الأشعري.

والقول الثاني عنده: أن الإيمان هو المعرفة.

---

(١) انظر: جوهرة التوحيد (بيت رقم ١٨).

وقوله: "**والنطق فيه الخُلفُ بالتحقيق**" أي: اختلف الأشاعرة المتأخرون في نطق اللسان، هل هو من أركان الإيمان؟ أم يصح بدونه؟ على أقوال عندهم.

الثالثة: وهم الكرَّامية، أتباع محمد بن كرام السجستاني، قالوا إنَّ الإيمان يكفي فيه النطق فقط ولو لم يصدق بقلبه أو يعمل بجوارحه، وعلى قولهم يكون المنافقون مؤمنين كاملي الإيمان!

الخامسة: وهو قول مرجئة الفقهاء، إن الإيمان لابدَّ فيه من تصديق القلب مع نطق اللسان، ولم يدخلوا فيه ركن العمل بالجوارح.

أما أهل السنة فيقولون: لابدَّ في الإيمان من القول والعمل، وقد بوَّب عليه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان، باب الإيمان قولٌ وفعلٌ ويزيد وينقص، وأتى فيه بالأدلة الكثيرة على ذلك.

الإيمان لابدَّ فيه من عدة أمور وهي:

الأمر الأول: قول القلب.

الأمر الثاني: قول اللسان.

الامر الثالث: عمل القلب.

الأمر الرابع: عمل الجوارح.

فقول القلب: هو اعتقاده بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر.

وقول اللسان: شهادتُه بالتوحيد، وقراءته للقرآن، والدعاء ونحو ذلك.

وعمل القلب: تصديقه ونيته وإخلاصه وخشوعه وخوفه وإنابته ووجله وتوكله ونحو ذلك.

وعمل الجوارح والأركان: بالصلاة والصوم والحج والزكاة ونحوها.

ثم استدل الإمام المجدد (رَحِمَهُ اللَّهُ) على هذا التقسيم بحديث أبي هريرة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ) أن النبي (ﷺ) قال: «**الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ - أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ - شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ**»[(١)]، **(البضع)**، العدد من الثلاثة إلى التسعة، و**(الشعبة)**، الجزء من الشيء، فبيَّن النَّبي (ﷺ) في هذا الحديث أنَّه لابدَّ في الإيمان من القول: قول القلب واللسان، وعمل القلب والجوارح.

(١) أخرجه البخاري (٩)، ومسلم (٣٥).

فقول القلب واللِّسان: كقول: **(لا إله إلا الله)** يقولها باللسان مصدقاً لها بقلبه، أي معتقداً لها وما دلت عليه، وإلا كان الشخص منافقاً.

وأشار بقوله: **(إماطة الأذى عن الطريق)**، لعمل الجوارح.

وأشار بقوله: **(الحياء شعبة من الإيمان)**، لعمل القلب، لأن الحياء عمل قلبي.

والمقصود هنا: الحياء الشرعي الذي يحجز المسلمَ عن المعصية، ويدفعه للطاعة.

فهذا الحديث من أدلة أهل السنة والجماعة على دخول الأعمال في مسمَّى الإيمان.

ومن الأدلة الواضحة التي استدلوا بها أيضاً: آيةُ البِّر في قوله تعالى: ﴿**لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُواْ**

وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة:١٧٧].

وبهذا يتبين أن أهل السنة هم أسعد الناس بالدليل في هذه المسألة، وبسط الأدلة ليس هذا موضعه، وقد رد البخاري (رَحِمَهُ اللَّهُ) في كتاب الإيمان على الطوائف المخالفة لأهل السنة في مسألة الإيمان بما لا مزيد عليه؛ لكن أكثر شراح البخاري كانوا من الأشاعرة فلم يوفُّوا البخاري حقه في إظهار مذهب أهل السنة والجماعة وقاموا بتأويل كلامه في ذلك في أكثر المواضع، فيجب على طالب العلم أن ينتبه لذلك، والله المستعان.

وقد بيَّنا مذهب البخاري(رَحِمَهُ اللَّهُ) في شرحنا على كتاب الإيمان من صحيحه يسر الله طبعه.

قوله: (وهو بضع وسبعون شعبة: فأعلاها قول لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان)، أراد بهذا الرد على طائفتين مخالفتين لأهل السنة والجماعة وهما:

الطائفة الأولى: المرجئة بكافة أصنافها، وهم الذين يُخرجون العمل من الإيمان.

الطائفة الثانية: الوعيدية، وهما الخوارج والمعتزلة الذين يقولون: الإيمان جزء واحد لا يتبعض، فإذا ذهب بعضه ذهب كله، وعندهم أن مرتكب الكبيرة إذا مات بدون توبة. فإنه مخلد في النار، هذا حكمه عندهم في الآخرة، أما في الدنيا:

فقالت الخوارج: هو كافر، وهذا القول يقول به الإباضية في عمان، وبعض نواحي الجزائر وغيرها.

وقالت المعتزلة: هو في منزلة بين منزلتين فليس بمؤمن ولا كافر.

أما أهل السنة والجماعة فيقولون: الإيمان يتبعض ويزيد وينقص، ينقص حتى يصير ضعيفًا جدًا كعود الثقاب أو أقل، ويزيد إلى ما شاء الله.

والدليل على ذلك: قوله تعالى: ﴿**وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾**﴾ [سورة محمد:١٧]، وقوله: ﴿**إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى**﴾ [سورة الكهف:١٣]؛ هذه الزيادة.

وأما النقصان:

فقد جاء في الحديث: **"مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الْحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ " قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ:**

" أَلَيْسَ شَهَادَةُ الْمَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ؟ "قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: "فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ، وَلَمْ تَصُمْ؟ "قُلْنَ: بَلَى. قَالَ: " فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا"[١].

وفي الحديث: «إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ الْخَلَقُ، فَسَلُوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ»[٢].

قال الإمام المجدد (رحمه الله):

(وأركانه ستة: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره. والدليل على هذه الأركان الستة: قوله تعالى: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ [سورة البقرة:١٧٧].

ودليل القدر: قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر:٤٩].

---

(١) أخرجه مسلم (٧٩).

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير (٨٤)، والحاكم في المستدرك (٥)، وقال الحاكم هذا حديث لم يخرج في الصحيحين ورواته مصريون ثقات، ووافقه الذهبي. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (١/٥٢) إسناده حسن. وقال المناوي (٢/٣٢٤): قال العراقي في أماليه: حديث حسن.

الإيمان بالله يتضمن الإيمان بأربعة أمور وهي:

الامر الأول: الإيمان بوجوده:

دلَّ على ذلك العقل، والفطرة، والشرع، والحس مع الواقع.

١) **أما دلالة العقل:** فلأن هذه المخلوقات المحدثةَ -أي: موجودة بعد أن لم تكن- الفقيرةَ بذاتها، لا بد لها من خالق، ولابد لها من مُحْدث لها، لأنها حادثة، فلم تخلق نفسها، ولم يخلق بعضها بعضاً، أو لم توجد بغير شيء، فلابد لها من خالق واحد وهو الله (سبحانه وتعالى).

وقد قال العربيُّ القديم الذي عاش في البادية: "البعرةُ تدل على البعير، والأثر يدل على المسير، فسماء ذات أبراج وبحار ذات أمواج، وأرض ذات فجاج، أفلا تدل على اللطيف الخبير! "

وهذا الدليل العقلي مذكور في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿**أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ**﴾ [سورة الطور:٣٥-٣٦]؛ ثمَّ تجد بعض السُّفهاء من البشر يقول بأن هذا الكون خُلق صدفة!! وهذا الكلام حكايته تغني عن رده؛ لأنَّ وجود هذا الكون على هذا النظام البديع والتناسق العظيم وارتباط الأسباب بالمسببات يستحيل أن يوجد صدفة، فالشمس تخرج كل يوم من المشرق وتغرُب من

المغرب، والقمر يكون بدراً في ليالي الإبدار، ولا يتخلف واحد منهما من طلوعه في وقته أو في غروبه منذ أن خلق الله الأرض، وهكذا في سائر الكواكب وغيرها، وقس على ذلك غيرها من المخلوقات، قال تعالى: ﴿**لَا ٱلشَّمۡسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدۡرِكَ ٱلۡقَمَرَ وَلَا ٱلَّيۡلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلّٞ فِي فَلَكٖ يَسۡبَحُونَ**﴾ [سورة يس:٤٠].

٢) **دليل الفطرة:** فكل مخلوق قد فطره الله على الإيمان بأن له خالقاً، ولا يُصرف عن هذه الفطرة إلا بصارف، كما في هذا الحديث: " **مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلاَّ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، وَيُنَصِّرَانِهِ، كَمَا تُنْتِجُونَ الْبَهِيمَةَ، هَلْ تَجِدُونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ، حَتَّى تَكُونُوا أَنْتُمْ تَجْدَعُونَهَا** "(١).

وقد ذكر أحمد بن فضلان في رحلته إلى بلاد الترك والروس والصقالبة قال: "وإذا ظلم أحد منهم أو جرى عليه أمر يكرهه رفع رأسه إلى السماء وقال: بير تنكري، وهو بالتركية الله الواحد لأن بير بالتركية واحد وتنكري: الله بلغة الترك. ولا يستنجون من غائط ولا بول ولا يغتسلون من جنابة ولا غير ذلك،

(١) أخرجه البخاري (٦٥٩٩)، ومسلم (٢٦٥٨).

وليس بينهم وبين الماء عمل خاصة في الشتاء، ولا يستتر نساؤهم من رجالهم ولا من غيرهم، كذلك لا تستتر المرأة شيئا من بدنها عن أحد من الناس"(١).

وذكر ابن القيم في كتابه **(اجتماع الجيوش الإسلامية)** أن بعض البهائم عندما تلدُ ترفع قوائمها إلى السماء.

وروى الحاكم من حديث أبي هريرة قال: سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: **"خَرَجَ نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يَسْتَسْقِي، فَإِذَا هُوَ بِنَمْلَةٍ رَافِعَةٍ بَعْضَ قَوَائِمِهَا إِلَى السَّمَاءِ، فَقَالَ: ارْجِعُوا فَقَدِ اسْتُجِيبَ لَكُمْ مِنْ أَجْلِ شَأْنِ النَّمْلَةِ"**(٢).

٣) دليل الشَّرع، من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن جميع الكتب السماوية نطقت وشهدت وجاءت بإثبات الخالق (جل وعلا).

---

(١) انظر: رحلة ابن فضلان إلى بلاد الترك والروس والصقالبة صـ٦٢.

(٢) أخرجه الدارقطني في السنن (١٧٩٧)، والحاكم في المستدرك (١٢١٥) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه.

الوجه الثاني: أنَّ الأحكام الموجودة في الشرائع والتي بلغت الغاية في الحكمة والإتقان ومراعاة مصالح العباد في الدنيا والآخرة دلت على أنها جاءت من لدن حكيم خبير بمصالح عباده في الدنيا والآخرة.

الوجه الثالث: الأخبار الصادقة عما حدث في الأمم الماضية وعما سيحدث في المستقبل من الغيبيات، وهو الذي يقع في دنيا الناس يوما بعد يوم، ويشاهده القاصي والداني كل ذلك دليل على أنها جاءت من عند خالق هذا الكون ومالكه وموجده (سبحانه وتعالى).

٤) دليل الحسَّ: وهو من جهتين:

الجهة الأولى: إجابة الداعين وإغاثة المنكوبين وشفاء المرضى، وإعطاء السائلين، في الأمم الماضية، وفي الحاضر، كل ذلك يدل على وجود رب قدير قادر يجيب هؤلاء، قال تعالى: ﴿وَنُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِن قَبْلُ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَنَجَّيْنَٰهُ وَأَهْلَهُۥ مِنَ ٱلْكَرْبِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٧٦﴾ وَنَصَرْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة الأنبياء:٧٦-٧٧].

وقوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [سورة الأنفال:٩]، وغيرها كثير، ولا يزال هذا الأمر مشهودًا في دنيا الناس معروفًا لا ينكره أحد لا مؤمن ولا كافر.

الجهة الثانية: المعجزات التي جاءت بها الرسل، وقالوا إن الله أرسلهم بها تدل على وجود الله تعالى، لأنها أمور خارجة عن طاقة البشر جعلها الله تأييدا لرسله، والتي يقر بها العالم، ومن ذلك:

- طوفان نوح.
- عصا موسى.
- آيات عيسى الذي كان يحيي الموتى ويخرجهم من قبورهم بإذن الله.
- وما حصل من نبينا محمد (ﷺ) من البراهين الكثيرة سبق ذكر بعضها، وأعظمها القرآن الكريم وهو الآية الباقية إلى قيام الساعة.

الأمر الثاني: أنَّ الإيمان بالله يتضمن الإيمان بربوبيته.

- **وتوحيد الربوبية**: هو إفراد الله تعالى بأفعاله كالخلق والرزق، والتدبير، وهذا لا ينكره إلا مكابر كما حصل من فرعون، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾ [سورة النمل:١٤].

الأمر الثالث: أنَّ الإيمان بالله تعالى يتضمن الإيمان بألوهيته.

- **وتوحيد الألوهية**: هو إفراد الله تعالى بأفعال العباد، وإخلاص التوحيد والعبادة له (سبحانه وتعالى)، فلا تصرف العبادة لغيره كائناً من كان، قال تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [سورة البقرة:١٦٣].

الأمر الرابع: الإيمان بالله تعالى يتضمن الإيمان بأسمائه الحسنى وصفاته العلى.

- **وتوحيد الأسماء والصِّفات هو**: إثبات ما أثبته الله لنفسه وما أثبته له رسوله (صلى الله عليه وسلم)، ونفيُ ما نفاه الله عن نفسه أو نفاه عنه رسوله (صلى الله عليه وسلم) من غير تكييف ولا تمثيل، ومن غير تحريف ولا تعطيل.

استشكال وجوابه: المعطلة والمؤولة يقولون: إذا أثبتنا الصِّفات لله (جَلَّ وَعَلَا) فإنه يلزم من ذلك تشبيه الخالق بالمخلوق.

- والرد عليهم بأربع قواعد ذكرها شيخ الإسلام ابن تيميةرَحِمَهُ اللَّهُ في الرسالة التدمرية:

القاعدة الأولى: أنَّ الكلام في الصِّفات كالكلام في الذات.

فإذا أثبت المعطل لله (عَزَّ وَجَلَّ) ذاتاً على ما يليق به سبحانه، لا تشبه ذوات المخلوقين، فقل له: يجب عليك أن تثبت لهذه الذات صفات على ما يليق به، لا تشبه صفات المخلوقين.

- قال بعض السلف: إذا قال لك المعطلُ: كيف ينزل؟ فقل: كيف هو؟!، فسيسكت لزامًا.

القاعدة الثانية: الكلام في بعض الصِّفات كالكلام في البعض الآخر.

فمن أثبت صفة أو أكثر كالأشاعرة الذين يثبتون سبع صفات، ويؤولون الباقي، فنقول لهم لماذا أثبتم هذه الصفات السبع؟ ألا يلزم من ذلك التشبيه؟ فيقولون: لا، نحن نثبتها على ما يليق به سبحانه، فنقول لهم: أثبتوا باقي الصِّفات على ما يليق به سبحانه، كالرحمة والإتيان والمجيء والسَّخَط والمحبة

وغير ذلك مما يؤولونه، وهو موجود في غالب كتب التفاسير فإن الكثير منها على مذهب الأشاعرة أو المعتزلة، فيجب على طالب العلم الحذرُ أثناء قراءتها.

- ومن تفاسير أهل السنة: (جامع البيان عن تأويل آي القرآن للإمام ابن جرير الطبري- تفسير القرآن العظيم لابن كثير - أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشنقيطي - تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان للسعدي -وتفسير ابن عثيمين - وما جُمع من تفسير ابن القيم وشيخ الإسلام ابن تيمية وغيرها).

القاعدة الثالثة: أنَّ الاشتراك في الاسم لا يلزم منه الاشتراكُ في المسمَّى: في كيفيته: أو في تمام الصفة.

فنثبت للخالق (ﷻ) السَّمعَ والبصر على وجه التَّمام والكمال، والمخلوق نثبت له السَّمع والبصر على وجه النقص والعجز والحاجة، قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ۝٢﴾ [سورة الإنسان:٢]، وقس على ذلك.

والاختلاف والتغاير موجود بين المخلوقات نفسها، فبصر الإنسان ليس كبصر الذباب، أو البعوض أو النمل أو البعير، قال ابن عباس (رضي الله عنهما): " **لَيْسَ**

فِي الْجَنَّةِ مِمَّا فِي الدُّنْيَا إِلَّا الْأَسْمَاءُ"(١) يعني ما ذكر الله مما في الجنة من الماء واللبن والخمر والعسل والفاكهة ونحو ذلك مما هو معروف عندنا باسمه وطعمه ولونه؛ فحقيقة هذه الأشياء في الجنة تفوق الوصف، فلا يستطيع اللسان أن يعبر عن كيفيتها وحلاوتها وحقيقة طعمها، فلا يعلم ذلك إلا الله (ﷻ).

فإذا كان هذا التفاوت العظيم موجودًا بين مخلوق تراه في الدنيا وآخر لا يُرى إلا في الآخرة، فالتفاوت بين الخالق والمخلوق بلا شك أعظمُ وأعظم، فإن اشتركا في أصل الصِّفة فإنهما يختلفان في تمام المعنى، وكماله، وكيفيته.

القاعدة الرابعة: ما من شيئين في الوجود إلا بينهما قدرٌ مشترك وقدر فارق، فنفيُ القدر المشترك يلزم منه التعطيل، ونفيُ القدر الفارق يلزم منه التشبيه.

مثال: الإنسان والحيوان، أو الإنسان والسيارة، بينهما قدر مشترك وهو: الوجود، فوجودهما معلوم، فهذا هو الإنسان وهذه هي السيارة، فإذا نفينا هذا

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في التفسير (٢٦٠)، وهناد في الزهد (٣)، وابن حزم في الفِصَل (١٨٠/٢) وقال: (هذا سند في غاية الصحة) -، وقال المنذري في (الترغيب) (٥٦٠/٤): (رواه البيهقي موقوفا بإسناد جيد).

القدر المشترك وهو الوجود: لزم التعطيل، فيلزم أن السيارة غير موجودة أو أنَّ الإنسان غير موجود.

ثم إن بينهما قدرًا فارقًا وهو: التمْيِيز، أي أن الإنسان متكلم عاقل سميع بصير حي، والسيارة ليست كذلك، فإذا نفينا هذا القدر الفارق شبهنا الإنسان بالسيارة، وهذا باطل.

قوله (رَحِمَهُ اللَّهُ): (وأركانه ستة: ...وملائكته).

الملائكة لغة:

جمع ملك وأصلها ملأك ثم خففت، وهي مأخوذة من الألوكة وهي الرسالة؛ لأن الله تعالى يرسلهم إلى من شاء من خلقه وليس كل من جاءه الملك يكون رسولًا أو نبيًا كما في قصة مريم عندما تمثل لها الملك بشرًا سويًا وبشرها بعيسى (عَلَيْهِ السَّلَامُ).

والملائكة في الاصطلاح:

هم عالم غيبي مخلوقون، خلقهم الله من نور ولهم صفات خُلُقِية وخَلْقِية.

فمن صفاتهم الخُلُقية: أنهم كرام بررة، ومن صفاتهم الخُلُقية الحياء كما في

الحديث في شأن عثمان (رضي الله عنه) أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال: «**أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ يَسْتَحْيِ مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ**»(١).

ومن صفاتهم الخَلْقية:

القوة على القيام بأمر الله، وأنهم لا يأكلون، ولا يشربون، وليس بينهم نكاح، وأن لهم أجنحةً مثنى وثلاث ورباع والله يزيد في الخلق ما يشاء.

ومن صفاتهم:

أنهم يعبدون الله (جل وعلا) ولا يملون من عبادته، ولا يستكبرون، ويسبحون الليل والنهار لا يفترون.

عدَّتهم:

وعددهم كثير جدا لا يحصيهم إلَّا الله تبارك تعالى، وقد جاء في حديث المعراج أنَّ النَّبي (عليه الصلاة والسلام) قال: "**فَرُفِعَ لِي البَيْتُ المَعْمُورُ، فَسَأَلْتُ**

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠١).

جِبْرِيلَ، فَقَالَ: هَذَا البَيْتُ المَعْمُورُ يُصَلِّي فِيهِ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، إِذَا خَرَجُوا لَمْ يَعُودُوا إِلَيْهِ آخِرَ مَا عَلَيْهِمْ"[١] متفق عليه.

وهم درجات عند الله، وأعظمهم أمين الوحي جبريل (عَلَيْهِ السَّلَامُ).

والإيمان بالملائكة يتضمن إجمالاً الإيمان بعدة أمور:

١) الإيمان بوجودهم وخلقهم من نور على ما سبق. وفيه الرد على من ينكر ذلك.

٢) الإيمان بما عُلِم من أسمائهم. كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومالك خازن النار، وكذلك الإيمان ببقيتهم ممن لم يذكر اسمه.

٣) الإيمان بصفاتهم التي وردت.

٤) الإيمان بوظائفهم وأعمالهم. فجبريل أمين الله على وحيه، وميكائيل مكلف بالقطر، وإسرافيل صاحب الصور، ومالك خازن النار، وملك الموت الذي يقبض أرواح العباد وليس اسمه عزرائيل وإنما هذا من أخبار بني إسرائيل، وملائكة القبر منكر ونكير، وملائكة يحفظون العبد أن يصيبه ما لم يقدر له، والكرام الكاتبون: عن اليمين ملك يكتب الحسنات وعن الشمال ملك يكتب السيئات،

---

(١) أخرجه البخاري (٣٢٠٧)، ومسلم (١٦٤).

وملائكة يتتبعون حلق الذكر فيحيطون بها ويستمعون لها، وملائكة يتعاقبون للناس في صلاتي الفجر والعصر، وملائكة تستغفر للمؤمنين ويدعون الله لهم كما في أول سورة غافر، وملائكة يصلون على المتسحرين وأهل الصف الأول في الصلاة وغير ذلك، فيجب الإيمان بما علمنا من هذه الوظائف وغيرها.

ثمرات الإيمان بالملائكة:

١-بيان عظمة الله تعالى؛ لأن عظمة الملائكة تدل على عظمة من خلقهم.

٢-محبة الملائكة لما يقومون به من عبادة الله تعالى ومن وظائفهم تجاه بني آدم.

٣-الاجتهاد في عبادة الله تعالى اقتداء بهم وإن كان العبد لن يبلغ مبلغهم.

قال رحمه الله: (وأركانه ستة: وكتبه...). هذا هو الركن الثالث من أركان الإيمان وهو الإيمان بالكتب.

والكتب لغة:

جمع كتاب، على وزن فعال بمعنى مكتوب على وزن مفعول والكَتْبُ في اللغة هو الجمع والضّم، ومنه الكتيبة التي يجمع فيها الجنود بعضها إلى بعض، ومنه الكتاب؛ لأنه تجمع فيه الحروف والكلمات.

والكتب التي نزلت من عند الله وعلمنا أسماءها في القرآن ستة وهي:

١- التوراة.

٢- والإنجيل.

٣- والزبور.

٤- وصحف إبراهيم.

٥- وصحف موسى على خلاف هل هي التوراة أو غيرها.

٦- والقرآن العظيم وهو: الكتاب الخاتم المهيمن على جميع الكتب السابقة.

الإيمان بالكتب يشتمل على عدة أمور:

١-الإيمان أنها نزلت من عند الله تعالى.

٢-الإيمان بكلام الله تعالى، وأنه يتكلم بصوت وحرف يسمع؛ لأن هذه الكتب حروف وكلمات، وفي هذا رد على الأشاعرة والكلابية الذين يعطلون صفة الكلام ويقولون بالكلام النفسي القديم، أو المعنى القائم بالذات والله (ﷻ) نادى موسى وكلمه، وسمع موسى (عليه السلام) كلام ربه تعالى في الوادي المقدس وطلب منه الرؤية، والله (ﷻ) إذا أحب عبدا "**دَعَا جِبْرِيلَ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبَّهُ، قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، قَالَ ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ، قَالَ فَيُبْغِضُهُ جِبْرِيلُ،**

ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ، قَالَ: فَيُبْغِضُونَهُ، ثُمَّ تُوضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ "(١).

والأدلة على إثبات صفة الكلام كثيرة في الكتاب والسنة منها:

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [سورة التوبة:٦].

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلًا﴾ [سورة النساء:١٢٢]. أي قولا.

وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا﴾ [سورة النساء:٨٧].

وقد أنكر الله على من عبدوا العجل فقال: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [سورة طه:٨٩]، أي لا يستطيع الكلام ولا يملك الضر والنفع، وهذه المسألة تحتاج إلى عناية من طالب العلم.

٣-العمل بالأحكام التي لم تنسخ مما في كتاب الله تعالى.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٣٧)، وروى البخاري أوله (٦٠٤٠، ٧٤٨٥).

٤-الإيمان بأن القرآن الكريم هو المهيمن والناسخ لجميع الكتب السابقة، فيجب الإيمان به على كل من بلغه سواء كان من اليهود أو النصارى أو غيرهم.

ثمرات الإيمان بكتب الله:

١) بيان عناية الله تعالى ورحمته بخلقه. حيث أنزل لهم كتبا ليتعبدوا بها ويهتدوا بها لأنه لو ترك لكل إنسان أن يتعبد بحسب عقله أو رأيه لأصبحت العبادات بعدد أنفاس الخلائق، وهذا فيه رد على المبتدعة من الصوفية وغيرهم الذين يقولون الطرق إلى الله بعدد أنفاس الخلائق أي أن كل واحد عندهم يعبد الله كما يشاء.

٢) بيان عظم حكمة الله (ﷻ) لما في هذه الكتب من الإحكام والأحكام الصالحة للعباد في كل زمان ومكان.

قال (رحمه الله): (وأركانه ستة: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، ...وَرُسُلِهِ ...)، هذا هو الركن الرابع من أركان الإيمان وهو الإيمان بالرسل.

الرسل لغة:

جمع رسول وهو المبعوث بإبلاغ شيء.

وفي الاصطلاح:

هو ذكر أوحي إليه بشرع وأمر بتبليغه لقوم مخالفين، وقد يأتي بشرع من قبله بخلاف النبي فهو من أوحي إليه بشرع ليعمل به أو ليبلغه قومه، فالرسول والنبي كلاهما مرسل قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٢﴾ [سورة الحج:٥٢]، وفي بعض الكتب أن الرسول لم يؤمر بالبلاغ وهذا خلاف ظاهر الآية.

والقاعدة: (أنَّ كل رسول نبي وليس كل نبي رسولا)، وقد ورد حديث في صحيح ابن حبان في بيان عدد الأنبياء والرسل والأكثرون على تضعيفه وصححه الألباني في الصحيحة بشواهده(١)، وذُكر في هذا الحديث أن عدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبيٍ، وعدد الرسل ثلاثمائة وبضعة عشر رسولاً، وقد ذُكر منهم في القرآن الكريم خمسة وعشرون في سورة الأنعام منهم ثمانية عشر وهم على الترتيب:

١- إبراهيم.

٢- وإسحاق.

---

(١) انظر: الصحيحة ح رقم (٢٦٦٨).

٣- ويعقوب.

٤- ونوح.

٥- وداود.

٦- وسليمان.

٧- وأيوب.

٨- ويوسف.

٩- وموسى.

١٠- وهارون.

١١- وزكريا.

١٢- ويحيى.

١٣- وعيسى.

١٤- وإلياس.

١٥- وإسماعيل.

١٦- واليسع.

١٧- ويونس.

١٨- ولوط.

والسبعة الباقون هم:

١٩- آدم.

٢٠- وشعيب.

٢١- وإدريس.

٢٢- وذو الكفل.

٢٣- وهود.

٢٤- وصالح.

٢٥- ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومنهم أولو العزم الخمسة وهم:

- نوح.

- وإبراهيم.

- وموسى.

- وعيسى.

- ومحمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

والرسل والأنبياء هم بشر مخلوقون عابدون لله (جل وعلا) لا يُعبَدون مع الله وليس لهم شيء من خصائص الربوبية والألوهية، قال سيد المرسلين فيما أخبر

عنه ربه (جل وعلا) ﴿قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [سورة الأعراف:١٨٨].

والأنبياء والرسل يلحقهم ما يلحق البشر من الجوع والعطش والمرض، قال تعالى عن إبراهيم (عليه السلام) ﴿وَإِذَا مَرِضۡتُ فَهُوَ يَشۡفِينِ﴾ [سورة الشعراء:٨٠].

وهذا فيه رد على القبوريين الذين يذهبون إلى قبور الأنبياء والصالحين ويصرفون لهم أنواع العبادات والقرب التي لا تصلح إلا لله تعالى.

وقد وصفهم الله تعالى بالعبودية في أكثر من موضع:

فقال تعالى عن نوح (عليه السلام): ﴿ذُرِّيَّةَ مَنۡ حَمَلۡنَا مَعَ نُوحٍۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا﴾ [سورة الإسراء:٣].

وقال تعالى عن إبراهيم (عليه السلام): ﴿وَٱذۡكُرۡ عِبَٰدَنَآ إِبۡرَٰهِيمَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ أُوْلِي ٱلۡأَيۡدِي وَٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾ [سورة ص:٤٥].

وقال عن عيسى (عليه السلام): ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ ۝٥٩ وَلَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ﴾ [سورة الزخرف:٥٩-٦٠].

الإيمان بالرسل يتضمن عدة أمور وهي:

١-الإيمان بهم جميعًا فلا يجوز تكذيب أحد منهم، ولا نفرق بين أحد من رسله.

٢-الإيمان إجمالاً بما أجمل منهم وبعددهم، والإيمان تفصيلا بما ذكر لنا منهم.

٣-تصديق ما صح من أخبارهم مما ورد بالنقل الصحيح عنهم.

٤-العمل بشريعة من أرسل إلينا منهم وهو الرسول الخاتم (عليه الصلاة والسلام).

ثمرات الإيمان بالرسل:

١-بيان رحمة الله تعالى وعنايته بخلقه حيث لم يؤاخذهم بغتة بل أرسل إليهم رسلا ليعلموهم ويبشروهم وينذروهم قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ

﴿حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [سورة الإسراء:١٥]، ولم يقل حتى نخلق عقولاً كما يزعم المعتزلة وغلاة التكفير أن الفطرة كافية في إقامة الحجة على الناس.

والصواب ما ورد في الآية السابقة أنه لا بد مع الفطرة من البلاغ بإنزال الكتب وإرسال الرسل.

٢-محبة هؤلاء الرسل وتوقيرهم وتعظيمهم؛ لأنهم نصحوا أممهم وجاهدوا في الله وفي الدعوة إليه غاية المجاهدة، وعبدوا الله تعالى كما يحب ويرضى.

٣-شكر الله تعالى على هذه النعمة.

قوله: (وأركانه ستة: ... وَالْيَوْمِ الآخر ...)

هذا هو الركن الخامس من أركان الإيمان، وهو الإيمان باليوم الآخر وما فيه من البعث والحشر، ولقاء الله تعالى.

وسمي بهذا الاسم:

لأنه لا يوم بعده؛ فالناس إما منعَّمون في الجنان، أو معذَّبون في النيران والعياذ بالله تعالى.

الرد على منكري البعث:

وقد أنكر قوم البعث بعد الموت، فردَّ الله عليهم في مواضع عدة من كتابه ففي سورة البقرة وحدها خمسة أمثلة نذكرها باختصار وهي:

١-في قصة قتيل بني إسرائيل لما أمرهم الله (ﷻ) أن يذبحوا بقرة ليضربوه ببعضها ليذكر من قتله فأحياه الله وذكر قاتله.

٢-في قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم.

٣-في قصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه، وبعد ذلك أراه كيف يحيي الله الحمار الذي كان معه شيئا فشيئا.

٤-في قصة إبراهيم (عليه السلام) عندما طلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى فأمره أن يأخذ أربعة من الطير فيقطعهن قطعا قطعًا فيضع في كل جبل منهن جزءا ثم يدعوهن فيأتينه تطير وتسعى.

٥-في قصة بني إسرائيل لما طلبوا من موسى أن يروا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة ثم بعثهم الله من بعد موتهم.

هذا من الناحية النقلية في إثبات البعث بعد الموت.

أما من الناحية العقلية: فمن المعلوم أنَّ إعادة الخلق أهون من ابتدائه قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [سورة الروم:٢٧].

وأيضا من الأمثلة المشاهدة: أن الأرض تكون ميتة جدباء لا حياة فيها فإذا نزل عليها الماء اهتزت وربت فكذلك يحيي الله الموتى.

وأيضا من الحكمة: أنه لا بد أن يوجد يوم يؤخذ فيه من الظالم للمظلوم ويثاب فيه المؤمنون ويعذب فيه الكافرون وإلا لكان لا فائدة من الإيمان والعمل الصالح غير التعب والنصب قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [سورة ص:٢٧-٢٨].

وقال تعالى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَن لَّن يُبْعَثُوا۟ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة التغابن:٧].

الإيمان باليوم الآخر يتضمن إجمالا الإيمان بعدة أمور وهي:

١-الإيمان بما بعد الموت من فتنة سؤال القبر، وفتنة الملكين قال تعالى: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْءَاخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [سورة إبراهيم:٢٧]؛ أي عند الاحتضار وعند سؤال الملكين ومعنى (القول الثابت) أي الذي ثبت في قلوبهم وثبتوا عليه واطمأنوا به وهو التوحيد.

٢-الإيمان بعذاب القبر ونعيمه وأن القبر إما أن يكون روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار كما في حديث البراء بن عازب الطويل وفيه **"قَالَ: فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ قَدْ صَدَقَ عَبْدِي، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ " قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطِيبِهَا» قَالَ: «وَيُفْتَحُ لَهُ فِيهَا مَدَّ بَصَرِهِ» قَالَ: «وَإِنَّ الْكَافِرَ» فَذَكَرَ مَوْتَهُ قَالَ: " وَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ، وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هَاهْ هَاهْ، لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ: أَنْ كَذَبَ، فَأَفْرِشُوهُ مِنَ النَّارِ، وَأَلْبِسُوهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ " قَالَ:**

«فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسَمُومِهَا» قَالَ: «وَيُضَيَّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ»(١).

٣-االإيمان بالبعث بعد الموت والحشر والنشور، وفي ذلك أدلة كثيرة.

٤-الإيمان بالحوض والميزان والشفاعة وهذه تكون في عرصات القيامة وأرض المحشر.

٥-الإيمان بالحساب والجزاء وتطاير الصحف فآخذ كتابه بيمينه وآخذ كتابه بشماله.

٦-الإيمان بالصراط والجنة والنار قال تعالى: ﴿**فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَـٰفِرِينَ**﴾ [سورة البقرة:٢٤].

وقال في الجنة ﴿**فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ**﴾ [سورة السجدة:١٧].

ثمرات الإيمان باليوم الآخر:

١-الرَّغبة في عمل الصالحات.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٧٥٣) وصححه الألباني، وأصله في الصحيحين من حديث أنس وأبي هريرة (رضي الله عنهما).

٢-الرَّهبة من المعاصي والموبقات.

٣-تسلية أهل الإيمان عما يصيبهم في الدنيا من الفتن والمحن وعما يفوتهم من أمر الدنيا فقد جاء في الحديث: «**الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ، وَجَنَّةُ الْكَافِرِ**».[١]

قوله: (وأركانه ستة: ...وتؤمن بالقدر خيره وشره).

هذا هو الركن السادس من أركان الإيمان، وهو الإيمان بالقدر خيره وشره حلوه ومره.

القدر في اللغة:

تهيئة الشيء لما يصلحه، أو الإحاطة بالشيء، تقول: قدرت الشيء أقدره قدرا، يعني: أحطت بجوانبه.

والقدر اصطلاحا:

تقدير الله للكائنات بحسب ما سبق في علمه واقتضت الحكمة.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٩٥٦).

قال ابن عباس (رضي الله عنهما): **«الْإِيمَانُ بِالْقَدَرِ نِظَامُ التَّوْحِيدِ فَمَنْ آمَنَ بِاللهِ وَكَذَّبَ بِالْقَدَرِ فَهُوَ نَقْضٌ لِلتَّوْحِيدِ»**[١] أي: لا ينتظم توحيد العبد إلا بالإيمان بالقدر.

وقال عليٌّ (رضي الله عنه): **"الْقَدَرُ سِرُّ اللهِ؛ فَلَا تَكَلَّفُوهُ "**[٢].

وقال الإمام أحمد (رحمه الله): القدر هو قدرة الرحمن، أي: الإيمان بالقدر إيمان بأن الله على كل شيء قدير ولا يعجزه شيء.

وقال ابن القيم (رحمه الله) في النونية:

وحقيقة القدر الذي حار الورى ... في شأنه هو قدرة الرحمن

واستحسن ابن عقيل ذا من أحمد ... لما حكاه عن الرضا الرباني

قال الإمام شفا القلوب بلفظة ... ذات اختصار وهي ذات بيان

---

(١) أخرجه عبد الله في السنة (٩٢٥، ٩٢٨)، والفريابي في القدر (٢٠٥)، والآجري في الشريعة (٤٥٦)، واللالكائي (١٢٢٤).

(٢) أخرجه الآجري في الشريعة (٥٣٥).

فأهل السنة والجماعة يؤمنون بأن كل شيء بقدر، أي: مقدر، كما سيأتي، وأفعال العباد مخلوقة لله تعالى، وهي كذلك اختيار من العبد وفعله، لذلك يثاب العبد أو يعاقب عليها.

وقد وجد في أواخر عهد الصحابة (رضي الله عنهم) أناس هم أول من كذب بالقدر في العراق، على رأسهم معبد الجهني، وهو أول من كذب بالقدر ونفى علم الله السابق، وأن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها، فتبرأ منه عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) وقتله الحجاج بن يوسف الثقفي، وحديثه وقصته في أول حديث من صحيح الإمام مسلم.

مذاهب الناس في القدر:

الأول: القدرية النفاة، وهم على مرتبتين:

المرتبة الأولى: نفاة العلم، وقد انقرضوا كما ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله).

المرتبة الثانية: نفاة الإرادة والمشيئة، وهم الذين يقولون: إن العبد مستقل بفعل نفسه دون إرادة الله ومشيئته، وهو الذي يخلق فعل نفسه، والله تعالى لا يقدر على فعل العبد ولم يشأه، فهؤلاء مجوس هذه الأمة؛ لأن المجوس أثبتوا

خالقَيْن، وهؤلاء أثبتوا خالِقِين، فكل عبد عندهم يخلق فعل نفسه، وهؤلاء هم المعتزلة، ولا زالت عقيدتهم موجودة وكتبهم موجودة أيضا.

المذهب الثاني: القدرية الغلاة، وهم على مرتبتين:

الأولى: الجبرية، وهم الذين يقولون: إن العبد مجبور على فعله، وليس لديه أي قدرة عليه، فالعبد كالريشة في مهب الريح، أو كحركة الأغصان، فهو مجبور على فعله، وهذا مذهب الجهم ومن تبعه، وهم بهذا يتهمون الرب تعالى بالظلم؛ لأنه جبر العبد على أفعاله ثم يعاقبه عليها، وقد حرم الله الظلم على نفسه، وقال في الحديث القدسي: "**يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلاَ تَظَالَمُوا**"(١)، وقال تعالى: ﴿**وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ [سورة فصلت:٤٦].

وهذا أيضا يتنافى مع الحكمة من خلق الجنة والنار، ووجود الحساب والميزان، فقولهم هذا واضح البطلان؛ لأنَّ كل إنسان يرى من نفسه المشيئة والاختيار لما يريده، كرجل يريد أن يصلي فيخرج ويمشي ويختار المسجد بإرادته الكاملة، وآخر يريد أن يسرق فيخرج ويمشي ويختار المكان الذي يريد

---

(١) أخرجه مسلم (٢٥٧٧).

أن يسرق منه بإرادته الكاملة، فلا أحد أجبر الأول على دخول المسجد ولا أحد أجبر الثاني على السرقة، وقد أتي عمر بن الخطاب برجل سرق فلما أراد أن يقطع يديه قال: يا أمير المؤمنين إنما سرقت بقدر الله، فقال له عمر: وأنا أقطع يدك بقدر الله.

المرتبة الثانية: الأشاعرة الذين يقولون بالكسب الأشعري، وهذا المذهب يدرس في المعاهد الأزهرية في مراحلها المختلفة، والأشاعرة مختلفون في معنى الكسب، ولكن يقرب معناه أن العبد في الظاهر هو الذي يكسب الفعل وفي الباطن هو مجبور عليه، وأهل العلم يسمونهم الجبرية المتوسطة، فهذا قول بالجبر لكنه مبطن والرد عليهم بما سبق.

المذهب الثالث: أن كل شيء خلقه الله بقدر ولا يخرج أبدا عن قدره، وهو الذي خلق للعبد إرادة وقدرة يوجد بها الفعل، وبناء على اختيار العبد لما يريد يوجد الفعل وعليه يثاب أو يعاقب، وكل هذا لا يخرج عن مشيئة الله (جل وعلا) وإرادته، وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [سورة الإنسان: ٣٠].

الإيمان بالقدر يتضمن الإيمان بأربعة أشياء:

١-الإيمان بعلم الله الشامل لكل شيء جملة وتفصيلا في الماضي والحاضر والمستقبل.

٢-الإيمان بأن الله كتب ذلك في اللوح المحفوظ، فقد جاء في الحديث الصحيح عن **عبد الله بن عمرو بن العاص** (رضي الله عنهما)، **قال: سمعت رسول الله** (ﷺ)، **يقول: "كَتَبَ اللهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ، قَالَ: وَعَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ"**[1].

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة الحج:٧٠].

٣-الإيمان بمشيئة الله (جل وعلا) النافذة، والتي لا يخرج عنها شيء، قال تعالى: ﴿وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ [سورة إبراهيم:٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَٰتَلُوكُمْ﴾ [سورة النساء:٩٠].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٦٥٣).

٤-الإيمان بأن جميع المخلوقات خلقها الله تعالى بعد أن لم تكن، قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢]، وقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وقد جمع بعض أهل العلم هذه الأمور الأربعة في قوله:

علم كتابة مولانا مشيئته   خلق وهو إيجاد وتكوين

مسألة: هل يجوز الاحتجاج بالقدر على المصائب، والمعايب؟

قال العلماء: يجوز الاحتجاج بالقدر في المصائب، ولا يجوز الاحتجاج بالقدر في المعايب، ومعنى هذا أن الإنسان إذا حدثت له مصيبة كحادث سيارة أو مرض أو ذهاب مال ونحو ذلك يجوز له أن يحتج بالقدر فيقول: قدَّر الله وما شاء فعل، أما إذا ارتكب الإنسان ما يعاب عليه من المعاصي والسيئات والآثام فإذا جاء أحد ينصحه فلا يجوز له عندئذ أن يحتج بالقدر على ارتكاب المعايب والمعاصي، كما كان يفعل أهل الجاهلية، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [سورة الأنعام:١٤٨].

وبعض الناس الآن إذا دعوته للصلاة قال لك: لو شاء الله لهداني أو لو شاء الله لصليت، فهذا احتجاج باطل؛ لأنه لم يطلع على القدر ولا يعلم ما في اللوح، فيجب عليه أن يمتثل للأمر وينتهي عن النهي ويستغفر من الذنب.

مسألة: ما معنى قول العلماء أنت عند المعصية جبري، وعند الطاعة قدري[١]؟

معناه: أن بعض الناس إذا فعل معصية احتج بالقدر كما سبق، وإذا فعل طاعة أسندها لنفسه.

مسألة: هل الإنسان مسيَّر أم مخيَّر؟

الجواب: قال (ﷺ): "مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ، مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ، إِلاَّ وَقَدْ كَتَبَ اللهُ مَكَانَهَا مِنَ الْجَنَّةِ وَالنَّارِ، وَإِلاَّ وَقَدْ كُتِبَتْ شَقِيَّةً أَوْ سَعِيدَةً قَالَ: فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله أَفَلاَ نَمْكُثُ عَلَى كِتَابِنَا، وَنَدَعُ الْعَمَلَ؟ فَقَالَ: " مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ فَسَيَصِيرُ إِلَى عَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ، فَقَالَ: "اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ، أَمَّا أَهْلُ السَّعَادَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا أَهْلُ الشَّقَاوَةِ فَيُيَسَّرُونَ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ" ثُمَّ قَرَأَ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ

(١) انظر: منهاج السنة النبوية ٣/١٠.

﴿٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾.[(١)]، وهذا معناه أن الإنسان ميسر لما خلق له، وليس مسيرا أو مخيرا، فيستعين بالله ويصدع بالأوامر ويبتعد عن النواهي ويأتي بالأسباب المأمور بها متوكلا على الله، فإن الله تعالى سييسره لليسرى، والعكس بالعكس.

وبعض العلماء يقول: هو مسير في أمور ليس له فيها اختيار كوقت ولادته ووفاته وما يجري عليه من أمور القدر كالقحط والغيث والحر والبرد ونحو ذلك، وهو مخير في الأمور التي فيها اختيار وتحتاج إلى إرادة ومشيئة، كفعل الطاعة أو المعصية، أو الإحسان أو الإساءة ونحو ذلك، فلو أن إنسانا جاء ليأخذ منك مالا بالقوة لدفعته بالقوة أيضا بمشيئتك واختيارك، ولو أردت سفرا فرأيت طريقين أحدهما فيه اللصوص والذئاب والآخر مأمون لسلكت الطريق المأمون وتركت الأول، ولو أن العبد مرض لبحث عن الدواء الذي فيه الشفاء وامتنع عن أخذ ما يضره.

ثمرات الإيمان بالقدر:

١-ما يحدث للنفس من راحة وطمأنينة بما يجري من أقدار الله تعالى التابعة لحكمته ورحمته (جل وعلا).

---

(١) أخرجه البخاري (١٣٦٢)، ومسلم (٢٦٤٧) واللفظ له.

٢-التسليم لأمر الله تعالى القدري بعد أخذ الأسباب اللازمة، لذلك يقول تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة التغابن:١١].

قال علقمة: "هو الرجل تصيبه المصيبة يعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم"(١).

وقد استدل الإمام المجدد (رحمه الله) على الإيمان بالقدر بقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [سورة القمر:٤٩].

هذه الآية فيها رد على جميع الطوائف المخالفة النفاة كالمعتزلة، والغلاة كالجبرية كما سبق بيانه.

وقد استدلّ على الأركان الخمسة الماضية بآية البقرة -آية البر-، قال تعالى: ﴿۞ لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣/٤٢١).

ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة:١٧٧]؛ أي: ليس الخير والإيمان بأن تصلوا جهة المشرق أو المغرب بدون أن يأمر الشرع بذلك، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ﴾ أي: الخير الحقيقي ﴿مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾، وهذه هي الأركان الخمسة إضافة لركن القدر فتكون الأركان ستة، وبهذا يكون الكلام قد انتهى على المرتبة الثانية، وهي مرتبة الإيمان، والله تعالى أعلم.

[المرتبة الثالثة الإحسان]

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب (رَحِمَهُ ٱللَّهُ):

المرتبة الثالثة: الإحسان ركن واحد: وهو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحۡسِنُونَ﴾ [سورة النحل:١٢٨].

وقَوْلُهُ تعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢١٧ ٱلَّذِي يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ۝٢١٨ وَتَقَلُّبَكَ فِي ٱلسَّٰجِدِينَ ۝٢١٩ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾ [سورة الشعراء:٢١٧-٢٢٠].

وقَوْلُه تَعالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [سورة يونس:٦١].

(وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ): حَدِيثُ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورُ عَنْ عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ (رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ) قَالَ: «بينما نحن جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ (صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ ولا يعْرِفُهُ مِنَّا أَحدٌ فَجلَسَ إِلَى النَّبِيِّ (صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ) فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ فَقَالَ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إله إلا اللهُ. وَأَنَّ محمداً رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا قَالَ: صَدَقْتَ فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ

بِاللهِ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. قَالَ: أخبرني عَنْ أَمَارَاتِهَا قَالَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ تَرى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ قَالَ: فَمَضَى فَلَبِثْنَا مَلِيًّا فقَالَ: يَا عُمَرُ أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلِ؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُم»(١).

الشَّـــــــرح

(المرتبة الثالثة: الإحسان) أي: من مراتب دين الإسلام، وهو الأصل الثاني من الأصول الثلاثة.

والإحسان لغةً:

ضد الإساءة؛ أحسن فلان، أي: جاء بفعل حسن.

واصطلاحاً:

يُطلق على الإحسان في معاملة الخلق ببذل ما يقدر عليه المرءُ، والإحسان في عبادة الله (ﷻ).

---

(١) أخرجه مسلم (٨).

أولاً: الإحسان في عبادة الله (ﷻ)، على مرتبتين:

الأولى: مرتبة المشاهدة -الطلب والشوق -؛ وهي أن تعبد الله كأنك تراه محبةً وإجلالاً وحياءً.

الثانية: مرتبة المراقبة - الخوف والخشية- كما في الحديث: "فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

ثانيا: الإحسانُ في معاملة الخلق، يكون بعدة أمور:

١- بالبدن؛ كما جاء في الحديث: قَالَ رَسُولُ الله (ﷺ): «**كُلُّ سُلَامَى مِنَ النَّاسِ عَلَيْهِ صَدَقَةٌ، كُلَّ يَوْمٍ تَطْلُعُ فِيهِ الشَّمْسُ**» قَالَ: «**تَعْدِلُ بَيْنَ الِاثْنَيْنِ صَدَقَةٌ، وَتُعِينُ الرَّجُلَ فِي دَابَّتِهِ فَتَحْمِلُهُ عَلَيْهَا، أَوْ تَرْفَعُ لَهُ عَلَيْهَا مَتَاعَهُ صَدَقَةٌ**» قَالَ: «**وَالْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ خُطْوَةٍ تَمْشِيهَا إِلَى الصَّلَاةِ صَدَقَةٌ، وَتُمِيطُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ صَدَقَةٌ**»(١).

٢- بالمال؛ كالصدقة والزكاة والنفقة على الأهل والأولاد.

٣- بالعلم؛ بتعليم الناس العلم الشرعي، وإرشادهم إلى ما ينفعهم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٠٩).

٤- بالجاه؛ وذلك كالشفاعة بالجاه لمن له جاه عند الآخرين.

وجاء في آية النساء الجمعُ بين نوعي الإحسان، والتي تُسمى آيةَ الحقوق العشرة، قال تعالى: ﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [سورة النساء:٣٦]؛ فهذه عشرة أمور مذكورة في هذه الآية تنتظم نوعي الإحسان.

وقد جاءت الشريعةُ بالإحسان في كل شيء حتى إلى البهائم؛ فقد قال ﷺ: **«إِنَّ اللهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَهُ»**(١).

قال ابن القيم في كتابه مدارج السالكين، في منزلة الإحسان: "ومن منازل إياك نعبدُ وإياك نستعين منزلةُ الإحسان، وهي لبُّ الإيمان وكمال روحه، وهذه تجمع جميع المنازل**"**.

(١) أخرجه مسلم (١٩٥٥).

وقال عن فوائد الإحسان: "فإنه يُفرح القلب، ويشرح الصدر، ويجلب النِّعم، ويدفع النقم، فالجبن تركُ الإحسان بالبدن، والبخلُ ترك الإحسان بالمال**".**

وقال: مفتاح حصول الرحمة: الإحسان في عبادة الخالق، والسعي في نفع عبيده.

وقال: "إنَّ الإحسان إذا باشر القلبَ منعه عن المعاصي، فإن من عبد الله كأنه يراه، لم يكن كذلك إلاَّ لاستيلاء ذكره ومحبته وخوفه ورجائه على قلبه، بحيث يصير كأنه يشاهده، وذلك سيحول بينه وبين إرادة المعصية فضلا عن مواقعتها" (١).

وقد جاءت عدة نصوص في كتاب الله في ذلك، منها:

- قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل:٩٠].
- وقوله: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسۡنٗا﴾ [سورة البقرة:٨٣].

(١) انظر: مدارج السالكين (٢/٤٢٩ وما بعدها).

- وقوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ [سورة النساء:٣٦].
- وقوله: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ﴾ [سورة الرحمن:٦٠].

وقد ذكر المؤلف ثلاثة أدلة:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [سورة النحل:١٢٨]؛ فأثبتَ معيّةَ الله للمتقين المحسنين.

الدليل الثاني: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [سورة الشعراء:٢١٧-٢٢٠].

والتوكل سبق الكلام عليه. وقوله: ﴿ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ﴾، هما اسمان لله تعالى تضمنا صفتي العزة والرحمة، وسبق الكلام عليهما. وقوله: ﴿ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ﴾ أي: في الصلاة.

وقوله: ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ﴾، أي: حال كونك راكعاً وساجداً مع المصلين، فإنَّ الله (جل وعلا) يراك ويرعاك وهو معك.

وقال مجاهد (رَحِمَهُ اللهُ): «يرى تقلب بصرك في المصلين، فإنه كان يبصر مَنْ خلفه كما كان يبصر من أمامه» كما جاء في البخاري: «وَاللهِ مَا يَخْفَى عَلَيَّ رُكُوعُكُمْ وَلَا خُشُوعُكُمْ، وَإِنِّي لَأَرَاكُمْ وَرَاءَ ظَهْرِي»[1]، وهذه من خصوصياته ﷺ في الصلاة.

وقوله: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ أي: العليم بالظواهر والبواطن والغيب والشهادة، وهذان اسمان لله تعالى تضمنا صفتي السمع والعلم.

الدليل الثالث: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِى شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [سورة يونس: ٦١].

قوله: ﴿شَأْنٍ﴾: أي: حال من الأحوال، أو أمر من الأمور ﴿وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ﴾، يعني أثناء تلاوتك لما أنزل الله عليك من القرآن، وهذا خطاب للنبي ﷺ، ثم قال له ولغيره: ﴿وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا﴾، أي رقباء عليكم مطلعين على أعمالكم، وهذه هي المرتبة الثانية من مراتب

---

(١) أخرجه البخاري (٧٤١)، ومسلم (٤٢٤).

الإحسان، وهذا شاهدُها، وهي المراقبة، ﴿إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾، أي تشرعون فيه، فراقبوا الله في أعمالكم وأدوها كما ينبغي.

قال (رَحِمَهُ اللَّهُ): (وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ): حَدِيثُ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورُ عَنْ عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ)قَالَ: «بينما نحن جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ (ﷺ) إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ ولا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ (ﷺ) فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ فَقَالَ: أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إله إلا اللهُ. وَأَنَّ محمدا (ﷺ) رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ وَتَصُومَ رَمَضَانَ وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا قَالَ: صَدَقْتَ فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ قَالَ: أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ؟ قَالَ: أَنْ تَعْبُدَ الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فَإِنَّهُ يَرَاكَ قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. قَالَ: أخبرني عَنْ أَمَارَاتِهَا قَالَ: أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا وَأَنْ ترى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ قَالَ: فَمَضَى فَلَبِثْنَا مَلِيًّا فَقَالَ: يَا عُمَرُ أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلِ؟ قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُم»(١).

(١) سبق تخريجه.

استدل المؤلف على جميع المراتب ومنها مرتبة الإحسان بهذا الحديث المشهور، ويسمى بأم السنة، كما تسمى الفاتحة بأم القرآن، وذلك لشموله كل مراتب الدين.

قوله: (شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ) ورد عند ابن حبان أن المراد شعر اللحية.

قوله: (وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ)، رجح النووي (رحمه الله) أنه وضع كفيه على فخذي نفسه، ورجح البغوي وابن حجر أنه وضعهما على فخذي النبي (صلى الله عليه وسلم).

قوله: (أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ) أي: وقت مجيء القيامة، **(قَالَ: مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ)** فيه الحث على أن يقول من لا يعلم: الله أعلم، أو: لا أدري.

وقد قال العلماء: لا أدري نصف العلم.

وقالوا: من ترك لا أدري أصيبت مقاتله.

وقال ابن عمر (رضي الله عنهما) لمن أنكر عليه قولَه لا أدري: أتريدون أن تجعلونا جسرا على النار تقولون أفتانا ابن عمر!

وجاء رجل إلى المدينة ليسأل مالكاً (رحمه الله) عن أربعين مسألة فأفتاه في أربع مسائل، وقال في الأخرى: لا أدري، فقال الرجل: وما أقول لقومي إذا رجعت إليهم؟ فقال له: قل لهم قال مالك: لا أدري.

وهكذا ينبغي لطالب العلم ألا يتسرع في الإجابة عن كل ما يَسألُ عنه الناس، بل ينبغي عليه الاحتياط والورع في ذلك حتى لا يتحمل آثام من يفتيهم.

قوله: (قَالَ: أخبرني عَنْ أَمَارَاتِهَا) أي: علاماتها، وسيأتي الكلام عليها. قال: **(أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ)** أي المملوكة **(رَبَّتَهَا -أو ربها)** أي سيدها أو سيدتها. قال: **(وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ)**، **(الْعَالَةَ)** جمع عائل وهو الفقير، **(رِعَاءَ)** جمع راعٍ وهو الذي يرعى، و**(الشَّاءِ)** هي الضأن والماعز، والواحدة شاة.

نبذة مختصرة عن أشراط الساعة:

أشراط الساعة تنقسم إلى قسمين: صغرى وكبرى.

القسم الأول: الأشراط الصغرى، منها ما قد حصل وانتهى مثل:

١- بعثته (ﷺ) ووفاته، فقد جاء في الحديث: «**بُعِثْتُ أَنَا وَالسَّاعَةَ كَهَاتَيْنِ**»[١].

---

(١) أخرجه البخاري (٦٥٠٤)، ومسلم (٢٩٥١).

وفي الحديث: (**سابقت الساعة فسبقتها**)[١].

٢- انشقاق القمر، قال تعالى: ﴿**ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ**﴾ [سورة القمر:١]. وقد ورد ذكره في الأحاديث الصحاح، ورآه أهل مكة بعدما طلبوا ذلك كآية ليسلموا عليها، ولكنهم لم يفعلوا.

٣- ظهور نار خرجت من الحجاز رآها أهل الشام، وقد خرجت من المدينة، كما جاء في الحديث: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الحِجَازِ تُضِيءُ أَعْنَاقَ الإِبِلِ بِبُصْرَى**»[٢]، وهذا قد حدث في سنة (٦٥٤ هـ)، كما ذكره ابن كثير وغيره من المؤرخين.

٤- فتحُ بيت المقدس، وقد فُتِح مرتين: مرة في عهد عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، والأخرى في عهد صلاح الدين الأيوبي (رحمه الله).

ثانياً: ومنها علامات لا زالت تقع ووقع منها بعضها: كظهور دجالين ثلاثين؛ فقد ظهر منهم في العصر الأول مسيلمة الكذاب في اليمامة، والأسود العنسي في اليمن، وامرأة يقال لها سجاح، وقد قُتل الرجلان وأسلمت المرأة.

---

(١) أخرجه الترمذي (٢٢١٣).

(٢) أخرجه البخاري (٧١١٨)، ومسلم (٢٩٠٢).

وفي العصر الحديث ظهر دجال في الهند يدعى غلام أحمد القادياني زعيم الطائفة القاديانية، والذي ادعى النبوة، وحصل بسببه شر عظيم، وظهر غير هؤلاء من الدجالين وأكثرهم لم تكن له شوكة.

- ومن العلامات الواقعة الآن:

١ - تطاول الأعراب الفقراء رعاة الضأن والماعز في بنيانهم، والتفاخر بذلك كما هو مشاهد.

٢- ومنها: تداعي الأمم على أمة الإسلام وتكالبهم عليها للإيقاع بها؛ ولكن ضمن الله لهذه الأمة ألا تهلك بالقحط أو باتفاق الأمم عليها ولو اجتمعوا عليهم من أقطارها.

- ومن العلامات التي ستقع مستقبلا:

١ - تكليم الجماد والسباع للإنسان.

٢- انحسار نهر الفرات عن جبل من ذهب يتقاتل الناس عليه.

٣- عودة جزيرة العرب مروجاً وأنهاراً.

٤- خروج المهدي في مكة والمبايعة له عند الكعبة، وهو رجل من آل بيت النبي (ﷺ)، واسمه محمد بن عبد الله، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً بعد أن ملئت جَوْرا وظلماً.

هذه بعض العلامات التي صح فيها الدليل، وهناك علامات أخرى بعضها صح فيها الدليل كظهور المعازف والقينات وتبرج النساء. وبعضها لم يصح فيه الدليل.

القسم الثاني: الأشراطُ الكبرى وهي عشرة، تحصل تباعاً، أي يتبع بعضها بعضاً، واختلف أهل العلم في ترتيبها وهي:

١- ظهور الدخان الذي يملأ ما بين السماء والأرض.

٢- خروجُ المسيح الدجال الذي يجوب البلدان ولا يدَع بلدة إلا دخلها إلا مكة والمدينة. ومعه فتن عظيمة.

٣- نزول عيسى بن مريم (عليه السلام) عند المنارة البيضاء في دمشق، فيتتبع المسيح الدجال حتى يقتله.

٤- خروج يأجوج ومأجوج الذين يعيشون في الأرض فساداً حتى يهلكهم الله.

٥- خروج الدابة من مكة من أجياد؛ تُكَلّم الناسَ، وتكلم المؤمن وتَعرفه، وتكلم الكافر وتعرفه بكفره.

٦- ثلاثة خسوف تحدث: خسف بالمشرق، وخسف بالمغرب، وخسف بجزيرة العرب.

٩- طلوع الشمس من المغرب، فإذا طلعت ﴿لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا﴾ [سورة الأنعام:١٥٨].

١٠- خروج نار من جهة اليمن تسوق الناس إلى محشرهم.

هذا آخر الكلام فيما يتعلق بأشراط الساعة.

- **بعض الفوائد المستنبطة من حديث جبريل (عَلَيْهِ السَّلَامُ):**

١- الأدب بين الطالب وشيخه، وأدب المتعلم مع العالم في الهيئة وطريقة السؤال.

٢- أهمية قول المسؤول عما لا يعلم: الله أعلم. كما سبق.

٣- أدب الصحابة (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ) مع النبي الكريم ﷺ؛ حيث لم يقدموا بين يديه بالسؤال على السائل حتى قال لهم إنه جبريل (عَلَيْهِ السَّلَامُ).

٤- إطلاق اسم الدين على جميع الأمور المذكورة من الإسلام والإيمان والإحسان.

[الأَصلُ الثَّالِث: مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُم مُحَمَّد (ﷺ)]

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله):

الأَصْلُ الثَّالِثُ مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ ﷺ: وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاَةِ وَالسَّلاَمِ.

وَلَهُ مِنَ العُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ وَثَلاثٌ وعشرون نبياً رسولا. نبئ بإقرأ. وأرسل بالمدثر. وَبَلَدُهُ مَكَّةُ بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ ويدعو إِلَى التَّوْحِيدِ،

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [سورة المدثر: ١-٧].

وَمَعْنَى ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾: يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ وَيَدْعُو إلى التوحيد، ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ، ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾: أَيْ طَهِّرْ أَعْمَالَكَ من الشِّرْكِ، ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾، الرُّجْزُ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا وأهلها وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلِهَا.

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ الْعَشْرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّمَاءِ وَفُرِضَتْ عَلَيْهِ الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثلاث سنين وبعدها أمر بالهجرة إلى الْمَدِينَةِ.

الشـــــــرح

قوله: (الأَصْلُ الثَّالِثُ مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ مُحَمَّدٍ (ﷺ))، بعدما ذكر الإمام المجدد رحمه الله الأصل الأول: (المرسِل) وهو الله (تبارك وتعالى)، ذكر الأصل الثاني وهو (المرسَل به) وهو دين الإسلام؛ وهنا ذكر الأصل الثالث: (المرسَل) وهو الرسول الذي جاء بالرِّسالة وهو نبينا محمد (ﷺ)، وهذا من حسن الترتيب.

قوله: (مَعْرِفَةُ نَبِيِّكُمْ)، المقصود هنا العلم بحاله ونسبه ومولده ووفاته، وهذا طرف من السيرة النبوية وهو متعلق بركن كلمة التوحيد وهو شهادة أنَّ محمدا (ﷺ) رسول الله، فيحتاج من يشهد هذه الشهادة أن يتعرف على الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة وأزكى التسليم.

قوله: (وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ)، كلمة (مُحَمَّدُ) معناها: كثير الخصال التي يستحق عليها الحمد، وكانت هذه التسمية قليلة قبل الإسلام ولكنها كانت موجودة، قال عمه أبو طالب وروي عن حسان بن ثابت:

وشق له من اسمه ليجله ... فذو العرش محمود وهذا محمد

وقد جاء بهذه الصفة في التوراة كما قال عيسى (عليه السلام): ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [سورة الصف:٦].

وهو في الإنجيل-إنجيل برنابا-باسم (الفارقليط)، وبشارة عيسى به في الإنجيل واضحة وإن كان النصارى يحرفونها ويعطلونها إخفاء وجحدا لنبوة محمد (ﷺ)، لكن أوصافه هناك من أوضح الواضحات لمن أراد الله هدايته، والنصوص في هذا كثيرة.

قوله: (ابْنُ عبد الله)، اسم والده عبد الله، وقد توفي والنبي (ﷺ) حمل في بطن أمه.

الدليل على أن أبوي النبي (ﷺ) وعمه ماتوا على الكفر:

جاء في الحديث الصحيح ما يدل على أن عبد الله مات على الكفر، وقد كانت ملة إبراهيم (عليه السلام) معروفة في العرب، وممن كان على ملة إبراهيم (عليه السلام) زيد بن عمرو بن نفيل[1] الذي كان لا يذبح للأصنام ولا يأكل إلاَّ ممَّا

(١) أخرجه البخاري (٣٨٢٧): عن ابن عمر: " أن زيد بن عمرو بن نفيل خرج إلى الشأم يسأل عن الدين، ويتبعه، فلقي عالماً من اليهود فسأله عن دينهم، فقال: إني لعلي أن أدين دينكم، فأخبرني، فقال: لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله، قال زيد ما أفر إلا من غضب الله، ولا أحمل من غضب الله شيئاً أبداً، وأنَّى أستطيعه؟ فهل تدلني على غيره، قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً، قال زيد: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم لم يكن يهودياً، ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله، فخرج زيد فلقي عالماً من النصارى فذكر مثله، فقال: لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله، قال: ما أفر إلا من لعنة الله، ولا أحمل من لعنة الله، ولا من غضبه شيئاً أبداً، وأنَّى أستطيع؟ فهل تدلني على غيره، قال: ما أعلمه إلا أن يكون حنيفاً، قال: وما الحنيف؟ قال: دين إبراهيم لم يكن
=

ذكر اسم الله تعالى عليه، وكان لا يئد البنات بل كان يأخذها من أبيها ويتكفل بها[(١)].

وقد جاء في صحيح مسلم، عن أنس، **أن رجلا قال: يا رسول الله، أين أبي؟ قَالَ: «فِي النَّارِ»، فَلَمَّا قَفَّى دَعَاهُ، فَقَالَ: «إِنَّ أَبِي وَأَبَاكَ فِي النَّارِ»**[(٢)].

وأيضاً: أم النبي (ﷺ) آمنة بنت وهب ماتت كافرة، فقد جاء في صحيح مسلم أن النبي (ﷺ) قال: " **اسْتَأْذَنْتُ رَبِّي أَنْ أَسْتَغْفِرَ لأُمِّي فَلَمْ يَأْذَنْ لِي، وَاسْتَأْذَنْتُهُ أَنْ أَزُورَ قَبْرَهَا فَأَذِنَ لِي**"[(٣)]، وأيضا عمه أبو طالب مات على الكفر

يهودياً ولا نصرانياً، ولا يعبد إلا الله، فلما رأى زيد قولهم في إبراهيم (عليه السلام) خرج، فلما برز رفع يديه فقال: اللهم إني أشهد أني على دين إبراهيم "

(١) أخرج البخاري (٣٨٢٨)، عن أسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنهما)، قالت: " رأيت زيد بن عمرو بن نفيل قائما مسندا ظهره إلى الكعبة يقول: يا معاشر قريش، والله ما منكم على دين إبراهيم غيري، وكان يحيي الموءودة، يقول للرجل إذا أراد أن يقتل ابنته، لا تقتلها، أنا أكفيكها مئونتها، فيأخذها فإذا ترعرعت قال لأبيها: إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مئونتها ".

(٢) أخرجه مسلم (٢٠٣).

(٣) أخرجه مسلم (٩٧٦).

بعدما اجتهد النبي (ﷺ) في دعوته إلى الإسلام، لكنه قال: أموت على ملة الأشياخ، أي: أشياخ قريش من الكفار والمشركين[١].

وهذا كله يرد على الصوفية وغيرهم ممن يزعمون أن والد النبي (ﷺ) وأمه ماتا على الإسلام، وأن الله تعالى أحياهما له وأسلما، وهذا من الكذب البيِّن الذي لا يقوم على دليل، وقد صرح أحد كبار الطريقة العزمية[٢] في مصر أنهم صنعوا ضريحا ومقاما لأم النبي (عليه الصلاة والسلام)، وأقاموا لها مولدا في كل عام، مع أن المعروف في التاريخ أن قبرها بالأبواء بين مكة والمدينة، وإلى الله المشتكى.

قوله: (ابن هاشم)، أطلق على جده الأكبر هذا الاسم لأنه كان يهشم العظام أو الثريد، أي: يكسرها ويضعها في الطعام ويصنع المرقة إكراما للأضياف.

---

(١) أخرج البخاري (٣٨٨٤)، ومسلم (٢٤): عن ابن المسيب، عن أبيه: أن أبا طالب لما حضرته الوفاة، دخل عليه النبي (ﷺ) وعنده أبو جهل، فقال: " أَيْ عَمِّ، قُلْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ ". فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ، تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَلَمْ يَزَالاَ يُكَلِّمَانِهِ، حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ النَّبِيّ (ﷺ): "لأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ ". فَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ وَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ﴾.

(٢) العزمية: طريقة صوفية أسسها محمد ماضي أبو العزائم عام ١٣51 هـ.

قوله: (وهاشم من قريش) هاشم: هو ابن عبد مناف بن قصي بن كلاب، وينتهي النسب إلى عدنان وبعد ذلك لا يثبت.

والنبي (عليه الصلاة والسلام) من أشرف العرب نسبا:

فقد جاء في صحيح مسلم من حديث واثلة بن الأسقع قال (ﷺ): "**إنَّ اللهَ اصطفى كِنانَةَ مِن ولدِ إسماعيل، واصطفى قريشاً من كِنَانَة، واصطفى مِن قريشٍ بَنِي هاشِم، واصطفانِي مِن بَنِي هاشِم**"[(١)] وقد جاء في رواية ضعيفة: (فأنا خيار من خيار من خيار).

قوله: (وقريش من العرب)، يقصد العرب المستعربة ومنهم هذيل وبنو تميم، لأن العرب قسمان: عرب عاربة وهم أصل العرب، وعرب مستعربة، أي: نطقوا العربية وليس أصلهم من العرب.

قوله: (من ذرية إسماعيل) إسماعيل بن إبراهيم (عليهما السلام)، وهو أول مَنْ فُتِق لسانه بالعربية الفصحى.

قوله: (ابن إبراهيم الخليل)، قال تعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [سورة النساء:١٢٥].

---

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٦).

وفي الحديث الصحيح: "إِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللهِ أَنْ يَكُونَ لِي مِنْكُمْ خَلِيلٌ، فَإِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ اتَّخَذَنِي خَلِيلاً، كَمَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً، وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أُمَّتِي خَلِيلاً لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً، أَلاَ وَإِنَّ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ كَانُوا يَتَّخِذُونَ قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ وَصَالِحِيهِمْ مَسَاجِدَ، أَلاَ فَلاَ تَتَّخِذُوا الْقُبُورَ مَسَاجِدَ، إِنِّي أَنْهَاكُمْ عَنْ ذَلِكَ"(١).

قوله: (وله من العمر ثلاث وستون سنة) ولد (عليه الصلاة والسلام) في عام الفيل سنة (٥٧٠) ميلادية، أو (٥٧١)، وعاش ثلاثا وستين سنة وتوفي في أول السنة الحادية عشرة من الهجرة، **(منها أربعون قبل النبوة)** عاش (عليه الصلاة والسلام) أربعين سنة لا يعلم شيئا كما قال تعالى: ﴿وَإِن كُنتَ مِن قَبۡلِهِۦ لَمِنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾ [سورة يوسف:٣].

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [سورة العنكبوت:٤٨].

وعلى رأس الأربعين نزل عليه الوحي.

(١) أخرجه مسلم (٥٣٢).

قوله: (ثلاث وعشرون نبياً ورسولاً)، سبق الكلام على تعريف النبي والرسول والفرق بينهما.

قوله: (نبئ بـ "اقرأ")، أي: كلف بالنبوة وصار نبيا بنزول صدر سورة العلق ففي الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين (رضي الله عنها) أنها قالت: **"أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) مِنْ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لاَ يَرَى رُؤْيَا إِلاَّ جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ. ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلاَءُ، وَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ، فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ - اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ الْعَدَدِ، قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ، قَالَ: " مَا أَنَا بِقَارِئٍ ". قَالَ: "فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، قُلْتُ: " مَا أَنَا بِقَارِئٍ ". فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: "مَا أَنَا بِقَارِئٍ". فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي فَقَالَ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾؛ فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) يَرْجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ (رضي الله عنها) فَقَالَ: "زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي". فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: "لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى**

نَفْسِي". فَقَالَتْ خَدِيجَةُ: كَلاَّ وَاللهِ مَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ"[1].

قوله: (وأرسل بالمدثر) أي: صار رسولا بنزولها لقوله تعالى فيها: ﴿قُمْ فَأَنذِرْ﴾ [سورة المدثر:٢]؛ ففيها التنصيص على النذارة والدعوة إلى التوحيد والنهي عن الشرك؛ فبهذا صار رسولا.

قوله: (وبلده مكة) أحب البقاع إلى الله تعالى وإلى نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام؛ فقد بعث أفضل رسول من أفضل بلد بأفضل كتاب وأعظم رسالة، وقد مكث في مكة ثلاثاً وخمسين سنة منها ثلاث عشرة سنةً بعد النبوة.

قوله: (وهاجر إلى المدينة) فَمَكَثَ فيها عشر سنين وكانت المدينة قبل ذلك اسمها يثرب فغير النبي (ﷺ) هذا الاسم وسماها طابة وهي المدينة.

قوله: (بعثه الله بالنذارة) معنى النذارة: إعلامٌ فيه تخويف عن شيء ما.

قوله: (عن الشرك) أي: وما أدى إليه من النار والعذاب.

---

(١) أخرجه البخاري (٣، ٤)، واللفظ له، ومسلم (٢٥٢).

قوله: (ويدعو إلى التوحيد) أي: توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

ثم ذكر الدليل: (قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [سورة المدثر:١]، أي: المتدثر، وهو الملتحف بالثياب والأغطية لقوله (ﷺ) عندما أخذته الرجفة عند رؤية جبريل ذهب إلى خديجة وقال لها: (**دثروني دثروني**)[١] وقد كان يرجف فؤاده.

وقيل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ﴾ [سورة المدثر:١]، أي: بالنبوة وأثقالها قم بها.

قوله: ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ [سورة المدثر:٢-٣]؛ فيه النفي والإثبات، أو ما يعرف بالتخلية قبل التحلية كما في ركني كلمة لا إله إلا الله فقوله ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾ فيه النهي عن الشرك والتحذير منه، وقوله ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ فيه الأمر بالتوحيد وتعظيم الله والإخلاص له.

قوله: (ومعنى ﴿قُمۡ فَأَنذِرۡ﴾، أي: ينذر عن الشرك ويدعو إلى التوحيد)، المقصود إنذار كفار مكة وعشيرته ابتداء لقوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ [سورة الشعراء:٢١٤].

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٢)، ومسلم (١٦١).

وقوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾، قال البغوي في التفسير: "عظِّمه عما يقوله عبدة الأوثان"[١]، والتكبير في الشريعة معروف في الأذان والصلاة والتسبيح، فالمسلم يكبر ربه في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته وشرعه وقدره، ولخص المؤلف ذلك بقوله: (عظمه بالتوحيد)، أي: فيما سبق.

ثم قال: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [سورة المدثر:٤]؛ أي: طهر أعمالك عن الشرك، وقد ذكر المفسرون فيها عدة أقوال:

الأول: طهر ثيابك من النجاسة، وهذا قول ابن زيد وابن سيرين.

الثاني: لا تلبسها على معصية ولا على غدر، قاله ابن عباس.

الثالث: طهر نفسك عن الذنب، قاله مجاهد وقتادة.

الرابع: أصلح عملك، وهو قول الضحاك.

قال السدي: يقال للرجل إذا كان صالحا: إنه لطاهر الثياب، وإذا كان فاجرا: إنه لخبيث الثياب.

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٨/٢٦٤).

الخامس: قال طاووس: وثيابك فقصر؛ لأنَّ تقصير الثياب طُهرةٌ لها، انتهى من تفسير البغوي[١].

قوله: (والرجز فاهجر) الرجز: فيه عدة أقوال للعلماء وهي:

القول الأول: الرجز الأصنام، وهذا القول مروي عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة، وتكملته: الأصنام والأوثان.

القول الثاني: اترك المآثم.

القول الثالث: الرجز: الشرك، قاله الضحاك.

القول الرابع: الرجز: الشيطان، قاله ابن كيسان.

القول الخامس: الرجز: الأوثان، ذكره البخاري عن أبي سلمة.

والأصنام: جمع صنم، وهو اسم لما يعبد من دون الله مما هو على هيئة الصورة كشخص أو كوكب أو شجرة أو طائر ونحوها.

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٨/٢٦٤).

أما الوثن: فهو أعم فقد يكون على هيئة صورة أو لا، كـالقبور والمقامات والأضرحة، كما جاء في الحديث: **"اللَّهُمَّ لاَ تَجْعَلْ قَبْرِي وَثَناً يُعْبَدُ"**[1].

قوله: (وهجرها تركها وأهلها، والبراءة منها وأهلها) سبق الكلام عن هذه المسألة عند قول الخليل إبراهيم: **(إنني براء مما تعبدون).**

---

(١) أخرجه أحمد (٧٣٥٨).

[تعريف الهجرة وحكمها والدليل عليها]

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله):

وَالْهِجْرَةُ الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ.

وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [سورة النساء:٩٧-٩٩].

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰعِبَادِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ أَرْضِى وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰىَ فَٱعْبُدُونِ﴾ [سورة العنكبوت:٥٦].

قال البغوي (رحمه الله): سبب نزول هذه الآية في المسلمين الذين في مكة لم يُهَاجِرُوا نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ قَوْلُهُ (ﷺ): «لا تَنقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مغربِها»(١).

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ مِثلِ الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ.

وَتُوُفِّيَ صلوات الله وسلامه عليه وَدِينُهُ بَاقٍ، وَهَذَا دِينُهُ، لا خَيْرَ إلا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ وَلا شَرَّ إلا حَذَّرَهَا مِنْهُ، وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ الشِّرْكُ وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ.

بَعَثَهُ اللهُ فِي النَّاسِ كَافَّةً.

وَ افْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [سورة الأعراف:١٥٨].

وَكَمَّلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة:٣].

---

(١) أخرجه أبو داود (٢٤٧٩)، والنسائي في "الكبرى" (٨٦٥٨). وقال الحافظ في الفتح (١١/ ٣٥٩): سنده جيد.

الشـــــــــرح

قوله: (أخذ على هذا عشر سنين) أي: على الدعوة للتوحيد والنهي عن الشرك والتحذير منه؛ لأن الخصومة كانت فيه عظيمة، وهذا يدل على أهمية الدعوة إلى التوحيد خاصَّة في الزمان أو المكان الذي يقل فيه نور الوحي ويكثر وينتشر الجهل ويظهر الشرك، فتزداد أهمية الدعوة إلى التوحيد وتجريد الإخلاص لله تعالى والنهي عن التنديد.

وهذا فيه رد على الذين يزهِّدون الناس في تعلم التوحيد وقد دعا إليه الرسول المؤيد بالوحي عشر سنين كاملة، وهؤلاء يزهِّدون الناس في تعلمه.

لذلك قلما تجد في الخطب والدروس والمواعظ من يدعو إلى التوحيد وينهى عن الشرك والتنديد، وترتب على ذلك اندثار بعض معالم التوحيد وانتشار الكثير من مظاهر الشرك، كما يحدث عند قبر البدوي أو الحسين من دعاء غير الله، والخوف من الميت المقبور، والنذر له والذبح له والطواف بقبره والانطراح بين يدي قبره مما هو معروف ومشهور بما يشيب له الولدان، ويدل على غربة التوحيد والدعوة إليه في هذه الأزمان.

قوله: (وبعد العشر عرج به إلى السماء) عرج، أي: صعد، والمعراج: هو السلم والمرقاة التي يعرج عليها، **(إلى السماء)** أي: حتى بلغ السماء السابعة

وكلَّمه ربُّه، ورأى نور الحجاب، وقبل ذلك مرّ على السَّماوات فسلَّم عليه أهلها ورحب به إخوانه من الأنبياء والمرسلين، وقبل المعراج أسري به إلى بيت المقدس من مكة، ثم عرج به حتى بلغ السماء السابعة، وهناك فرضت عليه خمسين صلاة ثم خففت إلى خمس في العمل وخمسون في الأجر، لذا قال المؤلف: **(وفرضت عليه الصلوات الخمس)** أي: على ما هي عليه الآن.

قوله: (وصلى في مكة ثلاث سنين) يعني: في السنة الحادية عشرة والثانية عشرة والثالثة عشرة، حيث جاء جبريل وعلّم النبي (ﷺ) مواقيت الصلاة[١]، وقد كانت الصلاة قبل ذلك موجودة ولكنها على غير المعروف الآن، قيل: صلاة في الصبح وصلاة في العشي.

قال المؤلف (رحمه الله): (وبعدها أمر بالهجرة إلى المدينة) وسبب الهجرة تآمر قريش عليه لقتله وإيذاؤهم للمسلمين في مكة، وقد ورد في الهجرة أحاديث وأخبار كثيرة منها الصحيح ومنها الضعيف ومنها ما لا أصل له.

ومما صح في ذلك أو قارب مبيت عليّ (رضي الله عنه) في فراش النَّبي (ﷺ) أثناء حصار المشركين لبيته، وخروجه (ﷺ) وإلقاؤه حفنة من التراب على

---

(١) أخرجه مسلم (٦١٠).

رؤوسهم، فلم يبق من المشركين المحاصرين للبيت أحد إلا وعلى رأسه حفنة من ذلك التراب، وقد أخذهم النوم عندما خرج من بينهم النبي (ﷺ) قال تعالى: ﴿فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [سورة يس:٩].

ثم دخول النبي (عليه الصلاة والسلام) مع صاحبه أبي بكر إلى غار ثور، وقد صحَّ فيه نسج العنكبوت، ولم يصح فيه وجود الحمام أو اتخاذه عُشًّا هناك، وقد وضع المشركون جُعلاً كبيراً لمن يدل عليهما فخرج في أَثَرهما سراقة بن مالك، فلما أبصرهما دعا عليه النَّبي (ﷺ) فساخت يدا الفرس إلى ركبتيه في الرِّمال، فأشار لهما بالأمان فدعا اللهَ له وأسلم بعد ذلك.

واتخذ النَّبي (ﷺ) رجلاً دليلاً لهما وهو عبد الله بن أريقط ليدلهما على الطريق، فسلك بهما طريق الساحل حتى وصلوا إلى المدينة.

روى البخاري (رحمه الله): **عن البراء بن عازب (رضي الله عنهما)، قال: "أَوَّلُ مَنْ قَدِمَ عَلَيْنَا مُصْعَبُ بْنُ عُمَيْرٍ، وَابْنُ أُمِّ مَكْتُومٍ وَكَانَا يُقْرِئَانِ النَّاسَ، فَقَدِمَ بِلاَلٌ وَسَعْدٌ وَعَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ، ثُمَّ قَدِمَ عُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ فِي عِشْرِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ (ﷺ)، ثُمَّ قَدِمَ النَّبِيُّ (ﷺ)، فَمَا رَأَيْتُ أَهْلَ المَدِينَةِ فَرِحُوا بِشَيْءٍ فَرَحَهُمْ بِرَسُولِ اللَّهِ**

(ﷺ)، حَتَّى جَعَلَ الإِمَاءُ يَقُلْنَ: قَدِمَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ)، فَمَا قَدِمَ حَتَّى قَرَأْتُ: سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى فِي سُوَرٍ مِنَ الْمُفَصَّلِ"(١).

وكانت الهجرة مهمة لما ترتب بعد ذلك عليها من أمور عظيمة وحوادث جسيمة غيرت مجرى التاريخ.

فضل الهجرة عموماً:

١-الرزق الحسن في الآخرة، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوۡ مَاتُواْ لَيَرۡزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزۡقًا حَسَنًاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيۡرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ۝٥٨ لَيُدۡخِلَنَّهُم مُّدۡخَلًا يَرۡضَوۡنَهُۥۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة الحج:٥٨-٥٩].

٢-أنها تمحو الذنوب، كما روى مسلم من حديث عمرو بن العاص قال (عليه الصلاة والسلام): «أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟ وَأَنَّ الْهِجْرَةَ تَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهَا؟ وَأَنَّ الْحَجَّ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ؟»(٢).

(١) أخرجه البخاري (٣٩٢٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٢١).

٣-الهجرة تعدل العبادة في الهرج، كما جاء في الحديث: «**الْعِبَادَةُ فِي الهَرْجِ كَهِجْرَةٍ إِلَيَّ**»(١).

ثمار الهجرة:

١-حفظ الدين وإقامته مع الأمن والأمان.

٢-إغاظة أعداء الله، قال تعالى: ﴿**وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ [سورة النساء:١٠٠]، والمراغمة هنا هي الإغاظة لأعداء الله.

٣-تقوية قلوب المؤمنين بالهجرة إليهم والدخول في جماعتهم.

٤-إرهاب أعداء الله.

٥-تمييز أولياء الله من أعدائه.

عواقب ترك الهجرة الشرعية:

١-ضياع الدين وهوانه.

٢-الحرمان من الغنيمة والفيء.

(١) أخرجه مسلم (٢٩٤٨).

٣-غضب الله ممن ترك الهجرة مع القدرة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [سورة النساء:٩٧-٩٩].

٤-انقطاع الولاية بينهم وبين المهاجرين، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟﴾ [سورة الأنفال:٧٢].

وقد وصل النبي (ﷺ) المدينة في شهر ربيع الأول من العام الثالث عشر من البعثة النبوية بعد أن مكث في مكة ثلاث عشرة سنة.

قال الإمام المجدد (رحمه الله): **(والهجرة الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام، والهجرة فريضة)**

الهجرة في اللغة: من الهجر، وهو الترك.

وشرعاً: عرفها الإمام المجدد رحمه الله: بأنها الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ.

والهجرة على قسمين:

الأول: هجرة قلبية.

والثاني: هجرة بدنية.

والهجرة القلبية هجرتان:

- هجرة إلى الله.
- وهجرة إلى رسوله (ﷺ).

قال ابن القيم رحمه الله في النونية:

واجعل لقلبك هجرتين ولا تنم … فهما على كل امرئ فرضان

فالهجرة الأولى إلى الرحمن بالـ … إخلاص في سر وفي إعلان

فالقصدُ وجه الله بالأقوال والـ … أعمال والطاعات والشكران

فبذاك ينجو العبد من إشراكه … ويصير حقاً عابد الرحمن

والهجرة الأخرى إلى المبعوث بالـ … حق المبين وواضح البرهان

فيدور مع قول الرسول وفعله … نفياً وإثباتاً بلا روغان

القسم الثاني: الهجرة البدنية، وتنقسم إلى: خاصة، وعامة.

أولاً: الخاصة: ما كانت من مكة إلى المدينة، وقد انتهت لحديث: «**لاَ هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا**»(١).

ثانياً: الهجرة العامة: هي التي ذكرها المؤلف هنا، وهي باقية إلى طلوع الشمس من مغربها.

وتكون واجبة: إذا لم يتمكن المسلم من إظهار دينه.

وتكون مستحبة: إذا كان المسلم يستطيع إقامة الدين لكن بلده تكثر فيها المعاصي والبدع فينتقل إلى بلدة أخرى أخف منها.

وقد ترك كثير من السلف بغداد لما انتشر فيها مذهب الرافضة وسب الصحابة، وكذلك انتقلوا من مصر في عهد الفاطميين لما أظهروا الرفض وسب الصحابة، وقد ألف ابن الجوزي كتاباً في غزو مصر لما سكنها العبيديون والفاطميون.

قال المؤلف (رَحِمَهُ اللَّهُ): (والهجرة الانتقال من بلد الشرك إلى بلد الإسلام) يقصد البلاد التي يكون فيها الشرك غالبا ولا تقام فيها شعائر الإسلام على وجه الشمول، كالأذان والجمع والجماعات والأعياد، لأنه قد يوجد عدد من

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣).

المسلمين يصلون جماعة في بلاد الكفار كأوروبا وأمريكا، فهذا لا يمنع إطلاق أنها لا تزال ديار كفر لأن الكفر فيها هو الغالب.

واستدل المؤلف (رحمه الله) على وجوب الهجرة بالآيات من سورة النساء، وأولها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُو۟لَٰٓئِكَ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [سورة النساء:٩٧-٩٩].

قوله: ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، أي: بترك الهجرة، قال البغوي: نزلت في ناس من أهل مكة تكلموا بالإسلام ولم يهاجروا، فلما خرج المشركون إلى بدر خرجوا معهم فقتلوا مع الكفار"[(١)].

قال تعالى: ﴿إِلَّا ٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا﴾، أي: ليس عندهم ما يركبونه أو مال يهاجرون به.

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٢/٢٧٢).

وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرۡضِي وَٰسِعَةٞ فَإِيَّٰيَ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [سورة العنكبوت:٥٦].

قال البغوي: " قال مقاتل والكلبي: نزلت في ضعفاء مسلمي مكة، يقول: إن كنتم في ضيق بمكة من إظهار الإيمان فاخرجوا منها إلى أرض المدينة، ﴿إِنَّ أَرۡضِي﴾ -يعني المدينة-﴿وَٰسِعَةٞ﴾ آمنة.

قال مجاهد: إن أرضي المدينة واسعة فهاجروا وجاهدوا فيها.

وقال سعيد بن جبير: إذا عمل في أرض بالمعاصي فاخرجوا منها فإن أرضي واسعة.

وقال عطاء: إذا أمرتم بالمعاصي فاهربوا فإن أرضي واسعة.

وكذلك يجب على كل من كان في بلد ينتشر فيها البدع والمعاصي ولا يمكنه تغيير ذلك أن يهاجر إلى حيث يتهيأ له العبادة.

وقيل: نزلت في قوم تخلفوا عن الهجرة بمكة، وقالوا: نخشى إن هاجرنا من الجوع وضيق المعيشة، فأنزل الله هذه الآية ولم يعذرهم بترك الخروج.

وقال مطرف بن عبد الله: "أرضي واسعة" أي: رزقي لكم واسع فاخرجوا"(١).

قال الإمام المجدد (رَحِمَهُ اللَّهُ): «لَا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ»(٢).

ذكر العلماء في جواز السفر والإقامة في بلاد الكفار عدة شروط:

الشرط الأول: أن يكون عند المسلم علم يدفع به الشبهات.

الشرط الثاني: أن يكون عنده دين يمنعه من الشهوات، أو أن يكون متزوجًا.

الشرط الثالث: أن يستطيع إظهار الدين.

الشرط الرابع: أن يكون سفره لحاجة شديدة لا توجد في بلاد المسلمين.

قال المؤلف رَحِمَهُ اللَّهُ: (فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ مِثلِ الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ، وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ،

---

(١) انظر: تفسير البغوي (٦/٢٥١-٢٥٢).

(٢) أخرجه أبو داود (٢٤٧٩).

وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَتُوُفِّيَ (صلوات الله وسلامه عليه)، ودفن في حجرة عائشة (رضي الله عنها) بالمدينة.

قوله: (وَدِينُهُ بَاقٍ) الضمير في **(وَدِينُهُ)** يعود على النبي (صلى الله عليه وسلم)؛ لأنه المبلغ عن الله والله تعالى هو المشِّرع.

قوله: (بَاقٍ) أي: دائم ثابت لا يزول، فهذا الدين لا يزول ولن يزول ما بقيت الدنيا إلى قبيل قيام الساعة، فلا يستطيع أعداء الإسلام مهما تكالبوا عليه ومهما كانت عندهم من العدة والسلاح أن يقوموا بمحو هذا الدين من الأرض، واعتبر ذلك بالحملات الصليبية وحملات المغول التتر وما بعد ذلك من الاستعمار الذي نزل ببلدان المسلمين. وإلى هذه الساعة لا يزالون يخططون لضرب المسلمين ويكيدون لأهل الإسلام.

ومع كل هذا فإن الإسلام بحمد الله باق غضٌ طريٌ كأنه أنزل الليلة؛ وذلك لأنَّ الله تعالى تكفل بحفظ القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [سورة الحجر:٩].

وكذلك حفظ السنة؛ لأنها المبينة والمفسرة للقرآن الكريم، وقد أخرج الله لهذه الأمة جهابذة أتعبوا أنفسهم ورحلوا في البلدان وتكبدوا المشاق وركبوا الصعاب لتدوين السنة الغراء، والحفاظ عليها من الكذب على النبي (صلى الله عليه وسلم)،

قال البخاري (رحمه الله): "كم من حديث سمعته بالعراق وقد كتبته بالشام".(١)

ورحل جابر بن عبد الله من المدينة إلى الشام لسماع حديث واحد من عبد الله بن أنيس فلما سمعه رجع إلى المدينة، وهو حديث: **«أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدِّمَاءِ»**(٢)، وقد تكفل الله ببقاء طائفة من أهل الإسلام ظاهرين على الحق قائمين به، كما جاء في الصحيحين: **«لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ، حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَذَلِكَ»**(٣).

قوله: (وَهَذَا دِينُهُ) أي: ما سبق من الأصول الثلاثة التي سبق الكلام عليها.

قوله: (لا خَيْرَ إلا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ). كلمة (الأمة) تطلق على عدة معان:

١- الملة، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [سورة المؤمنون:٥٢]، أي: ملتكم.

---

(١) انظر: سير أعلام النبلاء (١٢ / ٤١١).

(٢) أخرجه البخاري (٦٥٣٣)، مسلم (١٦٧٨).

(٣) أخرجه البخاري (٧٣١١)، ومسلم (١٩٢٠).

٢- الإمام، كما قال تعالى عن إبراهيم (عليه السلام): ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [سورة النحل:١٢٠]، أي: إماما.

٣- الزمن، كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا أُنَبِّئُكُمْ بِتَأْوِيلِهِ فَأَرْسِلُونِ﴾ [سورة يوسف:٤٥]، أي: بعد زمن.

٤- الجماعة، وهو المقصود هنا أي: جماعة أهل الإسلام.

فلا خير يعلمه للأمة إلا أرشدها إليه، ولا شر إلا حذرها منه حتى تركها على المحجة البيضاء الناصعة، كما جاء في الحديث: «**قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنِفِ، حَيْثُمَا قِيدَ انْقَادَ**»(١).

قوله: (وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ)، وذلك لأن التوحيد هو أصل الدين، وهو أول الأمر وآخره ومن أجله خلقت السماوات والأرض، وقام سوق الجنة والنار، وعنه يسأل الأولون والآخرون، قال الناظم:

---

(١) أخرجه ابن ماجة (٤٣) وصححه الألباني.

أيها المغتدي يَطْلُبُ علمًا كلُّ علمٍ عبدٌ لعلم الرسول
تطلب الفرعَ كي تصحح أصلاً كيف أهملتَ أصل الأصول

وسبق الكلام على التوحيد بأنواعه الثلاثة.

قوله: (وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ) أي: من الواجبات والمستحبات، وفيه إثبات لصفتي المحبة والرضا لله تعالى، خلافاً لمن يؤول ذلك بالإرادة كالأشاعرة فإنهم لا يثبتون هاتين الصفتين، بل يقولون: المراد إرادة الإكرام أو إرادة الإنعام، وأهل السنة يثبتونها لله تعالى على ما يليق بجلاله وكماله.

قوله: (وَالشَّرُ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ الشِّرْكُ) بدأ بالشرك لأنه أظلم الظلم وأعظم الكبائر، وأكبر معصية عصي الله بها، قال تعالى في وصية لقمان لابنه: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة لقمان:١٣]؛ فبدأ بالشرك في وصيته.

وقال تعالى عن العمل الذي يدخله الشرك: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [سورة الفرقان:٢٣]؛ بل قال تعالى لنبيه وحبيبه محمد عليه الصلاة والسلام: ﴿وَلَقَدْ أُوحِىَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [سورة

الزمر:٦٥]؛ فإذا كان هذا الخطاب لسيد البشر (عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ) فكيف بمن دونه؟

قوله: (وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ) أي: من المعاصي والمحرمات.

قوله: (بعَثَهُ الله في النَّاسِ كَافَّةً)، أي: أرسله الله (جَلَّ وَعَلَا) للجن والإنس، قال ابن منظور في لسان العرب: "لفظ الناس قد يكون من الإنس ومن الجن"(١)، وقوله: (كافة) أي: جميعًا.

قوله: (وَ افْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الْجِنِّ وَالإِنْسِ)، أي: أوجب طَاعَتَهُ، و**(الثَّقَلَيْنِ)**: هما الجن والإنس، وسموا بذلك قيل: لأن الأرض ثقلت بهم، أو لأنهما أثقلا بالذنوب، أو لأنهما أثقلا بالتكاليف، وكلمة **(الْجِنِّ)** مأخوذة من الاجتنان، أي: الاستتار، ومنه الجنين لأنه مستور في الرحم، والجن مستترون عن الأعين.

وهم مكلفون كالإنس، وطاعته واجبة عليهم، والكافر والعاصي متوعد بالنار والوعيد، قال تعالى: ﴿قَالَ ٱدْخُلُواْ فِيٓ أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ

(١) انظر: لسان العرب (٦/٢٤٥) مادة (نوس).

فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَىٰهُمْ لِأُولَىٰهُمْ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ ٱلنَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف:٣٨].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَـَٔاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [سورة السجدة:١٣].

وقال تعالى في سورة الرحمن موجها الخطاب لهم: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ [سورة الرحمن:١٣].

فالخطاب هنا للجن والإنس، وقال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الأحقاف:٢٩-٣٢].

قوله: (وَالإِنْسِ) قال الأزهري: وأصل الإنس والأنس والإنسان من الإيناس، وهو الإبصار. ويقال: آنسته وأنسته أي أبصرته، قال تعالى: ﴿ءَانَسَ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ نَارًا﴾ [سورة القصص:٢٩]، أي: أبصر، فأبو الإنس هو آدم (عليه السلام) وقد خلق من طين، وأبو الجن هو إبليس وقد خلق من نار[١].

قوله-مستدلا على ما سبق-: وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [سورة الأعراف:١٥٨].

(قُلْ) هذا أمر من الله لنبيه (ﷺ)، و**(ٱلنَّاسُ)** هنا المقصود بهم الجن والإنس، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِى يُوَسْوِسُ فِى صُدُورِ ٱلنَّاسِ ۝ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ﴾ [سورة الناس:٥-٦].

قوله: **(إِلَيْكُمْ جَمِيعًا)** الحال لتأكيد عموم الرسالة لجميع الناس إلى قيام الساعة.

قوله: (وَكَمَّلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ) الكمال: اسم لاجتماع أجزاء وأبعاض الموصوف.

---

(١) انظر: لسان العرب (١٦/٦).

قال الأزهري: " قَالَ اللَّيْث: كَمَلَ الشيءُ يَكْمُلُ كَمالاً، ولُغةٌ أخْرَى: كَمُلَ يَكْمُلُ، فَهُوَ كَامِلٌ فِي اللُّغتيْنِ، وأكملتُ الشيءَ أَي أَجْمَلْتُهُ وأَتْمَمْتُهُ. والكمالُ: التَّمامُ الَّذِي يُجَزَّأ مِنْهُ أَجْزاؤهُ. يُقَال: لَكَ نِصْفُهُ، وبَعْضُه، وكماله.

وَقَالَ الله تَعَالَى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة:٣] الآيَةَ، ومعنَاهُ واللهُ أَعْلَمُ الآنَ أكْمَلْتُ لكُمْ الدِّينَ بِأَن كَفَيْتُكُمْ خوْفَ عَدُوِّكم، وأَظْهَرْتُكُمْ عَلَيْهِم، كَمَا تقولُ: الْآن كملَ لَنَا الْمُلكُ، وكملَ لنا مَا نريدُ، بأَنْ كُفِينَا من كُنَّا نَخَافهُ.

وَقد قيل: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ أَي أكمْلتُ لكُمْ فَرض مَا تَحتَاجُونَ إِلَيْهِ فِي دِينكم، وَذَلِكَ جائزٌ، فأَمَّا أَن يكون دِينُ اللهِّ فِي وقْتٍ من الأوقاتِ غيرَ كاملٍ فَلَا"(١).

دين الإسلام تام كامل، ومن الأدلة على كماله:

١-قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة:٣] الآية، وسيذكرها المصنف.

---

(١) انظر: تهذيب اللغة (١٠/١٤٨).

٢-قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [سورة النحل:٨٩].

٣-عن أبي ذر، قال: تركنا رسول الله (ﷺ)، وما طائر يقلب جناحيه في الهواء، إلا وهو يذكرنا منه علما، قال: فقال: (ﷺ): **«مَا بَقِيَ شَيْءٌ يُقَرِّبُ مِنَ الْجَنَّةِ، ويُبَاعِدُ مِنَ النَّارِ، إِلَّا وَقَدْ بُيِّنَ لَكُمْ»**[١].

٤-قال رَجُلٌ لسلمان الفارسي (رضي الله عنه): قد علمكم نبيكم (ﷺ) كل شيء حتى الْخِرَاءَةَ قال: فقال: أجل **«لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةَ لِغَائِطٍ، أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِالْيَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلَاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ»** رواه مسلم.[٢] فالنبي الكريم (ﷺ) قد بين لأمته الدين بأقواله وأفعاله وتقريراته، فلا يحتاج أن يزاد فيه أو يُنْقص منه.

قال الإمام ابن القيم (رحمه الله):

فلواحدٍ كن واحداً في واحدٍ — أعني سبيل الحق والإيمان

(١) أخرجه الطيالسي (٤٨١)، وأحمد (٢١٣٦١)، والطبراني في الكبير (١٦٤٧) واللفظ له.

(٢) أخرجه مسلم (٢٦٢).

إن الإيمان بكمال الدين يوجب أمرين:

١-اتباع النبي (ﷺ).

٢-ترك الابتداع في الدين، كما جاء في الحديث: **"إِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ»**(١)، والبدعة هي ما أحدث في الدين على خلاف ما كان عليه النبي (ﷺ) والصحابة في العقيدة والعمل، قال ابن عمر: **«كُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَإِنْ رَآهَا النَّاسُ حَسَنَةً»**(٢).

وتكمن خطورة البدعة في أمور:

١-أنها تحبط العمل الذي هي فيه لقول النبي (ﷺ): **«مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»**(٣).

٢-فيها اتهام الدين بالنقص.

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦) وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

(٢) أخرجه ابن بطة في الإبانة (٢٠٨)، واللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة (١٢٦).

(٣) أخرجه مسلم (١٧١٨).

٣-فيها اتهام الرسول بعدم البلاغ.

٤-أنّها تسوِّد وجوه أصحابها في الآخرة، قال تعالى: ﴿**يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ**﴾ [سورة آل عمران:١٠٦]، قال ابن عباس: تسود وجوه أهل البدع.

٥-أنهم يحجبون عن الشرب من حوض النبي (عليه الصلاة والسلام) كما في الحديث: «**أَنَا فَرَطُكُمْ عَلَى الحَوْضِ، فَمَنْ وَرَدَهُ شَرِبَ مِنْهُ، وَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لَمْ يَظْمَأْ بَعْدَهُ أَبَدًا، لَيَرِدُ عَلَيَّ أَقْوَامٌ أَعْرِفُهُمْ وَيَعْرِفُونِي، ثُمَّ يُحَالُ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ» قَالَ أَبُو حَازِمٍ: فَسَمِعَنِي النُّعْمَانُ بْنُ أَبِي عَيَّاشٍ، - وَأَنَا أُحَدِّثُهُمْ هَذَا، فَقَالَ: هَكَذَا سَمِعْتَ سَهْلًا، فَقُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: وَأَنَا - أَشْهَدُ عَلَى أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ، لَسَمِعْتُهُ يَزِيدُ فِيهِ قَالَ: " إِنَّهُمْ مِنِّي، فَيُقَالُ: إِنَّكَ لاَ تَدْرِي مَا بَدَّلُوا بَعْدَكَ، فَأَقُولُ: سُحْقًا سُحْقًا لِمَنْ بَدَّلَ بَعْدِي**"(١).

---

(١) أخرجه البخاري (٧٠٥٠).

٦-براءة النبي (ﷺ) من المبتدع؛ لقوله في الحديث: **"فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي»**(١).

٧-أنه لا يوفق للتوبة، كما جاء في الحديث الذي رواه ابن أبي عاصم في السنة وغيره: " **إِنَّ اللهَ حَجَزَ - أَوْ قَالَ: حَجَبَ - التَّوْبَةَ عَنْ كُلِّ صَاحِبِ بِدْعَةٍ**"(٢).

قوله: والدليل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [سورة المائدة:٣].

المقصود باليوم هو يوم عرفة وكان يوم جمعة وقد نزلت هذه الآية في حجة الوداع في السنة العاشرة قبل وفاة النبي (ﷺ) بثلاثة وتسعين يوماً.

عن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه)، **أن رجلا، من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا معشر اليهود نزلت، لاتخذنا ذلك اليوم عيدا. قال: أي آية؟ قَالَ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي**

(١) أخرجه البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٣٧) وقال الألباني: حديث صحيح.

وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا﴾ قَالَ عُمَرُ: «قَدْ عَرَفْنَا ذَلِكَ اليَوْمَ، وَالمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ عَلَى النَّبِيِّ (ﷺ)، وَهُوَ قَائِمٌ بِعَرَفَةَ يَوْمَ جُمُعَةٍ»[(١)].

قال تعالى في هذه الآية: ﴿**وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي**﴾: **والنعمة نعمتان:**

الأولى: نعمة مطلقة وهي الإسلام والسُّنَّة، وهي أعظم النعم.

الثانية: نعمة مقيدة، وهي الأمن والصحة والمال والبنون.

قوله: ﴿**وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينًا**﴾ فلا يسخطه أبدا، وقد سبق تعريف دين الإسلام في الأصل الثاني بما يغني عن إعادته.

(١) أخرجه البخاري (٤٥)، ومسلم (٣٠١٧).

[وفاة النبي (ﷺ)]

قال الإمام المجدد (رحمه الله):

والدليل: على موته (ﷺ) قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ [سورة الزمر: ٣٠-٣١].

أراد المؤلف (رحمه الله) بهذا الرد على الصُّوفية والقبوريين الذين يستغيثون بالنَّبي (ﷺ) ويدعونه مع الله أو من دون الله في الشِّدة والرخاء، ويزعمون أنه يجيب الدعوات ويقضي الحاجات على اختلاف اللهجات في البر والبحر والجو، ومن ذلك قول البوصيري الذي سبق معنا:

فإنّ لي ذمّة منه بتسميتي ... محمّداً وهو أوفى الخلق بالذّمم
إن لم يكن في معادي اخذاً بيدي ... فضلاً، وإلّا فقل يا زلّة القدم
يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ... سواك عند حلول الحادث العمم
ولن يضيق رسول الله جاهك بي ... إذا الكريم تجلّى باسم منتقم
فإنّ من جودك الدّنيا وضرّتها ... ومن علومك علم اللّوح والقلم

إلى آخر ما قال فإن هذا فيه الشرك الصريح مما يضاد التوحيد الذي جاء به النبي (ﷺ) وجاهد عشر سنين في مكة يدعو إليه حتى نزلت الفرائض، وهذا الاعتقاد ما زال موجودا عند عدد من الناس حتى وقتنا هذا.

استدل المؤلف (رَحِمَهُ ٱللَّهُ) بقوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ و(إنَّ) للتوكيد، فهذا إخبار عن أنه (ﷺ) سيموت حتى لا يختلفون في موته، وقوله: (مَيِّتٌ) أي: ستموت، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾[1]

وفي الحديث عن عائشة (رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا)، زوج النبي (ﷺ)، أن رسول الله (ﷺ)، **مات وأبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بالسنح، - قال: إسماعيل: يعني بالعالية - فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله (ﷺ)، قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذاك، وليبعثنه الله، فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم، فجاء أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ فكشف عن رسول الله (ﷺ) فقبّله، قال: بأبي أنت وأمي، طبت حياً وميتاً، والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتتين أبداً، ثم خرج فقال: أيها الحالف على رسلك، فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه، وقال: ألا من كان يعبد محمداً (ﷺ) فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإنَّ الله حي لا يموت، وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ وَقَالَ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ**

---

(١) سورة آل عمران: ١٤٤.

أَعْقَـٰبِكُمْۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔاۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾ [سورة آل عمران:١٤٤]. **قال: فنشج الناس يبكون"**(١).

وقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَۖ أَفَإِيْن مِّتَّ فَهُمُ ٱلْخَـٰلِدُونَ﴾ [سورة الأنبياء:٣٤].

قوله: ﴿وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ أي: سيموتون، ﴿ثُمَّ إِنَّكُمْ﴾ ثم: للترتيب والتعقيب، وهو يشمل المؤمن والكافر، ﴿عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾ فيخاصم المظلوم الظالم، ويخاصم الضعيف المتكبر، ويخاصم الضال المهتدي، فكل متنازعين في الدنيا يتخاصمان يوم القيامة، كما قيل: وعند الله تجتمع الخصوم.

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦٦٧).

[إثبات المعاد والحساب والجزاء]

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب (رَحِمَهُ اللَّهُ):

وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿۞ مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [سورة طه:٥٥].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا﴾ [سورة نوح:١٧-١٨].

وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى﴾ [سورة النجم:٣١].

وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ ۚ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ ۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [سورة التغابن:٧].

الشَّـــــــرح

قوله: (وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ)، البعث: هو الإثارة، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ﴾ [سورة العاديات:٩]، أي: أُثِير وأُخرِج.

والمقصود: إخراج الناس من قبورهم أحياء بعد إعادة الأرواح في الأجساد.

والإيمان بالبعث ركن من أركان الإيمان باليوم الآخر، وقد سبق الكلام عليه عند الكلام على أركان الإيمان الستة ومنها أن تؤمن بالبعث.

وأدلة البعث في القرآن أكثر من سبعمائة آية، وكذا ما يأتي من الأحاديث مما فيه بيان الحشر والنشر والحوض والبعث والميزان والحساب، وقد سبق طرف من الكلام على البعث وسيأتي هنا بقية المبحث.

قال المؤلف: وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَٰكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ [سورة طه:٥٥]، أي: من الأرض حين خلق آدم من تراب، ﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ﴾ أي: بالدفن بعد الموت في الأرض، ﴿وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: بالبعث يوم القيامة.

واستدل بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا ۝١٧ ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا وَيُخۡرِجُكُمۡ إِخۡرَاجٗا ۝١٨﴾ [سورة نوح:١٧-١٨]، أي: أنشأكم من تراب الأرض وخلقكم منه، ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمۡ فِيهَا﴾، ثم للتراخي والترتيب، ﴿وَيُخۡرِجُكُمۡ﴾ أي: يبعثكم يوم القيامة، ﴿إِخۡرَاجٗا﴾ تأكيد لما سبق.

قال الإمام المجدد (رحمه الله): (وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ)

الحساب في اللغة:

العد والإحصاء بدقة.

واصطلاحاً:

إطلاع العباد على أعمالهم يوم القيامة.

ومن أدلته قوله تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُ وَعَلَيۡنَا ٱلۡحِسَابُ﴾ [سورة الرعد:٤٠].

وقوله: ﴿إِنَّ إِلَيۡنَآ إِيَابَهُمۡ ۝٢٥ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا حِسَابَهُم﴾ [سورة الغاشية:٢٥-٢٦].

وقوله: ﴿وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ [سورة البقرة:٢٠٢]، أي: يحاسب جميع خلقه في ساعة واحدة.

الناس في الحساب على ثلاثة أصناف:

الصنف الأول: من يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، كما جاء في حديث ابن عباس (رضي الله عنهما): قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): ... "**عُرِضَتْ عَلَيَّ الأُمَمُ، فَجَعَلَ النَّبِيُّ وَالنَّبِيَّانِ يَمُرُّونَ مَعَهُمُ الرَّهْطُ، وَالنَّبِيُّ لَيْسَ مَعَهُ أَحَدٌ، حَتَّى رُفِعَ لِي سَوَادٌ عَظِيمٌ، قُلْتُ: مَا هَذَا؟ أُمَّتِي هَذِهِ؟ قِيلَ: بَلْ هَذَا مُوسَى وَقَوْمُهُ، قِيلَ: انْظُرْ إِلَى الأُفُقِ، فَإِذَا سَوَادٌ يَمْلأُ الأُفُقَ. ثُمَّ قِيلَ لِي: انْظُرْ هَا هُنَا وَهَا هُنَا فِي آفَاقِ السَّمَاءِ، فَإِذَا سَوَادٌ قَدْ مَلأَ الأُفُقَ، قِيلَ: هَذِهِ أُمَّتُكَ، وَيَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ هَؤُلاَءِ سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ". ثُمَّ دَخَلَ وَلَمْ يُبَيِّنْ لَهُمْ، فَأَفَاضَ الْقَوْمُ، وَقَالُوا: نَحْنُ الَّذِينَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاتَّبَعْنَا رَسُولَهُ، فَنَحْنُ هُمْ، أَوْ أَوْلاَدُنَا الَّذِينَ وُلِدُوا فِي الإِسْلاَمِ، فَإِنَّا وُلِدْنَا فِي الْجَاهِلِيَّةِ. فَبَلَغَ النَّبِيَّ (صلى الله عليه وسلم) فَخَرَجَ فَقَالَ: "هُمُ الَّذِينَ لاَ يَسْتَرْقُونَ، وَلاَ يَتَطَيَّرُونَ، وَلاَ يَكْتَوُونَ، وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ." فَقَالَ عُكَّاشَةُ بْنُ مِحْصَنٍ: أَمِنْهُمْ أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: "نَعَمْ". فَقَامَ آخَرُ فَقَالَ: أَمِنْهُمْ أَنَا؟ قَالَ: "سَبَقَكَ بِهَا عُكَّاشَةُ"**[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٣٤١٠)، ومسلم (٢٢٠).

الصنف الثاني: من توزن حسناته وسيئاته من أهل التوحيد، فهو بحسب ما يرجح منها، ويوزن العمل والعامل والصحف، كما سبق ذلك في ذكر الكلام على الموازين.

الصنف الثالث: الكفار، تعرض عليهم سيئاتهم ثم يطرحون في النار، وقد يساقون إليها بدون أن تعرض عليهم على اختلاف درجاتهم.

ثمرات الإيمان بالحساب والجزاء:

- **الاستعداد ليوم المعاد**، كما قال عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): **«حَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُحَاسَبُوا وَزِنُوا أَنْفُسَكُمْ قَبْلَ أَنْ تُوزَنُوا، فَإِنَّ أَهْوَنَ عَلَيْكُمْ فِي الْحِسَابِ غَدًا أَنْ تُحَاسِبُوا أَنْفُسَكُمْ تَزَيَّنُوا لِلْعَرْضِ الْأَكْبَرِ يَوْمَ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ»**[١].
- وعَنْ مَيْمُونِ بْنِ مِهْرَانَ قَالَ: **«لَا يَكُونُ الرَّجُلُ تَقِيًّا حَتَّى يُحَاسِبَ نَفْسَهُ مُحَاسَبَةَ شَرِيكِهِ، وَحَتَّى يَعْلَمَ مِنْ أَيْنَ مَلْبَسُهُ وَمَطْعَمُهُ وَمَشْرَبُهُ»** رواه وكيع في كتاب الزهد[٢].

---

(١) اخرجه أحمد في الزهد (٦٣٣) قال ابن كثير في مسند الفاروق (٢/٦١٢): " أثر مشهور، وفيه انقطاع".

(٢) أخرجه وكيع في الزهد (٢٣٩)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٥٢٧١).

قوله: (وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ). الجزاء هو: المكافأة على الشيء ثواباً أو عقاباً.

واستدل المؤلف على ذلك فقال: وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَ ٱلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ بِٱلۡحُسۡنَى﴾ [سورة النجم:٣١]، وهي الجنة، وهذا من فضل الله (ﷻ) وإحسانه.

ثم ذكر المؤلف حكم من كذب بالبعث فقال (رَحِمَهُ ٱللَّهُ): (وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ)، (مَنْ): شرطية، وفعلها: (كَذَّبَ)، وجوابها: (كَفَرَ)، وهذا إجماع لأنه تكذيب لله ولكتبه وإنكار لكمال قدرته وعلمه وحكمته، وفي هذا رد على الفلاسفة وكفار قريش.

واستدل على ذلك بقوله تعالى: وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْۚ قُلۡ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلۡتُمۡۚ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ ۝٧﴾ [سورة التغابن:٧].

قال ابن فارس: "الزعم القول من غير صحة ولا يقين".[١] وقد يأتي الزعم حقًا وهو قليل.

فقوله: ﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبۡعَثُواْ﴾ أي: ظنوا كذبا أن لن يبعثوا، قال: ﴿قُلۡ بَلَىٰ﴾ هذا نفي لنفيهم، ونفي النفي إثبات، قوله: ﴿وَرَبِّي﴾ قسم بالرب (ﷻ)؛ لأن وقوع البعث متعلق بالربوبية، فالإحياء والإماتة والخلق والإعادة من أفراد الربوبية.

قوله: ﴿لَتُبۡعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ﴾ التأكيد هنا باللام والنون لأنه واقع لا محالة.

قوله: ﴿وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [سورة الروم:٢٧].

الأدلة على إثبات البعث:

أولاً: الدلالة النقلية: فقد تواتر في جميع الأمم عن أنبيائها وفي كتبهم بغير نكير، أي: الإيمان بالبعث موجود عند أصحاب الكتب السماوية السابقة.

---

(١) انظر: مقاييس اللغة (٣/١٠) مادة: (زعم).

ثانياً: الدلالة العقلية: فقد دل العقل على إمكان البعث بعدة أمور:

الأول: الذي خلق الإنسان من عدم قادر بلا شك على إعادته، كما قال تعالى: ﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ [سورة الأنبياء:١٠٤].

الثاني: عظم قدرة الله (ﷻ)، فالذي خلق السماوات السبع وما فيهن وما بينهما والأرضين السبع وما فيهن لا يعجزه إعادة الخلق مرة أخرى.

الثالث: جاء في غير موضع ذكر إحياء الأرض بعد موتها بإنزال المطر عليها فتحيا، وقد ضرب هذا المثل المشاهد لإحياء الخلق بعد موتهم.

ثالثاً: دلالة الحس، فقد دل الحس والواقع على إحياء الموتى، وقد ذكر الله تعالى في القرآن أمثلة كثيرة، وفي سورة البقرة منها خمسة أمثلة سبق ذكرها تفصيلا ونذكر هنا رؤوسها وهي:

١-في قصة قتيل بني إسرائيل لما أمرهم الله (ﷻ) أن يذبحوا بقرة ليضربوه ببعضها ليذكر من قتله.

٢-في قصة القوم الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت فقال لهم الله موتوا ثم أحياهم.

٣-في قصة الذي مرَّ على قرية وهي خاوية على عروشها قال أنَّى يحيي هذه الله بعد موتها فأماته الله مائة عام ثم بعثه، وبعد ذلك أراه كيف يحيي الله الحمار الذي كان معه شيئاً فشيئاً.

٤-في قصة إبراهيم (عَلَيْهِ السَّلَامُ) عندما طلب من ربه أن يريه كيف يحيي الموتى فأمره أن يأخذ أربعة من الطير فيقطعهن قطعاً قطعًا فيضع في كل جبل منهن جزءاً ثم يدعوهن فيأتينه تطير وتسعى.

٥-في قصة بني إسرائيل لما طلبوا من موسى أن يروا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة ثم بعثهم الله من بعد موتهم.

والإيمان بالبعث بعد الموت من موجب أسماء الله (جَلَّ وَعَلَا) وصفاته، فهو (جَلَّ وَعَلَا) من أسمائه القدير والقادر والعليم والحكيم، فموجب الإيمان بقدرته التامة أنه قادر على أن يعيد الخلق كما بدأهم، وموجب الإيمان بعلمه وحكمته أن يبعث الخلائق للحساب والجزاء، فلو لم يكن بعث ولا حساب ولا جزاء لكان خلق الخلق عبثاً، ولكان تكليفهم لا فائدة منه، وهذا خلاف حكمته وموجب أسمائه وصفاته، قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [سورة المؤمنون:١١٥].

[الحكمة من إرسال الرسل]

قال الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله):

وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [سورة النساء:١٦٥].

وَأَولُهُمْ نُوحٌ (عليه السلام) وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ (ﷺ) وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ. وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿۞ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [سورة النساء:١٦٣].

وكل أمة بعث الله إليهم رسولا من نوح إلى محمد يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [سورة النحل:٣٦].

وَ افْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ (رحمه الله) تَعَالَى: مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ.

وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ. وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ، إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنِ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَمَنْ

حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ. وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تعَالَى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٢٥٦﴾ [سورة البقرة:٢٥٦]، وَهَذَا هُوَ مَعْنَى لا إله إلا اللهُ.

وَفِي الْحَدِيثِ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ»(١) وَاللهُ أعلم.

الشَّـــــــرح

قال المؤلف (رَحِمَهُ اللهُ): (وَأَرْسَلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُلِ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ) فيه بيان الحكمة من إرسال الرسل.

- **والحكمة من إرسال الرسل هي:**

١-إقامة الحجة على العالمين.

٢-تعريف العباد ما يجب لربهم من صفات الكمال وأسماء الجلال.

٣-تعريف العباد كيف يعبدون ربهم (عَزَّ وَجَلَّ).

(١) أخرجه الترمذي (٢٦١٦) وقال: هذا حديث حسن صحيح.

واستدل الإمام المجدد (رحمه الله) بقوله تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِ﴾ [سورة النساء:١٦٥].

والبشارة: هي الإخبار بما يسرُّ غالبا، وقد تذكر قليلا فيما يسوء كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الانشقاق:٢٤].

والإنذار: هو الإعلام بالشيء المخوف الذي يمكن تداركه بالتحذير منه.

وقال عن الرسل (مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ) أي: يبشرون الموحدين بالجنة والنعيم المقيم، وينذرون أهل الشرك والعصيان بالعذاب الأليم، وقد جاء في كتاب الله هذه المهمة بصيغة الحصر، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ ٱلۡمُرۡسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَۖ فَمَنۡ ءَامَنَ وَأَصۡلَحَ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٤٨ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلۡعَذَابُ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ﴾ [سورة الأنعام:٤٨-٤٩].

قوله: (لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)، هذا فيه الحكمة من إرسال الرسل وهي إقامة الحجة كما قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا﴾ [سورة الإسراء:١٥]؛ لأن العقل البشري لا يستقل بمعرفة ما يجب لله (جل وعلا) وما ينبغي له (سبحانه وتعالى).

ثم ذكر المؤلف أول الرسل بعد ظهور الشرك فقال: (وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ (عليه السلام) وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ (ﷺ) وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ)، يقصد بهذا أول الرسل بعد ظهور الشرك؛ لأن أول الأنبياء آدم (عليه السلام) والذي بعث لبنيه وأهله، روى ابن حبان من حديث أبي أمامة: "أَنَّ رَجُلًا، قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ أَنَبِيٌّ كَانَ آدَمُ؟ قَالَ: «نَعَمْ، مُكَلَّمٌ»، قَالَ: فَكَمْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ نُوحٍ؟ قَالَ: «عَشَرَةُ قُرُونٍ»[(١)].

قال عكرمة: "كَانَ بَيْنَ آدَمَ وَنُوحٍ عَشَرَةُ قُرُونٍ، كُلُّهَا عَلَى الإِسْلاَمِ". رواه الطبري في تفسيره[(٢)].

ثم وقع الانحراف وحصل الشرك، قال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [سورة البقرة:٢١٣].

---

(١) أخرجه ابن حبان (٦١٩٠) وإسناده صحيح.

(٢) أخرجه ابن سعد في الطبقات (٣٥/١)، وابن أبي شيبة في المصنف (٣٤٦٢٩)، وابن جرير في التفسير (٣٠٣/٢٣).

وقد بين ابن عباس (رضي الله عنهما) بداية حدوث الشرك فقال: «**صَارَتِ الأَوْثَانُ الَّتِي كَانَتْ فِي قَوْمِ نُوحٍ فِي العَرَبِ بَعْدُ أَمَّا وَدٌّ كَانَتْ لِكَلْبٍ بِدَوْمَةِ الجَنْدَلِ، وَأَمَّا سُوَاعٌ كَانَتْ لِهُذَيْلٍ، وَأَمَّا يَغُوثُ فَكَانَتْ لِمُرَادٍ، ثُمَّ لِبَنِي غُطَيْفٍ بِالْجَوْفِ، عِنْدَ سَبَإٍ، وَأَمَّا يَعُوقُ فَكَانَتْ لِهَمْدَانَ، وَأَمَّا نَسْرٌ فَكَانَتْ لِحِمْيَرَ لِآلِ ذِي الكَلاَعِ، أَسْمَاءُ رِجَالٍ صَالِحِينَ مِنْ قَوْمِ نُوحٍ، فَلَمَّا هَلَكُوا أَوْحَى الشَّيْطَانُ إِلَى قَوْمِهِمْ، أَنِ انْصِبُوا إِلَى مَجَالِسِهِمُ الَّتِي كَانُوا يَجْلِسُونَ أَنْصَابًا وَسَمُّوهَا بِأَسْمَائِهِمْ، فَفَعَلُوا، فَلَمْ تُعْبَدْ، حَتَّى إِذَا هَلَكَ أُولَئِكَ وَتَنَسَّخَ العِلْمُ عُبِدَتْ**»، أي: نُسِي العلم، رواه البخاري[١].

وفي تفسير الطبري عن محمد بن قيس قَالَ: "**كَانُوا قَوْمًا صَالِحِينَ مِنْ بَنِي آدَمَ، وَكَانَ لَهُمْ أَتْبَاعٌ يَقْتَدُونَ بِهِمْ، فَلَمَّا مَاتُوا قَالَ أَصْحَابُهُمُ الَّذِينَ كَانُوا يَقْتَدُونَ بِهِمْ: لَوْ صَوَّرْنَاهُمْ كَانَ أَشْوَقَ لَنَا إِلَى الْعِبَادَةِ إِذَا ذَكَرْنَاهُمْ، فَصَوَّرُوهُمْ، فَلَمَّا مَاتُوا، وَجَاءَ آخَرُونَ دَبَّ إِلَيْهِمْ إِبْلِيسُ، فَقَالَ: إِنَّمَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ، وَبِهِمْ يُسْقَوْنَ الْمَطَرَ فَعَبَدُوهُمْ**"[٢]، فلما وقع الشِّرك أرسل الله إليهم رسوله نوحًا (عليه السلام)، فكان أول رسول.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٩٢٠).

(٢) أخرجه ابن جرير في التفسير (٢٣/٣٠٣).

قال المؤلف: (وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ (ﷺ) وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ)، كما قال تعالى: ﴿**مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا**﴾ [سورة الأحزاب:٤٠].

وفي الحديث: "**لَا نَبِيَّ بَعْدِي** "(١).

واستدل المؤلف (رحمه الله) على ذلك فقال: وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ [سورة النساء:١٦٣].

سبق بيان معنى الوحي وأنَّه: الإعلام في خفاء، وهذه الآية تدل على أنه لا رسول قبل نوح (عليه السلام) كما يزعم البعض عن إدريس، فنوح (عليه السلام) أول رسول بعد ظهور الشرك، وجاء في حديث الشفاعة: "**فَيَأْتُونَ نُوحًا فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَوَّلُ رَسُولٍ أُرْسِلَ إِلَى الْأَرْضِ**"(٢)، وهذا نصٌّ صريح.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٤٠٤).

(٢) أخرجه بهذا اللفظ الحاكم في المستدرك (٤٠٠٥).

قال الإمام المجدد (رحمه الله):

(وكل أمة بعث الله إليهم رسولا من نوح إلى محمد يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ)

روى الإمام أحمد عن معاوية بن حيدة قال: قال رسول الله (ﷺ): «**أَلَا إِنَّكُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً أَنْتُمْ خَيْرُهَا وَأَكْرَمُهَا عَلَى اللهِ**»[1] صححه الحافظ ابن حجر رحمه الله[2].

وقوله: (يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ) هذه الغاية التي دعا إليها كل الرسل، فكلهم قالوا لقومهم: ﴿ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [سورة الأعراف:٥٩].

وجاء في حديث معاذ لما أرسله الرسول (ﷺ) إلى اليمن قال: «**إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ، فَلْيَكُنْ أَوَّلَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ عِبَادَةُ اللهِ، فَإِذَا عَرَفُوا اللهَ، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَ قَدْ فَرَضَ عَلَيْهِمْ خَمْسَ صَلَوَاتٍ فِي يَوْمِهِمْ وَلَيْلَتِهِمْ، فَإِذَا فَعَلُوا،**

---

(١) أخرجه أحمد (٢٠٠٢٩).

(٢) انظر: فتح الباري (٨/٢٢٥).

فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ اللهَّ فَرَضَ عَلَيْهِمْ زَكَاةً مِنْ أَمْوَالِهِمْ وَتُرَدُّ عَلَى فُقَرَائِهِمْ، فَإِذَا أَطَاعُوا بِهَا، فَخُذْ مِنْهُمْ وَتَوَقَّ كَرَائِمَ أَمْوَالِ النَّاسِ»(١).

قال: (وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ) بعد أن ذكر الركن الأول للتوحيد وهو إفراد الله بالعبادة ذكر هنا الركن الثاني وهو البراءة من عبادة غير الله.

قال: وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [سورة النحل:٣٦]، وقد أكدت هذه الآية بثلاثة مؤكدات وهي:

- واو القسم.
- واللام الموطئة للقسم.
- و(قد).

وقوله: **﴿بَعَثْنَا﴾** أي: أرسلنا، وقوله: **﴿وَاجْتَنِبُوا﴾** أي: كونوا في جانب بعيد عن الطاغوت.

(١) أخرجه البخاري (١٤٥٨)، ومسلم (١٩).

الطاغوت في اللغة: مشتق من الطغيان وهو مجاوزة الحد، من (طغا يطغى) أو (طغا يطغو)، قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَا ٱلْمَآءُ حَمَلْنَٰكُمْ فِى ٱلْجَارِيَةِ﴾ [سورة الحاقة:١١].

ويطلق على الواحد أو أكثر، والمذكر والمؤنث، كما قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱجْتَنَبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَ أَن يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ ۚ فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [سورة الزمر:١٧].

وقد اختلفت عبارات السلف في تفسير الطاغوت:

١-عن عمر قال: هو الشيطان؛ وذلك لأن الشيطان هو الداعي لكل شر.

٢-وعن عكرمة أن الطَّاغوت هو الكاهن.

٣-وقيل: هو الساحر.

٤-وقيل: الطاغوت الأصنام.

٥-وقيل: الطاغوت هو حيي بن أخطب.

٦-قال الإمام مالك: الطاغوت كل ما عبد من دون الله.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله): "والطاغوت كل مُعظَّم ومتعظِّم بِغَيْر طَاعَة الله وَرَسُوله من إِنْسَان أَو شَيْطَان أَو شَيْء من الْأَوْثَان"[١].

وقال الإمام المجدد رحمه الله في رسالة له في معنى الطاغوت: "والطاغوت؛ عام في كل ما عُبد من دون الله ورضي بالعبادة من معبود أو متبوع أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله فهو طاغوت"[٢].

قال المؤلف (رحمه الله): (وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ)، بين في هذه الجملة أن هذا من الفرائض الواجبة على العباد، أي: الكفر بالطاغوت، وهو اعتقاد بطلان عبادة غير الله وبغضها، والبراءة منها وأهلها.

ثم ذكر كلام ابن القيم (رحمه الله) في تعريف الطاغوت فقال: (مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ)، أي: تعدى قدره، **(مَعْبُودٍ)** كالأصنام، **(أَوْ مَتْبُوعٍ)** كالكهان وعلماء السوء، **(أَوْ مُطَاعٍ)** كالأمراء.

---

(١) انظر: جامع الرسائل (٢/٣٧٣).

(٢) انظر: رسالة في معنى الطاغوت (صـ١).

أنواع الطواغيت:

ثم ذكر أنواع الطواغيت فقال: (وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ. وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ)

أي: متنوعة، وأكبرهم خمسة وهم:

الأول: إبليس لعنه الله، وكلمة (إبليس) في اللغة من الإبلاس، وهو اليأس؛ لأنه أيس من رحمة الله، وهو الشيطان، وبدأ به لأنه أصل كل شر وبلية ومعصية، وعداؤه مستمر إلى يوم القيامة.

الثاني: من عبد وهو راضٍ، وهذا قيد مهم جداً؛ لأن المعبودات قسمان:

١-من لم يرض بعبادة عابديه، كعيسى والملائكة والصالحين.

٢-من رضي بالعبادة. فلا بد من مراعاة هذا القيد.

الثالث: من دعا الناس إلى عبادة نفسه، سواء أجيب على ذلك أم لا فهو طاغوت، كفرعون وكسرى.

الرابع: من ادعى شيئاً من علم الغيب، وعلم الغيب: هو كل ما غاب عنا مما لا يعلمه إلا الله مما كان ومما سيكون، قال تعالى: ﴿**قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ**﴾ [سورة النمل:٦٥].

وقال: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾﴾ [سورة الأنعام:٥٩].

والمدَّعون لعلم الغيب كثر منهم:

- السحرة.
- والكهان.
- والرَّمالون.
- والمنجِّمون.
- وأصحاب الأبراج.
- والذين يقرؤون الفنجان.
- وبعض المتصوفة الذين يدعون معرفة الغيب السابق واللاحق.

الخامس: من حكم بغير ما أنزل الله، وفي نسخة: (الحاكم الجائر المغيِّر لأحكام الله)، وهذه مسألة كبيرة زلت فيها أقدام وضلت فيها أفهام، وحصل على المجتمعات منها طوام، فينبغي على طالب العلم ألا يتسرع فيها وأن يردها إلى أهل العلم.

الحكم بغير ما أنزل الله تعتريه عدة أحكام:

الأول: قد يكون الحاكم بغير ما أنزل الله مجتهداً له أجر واحد، كما جاء في الحديث: «**إِذَا حَكَمَ الْحَاكِمُ فَاجْتَهَدَ فَأَصَابَ فَلَهُ أَجْرَانِ، وَإِذَا اجْتَهَدَ فَأَخْطَأَ فَلَهُ أَجْرٌ**»(١).

الثاني: قد يكون فاسقا، إذا حكم بغير ما أنزل الله لطلب دنيا أو مال وهو يعلم أنه آثم في ذلك، وأنه يجب عليه الحكم بما أنزل الله، فهو فاسق كما قال تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ**﴾ [سورة المائدة:٤٧].

الثالث: قد يكون ظالماً. حاصله إذا حكم بغير ما أنزل الله لأخذ حق غيره لنفسه أو لغيره ظلماً وعدواناً وهو يعلم أنه يجب عليه الحكم بما أنزل الله، فهو ظالم، ومنه قوله تعالى: ﴿**وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ**﴾ [سورة المائدة:٤٥].

الرابع: قد يكون كافراً كفراً أكبر، وذلك إذا حلَّل الحرام المجمع عليه أو حرّم الحلال المجمع عليه ونسب ذلك إلى شريعة الله، أو رأى انه لا يجب عليه

---

(١) أخرجه الترمذي (١٣٢٦)، والنسائي (٥٣٨١) وصححه الألباني.

الحكم بما أنزل الله في زمان ما أو أنَّه غير لائق، فهذا يتنزل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [سورة المائدة:٤٤].

وفي الحديث عن عدي بن حاتم قال: **أتيت النبي** (ﷺ) **وفي عنقي صليب من ذهب، فقال: "يَا عَدِيُّ اطْرَحْ هَذَا الْوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ، فَطَرَحْتُهُ فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةَ فَقَرَأَ هَذِهِ الْآيَةَ ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا، فَقُلْتُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللهُ فَتُحَرِّمُونَهُ، ويُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللهُ فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟» قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ»**(١)، وقد ذكر هذا التفصيل غير واحد من أهل العلم منهم ابن القيم في مدارج السالكين، والشنقيطي في أضواء البيان، والشيخ ابن عثيمين في بعض رسائله المتأخرة.

وقد جاء عن السلف ما يبين أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفرا دون كفر، من ذلك:

(١) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥)، والطبراني في الكبير (٢٠١٨-٢١٩) واللفظ له. وحسنه الألباني.

- ما جاء عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: ليس كمن كفر بالله وملائكته وكتبه ورسله.
- وقال طاووس بن كيسان: ليس بكفر ينقل عن الملة.
- وجاء عن عطاء أنه قال: كفر دون كفر، وظلم دون ظلم، وفسوق دون فسوق.

وقد بينا هذه المسألة بالتفصيل في شرح الطحاوية فلتراجع هناك، وفي شرح كتاب الإيمان من صحيح الإمام البخاري.

وقد جاء في الحديث الشريف التحذير من التسرع في التكفير فقال (عليه الصلاة والسلام): **«أَيُّمَا رَجُلٍ قَالَ لِأَخِيهِ يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا»**(١)، وفي رواية (فإن كان كذلك وإلا حارت إليه)، أي: رجع عليه كلامه.

واستدل المؤلف رحمه الله على هذا فقال: وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَاۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝٢٥٦﴾

[سورة البقرة:٢٥٦]، أي: أن هذا الدين واضح بيِّن، وعلاماته ظاهرة فلا يحتاج

---

(١) أخرجه البخاري (٦١٠٤)، ومسلم (٦٠).

لإكراه الناس عليه، ﴿قَد تَّبَيَّنَ﴾ أي: وضح لظهور الأدلة، ﴿ٱلرُّشۡدُ﴾ الهدى والإيمان، ﴿مِنَ ٱلۡغَيِّ﴾ وهو خلاف الرشد، وهو الغواية، ﴿فَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسۡتَمۡسَكَ بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾ أي: تمسك تمسكا بالغا، و﴿فَقَدِ﴾ للتحقيق، و﴿بِٱلۡعُرۡوَةِ ٱلۡوُثۡقَىٰ﴾، هي القوية، وقد فسرها بعض السلف بعدة تفسيرات منها:

- الإسلام.

- وقيل: الحب في الله والبغض في الله.

- وفسرها سعيد بن جبير بلا إله إلا الله. ﴿لَا ٱنفِصَامَ لَهَا﴾ أي: لا تنكسر ولا تنقطع.

قال المؤلف رحمه الله: (وَفِي الْحَدِيثِ: «رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامُ وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ)، أي: عموده الذي لا قيام إلا به، **(وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ)**.

ثم ختم المؤلف (رحمه الله) هذه الرسالة العظيمة برد العلم إلى الله كما بدأها بقوله: **(اعلم رحمك الله)** فقال: **(والله أعلم)** وهذا من الأدب في الفتوى والكتابة.

ثم ختم ذلك بالصلاة والسلام على النبي محمد وآله وصحبه، فجزى الله المؤلف خير الجزاء عما بين ووضح.

نسأل الله أن ينفعنا بما علمنا، وأن يجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

انتهى هذا الإملاء في آخر جمادى الآخرة لعام واحد وأربعين بعد الأربعمائة والألف من الهجرة.

وتم الانتهاء من مراجعته في غُرَّة محرم لعام اثنين وأربعين بعد الأربعمائة والألف من الهجرة، والحمد لله في البدء والختام، وعلى نبينا محمد أفضل الصَّلاة وأزكى السَّلام.

الفهارس

-فهرس الموضوعات